الفيلسوف الثائر

سقـــراط

اسم الكتاب : سقـــراط

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران - دار الراوي

رقم الايداع : 15495 / 2017

الترقيم الدولي : 978-977-349-101-7

الفيلسوف الثائر

سقـــراط

يوسف أبو الحجاج الأقصرى

تقديم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا إذ هدانا الله. هذا الإصدار.. إصدار متميز... صادفت صعوبة بالغة في إعداده وذلك إنه يتحدث عن (سقراط) ذلك الفليسوف اليوناني الكلاسيكي الذي يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية القديمة، وسبب الصعوبة إن سقراط لم يترك كتابات مطلقًا وجل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلاميذه عنه ومن بين ما تبقى لنا من العصور القديمة: وتعتبر حوارات أفلاطون من أكثر الروايات شمولية وإلمامًا بشخصيته سقراط... وبحسب وصف شخصية سقراط كما وردت في حوارات أفلاطون فإنه ساهم وأسس علم الأخلاق وإليه تنسب مفاهيم السخرية السقراطية والمنهج السقراطي وهو لا يزال يستخدم في مجال واسع من النقاشات كما أنه نوع من البياجوجيا (علم التربية) والتي بحسبها تطرح مجموعة من الأسئلة ليس بهدف الحصول على إجابات فردية فحسب وإنما كوسيلة لتشجيع الفهم العميق للموضوع المطروح وطبقًا لما أورده أفلاطون عن سقراط يمكن القول أن سقراط له إسهامات هامة وخالدة في مجالات المعرفة والمنطق وإنه أساسًا للكثير من الأعمال الفلسفية التي جاءت بعد ذلك كان سقراط جهبذا في الفلسفة وقديسًا أدين بالهرطقة بسبب تعاليمه ومع ذلك ظل وبقى وذهب الذين أدانوه ولم يذكر التاريخ حتى أسماءهم.

سقراط يلقب أحيانًا بأنه أكثر الرجال حكمه في العالم القديم فبعد أن عمل في الفن وفتا قصيرًا تحول إلى الفلسفة وذاع صيته كمفكر وكان دائم السعي وراء الحقيقة والاهتمام بجعل مشاكل الحياة المعقدة أسهل على الفهم ولتحقيق هذه الغاية كان مضطرًا إلى مناقشة الكثير من المعتقدات والتقاليد المسلم بها وهو الأمر الذي اكسبه الكثير من العداوات.

في حياة (بيريكليس) كان سقراط في أمان لأن هذا السياسي صاحب السلطة والنفوذ كان معجبًا به كثيرًا ولكن بعد موت (بيريكليس) شرع أعداء سقراط في الضغط عليه لكي يسحب أفكاره وأقواله ولم يقبل سقراط ذلك... وأخيرًا حكم عليه وأدين بتهمه (إفساد الشباب) عبر أفكاره وأقواله.. وحكم عليه بالموت بتجرع سهم الشوكة القاتل.. ومات سقراط الفليسوف ومع هذا الفيلسوف الثائر وأفكاره وآرائه يدور هذا الإصدار.

تمنياتي بقراءة ممتعة

والله الموفق والمستعان

يوسف أبو الحجاج الاقصري

بطاقة تعارف

الاسم: سقراط

الميلاد: 469 ق.م

الوفاة: 399 ق.م

مكان الميلاد: اثينا

مكان الوفاة: اثينا

سبب الوفاة: الانتحار القسري بتناول (السم)

الجنسية: يوناني

اسم الزوجة: زينيب

طلابه: أفلاطون- كسينوفون- سبيباسي- انتيستنيسي- اريستبوسي- ايسقراط

المهنة: فليسوف

الفصل الأول

سقراط

الفليسوف الثائر

سقراط الفليسوف الثائر الذي دفع حياته ثمناً لأفكاره إذا جاز لنا أن نحكم من مشاهدة التمثال النصفي الذي وصل إلينا من انقاض التماثيل القديمة، فقد كان سقراط بعيدًا عن الوسامة، برأس أصلع، ووجه كبير مستدير، وعينين عميقتين ذات فراسة، وأنف كبير عريض زاهر، لقد كان رأسه في الحقيقة أقرب إلى رأس عتال، منه إلى رأس أعظم الفلاسفة شهرة. ولكننا لو نظرنا مرة ثانية، فإننا نرى من خلال الحجر الخام الذي صنع منه هذا التمثال شيئًا من الدمائة واللطافة الإنسانية والبساطة، التي جعلت من هذا الفيلسوف والمفكر الوطني، معلمًا محبوبًا من أحسن الشباب اثينا. إننا نعرف القليل عنه، ومع ذلك فنحن نعرفه معرفة بالغة، أكثر بكثير من أفلاطون الارستقراطي وارسطو العالم.

ونستطيع أن نرى من وراء أكثر من الفين وثلثمئة سنة مضت هيئته الغليظة، المكسوة دائمًا بنفس الثوب المهلهل، وهو يسير على مهله في الأماكن الطلقة، غير مهتم بسخافة السياسة، يمسك بتلابيب مناقشته وفريسته، ويجمع الشباب والمتعلمين حوله، ويستدرجهم إلى إحدى الزوايا المظلمة في أروقة المعبد، ويسألهم أن يحددوا ويعرفوا كلامهم.

وكان هؤلاء الشبان يلتفون حوله في جماعات كثيرة، ساعدته في خلق فلسفة أوروبية. وكان بينهم رجال أغنياء مثل أفلاطون والسبيادس، وكانوا استمتعون بتحليله وهجومه وقدحه للنظام الديمقراطي في اثينا وكان من بين هؤلاء الشباب بعض الاشتراكيين مثل انتيثينا الذي أحب في سقراط عدم اهتمامه بفقره: وواحد

أو اثنين من الفوضويين مثل اريستيوس الذي تاقت نفسه إلى عالم لا وجود فيه للأسياد أو العبيد، بحيث يكون سكان هذا العالم جميعهم أحرارًا بعيدين عن القلق مثل سقراط، أن جميع المشاكل التي تثير المجتمع الإنساني اليوم، وتقدم مادة لنقاش الشباب الذي لا ينتهي أثارت وهيجت أيضًا تلك الجماعة اليونانية الصغيرة من المفكرين والمحدثين، الذين شعروا مع معلمهم، أن الحياة بغير بحث وحديث، ليست جديرة بأن يعيش فيها الإنسان. لقد مثلت تلك الحلقات جميع الاتجاهات الفكرية والاجتماعية، وربما كانت هذه الاجتماعات أصل هذه الاتجاهات الفكرية الاجتماعية.

من الصعب أن يعرف أحد كيف عاش سقراط. فهو لم يعمل في حياته قط، ولم يهتم بالغد، وكان يأكل عندما يسأله تلاميذه أن يشرف موائدهم. وهذا يدل على أنهم احبوا عشرته ومرافقته. ولكنه لم يكن يستقبل في بيته استقبالاً حسنًا ولم يرحب به، لأنه أهمل زوجته وأولاده، وكان كسولاً في نظر زوجته لا يصلح لشيء، لم يوفر لعائلته من الغذاء أكثر من الخبز. لقد أحبت زوجته الحديث والحوار بكثرة مثله، ويبدو أنه كان يدور بينهما حوار أخفق أفلاطون في تسجيله عنهما، ومع ذلك فقد أحبته هي أيضًا، ولم تقو على رؤيته يموت عندما تجرع كأس السم، مع أنه تجاوز السبعين من عمره. ما هو السبب في تبجيل تلاميذه له بهذا الشكل؟ قد يكون السبب أنه كان رجلاً كما كان فيلسوفًا، فقد عرض نفسه مرة للخطر وانقذ حياة السيبيادس في المعركة، وكان يقدر على الشرب باعتدال كإنسان فاضل نبيل بغير وجل أو إفراط، ولكن لا جدال في أنهم أحبوا فيه أكثر اعتداله في حكمته، فهو لم يدع الحكمة ولكن البحث عنها بشغف واهتمام، فقد كان هاويًا للحكمة لا محترفًا لها. لقد قيل أن صوت الرب قد أعلن أن سقراط أحكم أهل اليونان، وأنه فسر هذا القول على أنه استحسان لللا أدرية التي كانت نقطة البداية لفلسفته. «لا أعرف سوى شيء واحد وهو أنني لا أعرف شيئًا، أن الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الإنسان يتعلم الشك- وخصوصًا الشك في المعتقدات

التي يحبها، والعقائد والبديهات أو الحقائق المقررة التي يؤمن بها ويقدسها. من يعرف كيف أصبحت هذه المعتقدات العزيزة علينا حقائق يقينية بيننا، وفيما إذا كانت لم تلدها خلسة رغبة سرية، ملبسة الرغبة ثوب الفكرة؟ لا وجود للسياسة الحقة ما لم يتجه العقل إلى فحص نفسه، لقد قال سقراط أعرف نفسك.

لقد جاء فلاسفة قبله طبعًا: فلاسفة أقوياء مثل طاليس وهرقليطس، وفلاسفة دهاة مثل بارميندس وزيتون، وعرافون مثل فيثاغورس وامباذقليس ولكنهم كانوا في الدرجة الأولى فلاسفة طبيعيين. لقد بحثوا عن طبيعة الأشياء الخارجية، عن قوانين وأصول العالم المادي، لقد قال سقراط عن هذه الفلسفة الطبيعية أنها فلسفة حسنة، ولكن هناك فلسفة أجدر بالفلاسفة أن يدرسوها أكثر من جميع هذه الأشجار والحجارة التي تملأ الطبيعة، وحتى أهم من جميع هذه النجوم والكواكب، وهي عقل الإنسان. ما هو الإنسان، وإلى أي شيء سيتحول في المستقبل؟

وهكذا فقد اتجه إلى سبر غور الروح الإنسانية. يستطلع الافتراضات، ويستجوب اليقينيات. وإذا تحدث الناس عن العدالة المتعارفة، كان يسألهم بهدوء، ما هي هذه العدالة؟ وماذا تعنون بهذه الكلمات المجردة التي تحلوّن بها بمثل هذه السهولة مشاكل الحياة والموت؟ وماذا تعنون بكلمة الشرف، والفضيلة، والأخلاق والوطنية، وماذا تعني بنفسك؟ لقد أحب سقراط أن يتناول بالبحث والسؤال مثل هذه الأسئلة الأخلاقية والنفسانية. لقد عانى البعض من طريقة سقراط في السؤال والبحث التي كانت تحتاج إلى تعريف وتحديد محكم صحيح وتفكير واضح، وتحليل حقيقي. وقد اعترض هذا البعض على طريقته هذه، وقالوا له أنه يسأل أكثر مما يجب، وبترك عقول الرجال أكثر اضطرابًا مما كانت عليه قبل المحاورة والنقاش أو الحديث، ومع ذلك فقد قدم إلى الفلسفة جوابين ثابتين لسؤالين تناولا مشكلتين أكثر مشاكلنا تعقيدًا، وهما ما هو معنى الفضيلة؟ وما هي أفضل دولة؟

والواقع إننا لا نجد موضوعًا كثر أهمية وحيوية، بالنسبة إلى الشباب في ذلك

الجيل الأثيني من بحث هذين الموضوعين. لقد دمر السفسطائيون إيمان هؤلاء الشباب بآلهتهم وآلهاتهم، وحطموا القانون الخلقي الذي كانم يعززه خوفهم من عقاب هذه الآلهة لو قاموا بارتكاب ما يخالف رضاها. وأصبح من الواضح الآن أنه لا مانع من أن يسير الإنسان على هواه، ويفعل ما يطيب له، مادام يفعل ذلك في داخل حدود القانون. لقد اضعفت روح الفردية الخلق الأثيني، وتركت المدينة أخيرًا فريسة أمام الاسبارطيين الأشداء يطبعهم. أما بالنسبة إلى الدولة، أي شيء أشد سخرية من هذه الديمقراطية التي تقودها وتتزعمها الجماهير التي تسوقها العاطفة. هذه الحكومة التي تقوم على النقاش الشعبي، وهذا الاختيار المتهور المندفع، وعزل القواد وتنفيذ الإعدام فيهم، هذا الاختيار الذي- لا اختيار فيه- للبسطاء من المزارعين والتجار في تناوب وتعاقب أبجدي كأعضاء للمحكمة العليا للبلاد؟ وكيف السبيل إلى إيجاد قيم أخلاقية جديدة في اثينا. وكيف يمكن انقاذ الدولة؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة هي التي دفعت اثينا إلى الحكم على سقراط بالموت، متهمة اياه بالفساد الخلقي، لقد كان المواطنون الاثينيون الكبار في السن على استعداد لتشريفه لو حاول استعادة الدين القديم الذي يؤمن بتعدد الآلهة، ولو أنه دعا الشباب المتحرر من الخرافات والأساطير القديمة إلى المعابد والحدائق المقدسة. وطلب منهم مرة ثانية تقديم الاضاحي لآلهة آبائهم. ولكنه اعتقد أن تلك سياسة انتحارية لا أمل فيها وأنها تقدم إلى الوراء. لقد كان له إيمانه الخاص به، لقد آمن بإله واحد، وآمن باعتدال بأن الموت سوف لا يقضي عليه تمامًا، أدرك أن هناك شريعة أخلاقية أبدية لا يمكن أن تقوم على دين ضعيف كالدين الذي آمنت به اثينا في ذلك الوقت. وإذا كان الإنسان يقدر على بناء نظام من الأخلاق مستقل تمامًا عن المبادئ الدينية، ويطبق على الملحد والقسيس على السواء، عندئذ قد تأتي الديانة وتروح من غير أن تحل الاسمنت الأخلاقي الذي يجعل من الأفراد مواطنين مسالمين في المجتمع. إذا كانت

كلمة الخير على سبيل المثال تعني عاقل والفضيلة تعني الحكمة، وإذا كان من الممكن تعليم الناس أن يروا بوضوح مصالحهم الحقيقية، وليروا من بعيد النتائج البعيدة لأعمالهم، وينقدوا، وينسقوا رغباتهم في انسجام بناء له أهداف، فإن هذا قد يقدم إلى الرجل المتعلم والسفطائي القيم الأخلاقية التي تعتمد في الأمي الجاهل على الشريعة والسيطرة الخارجية. قد تكون جميع الخطايا أخطاء أو تحيزًا في الرؤية وضعفًا أو حماقة أو سخافة؟ وقد يكون في الرجل الذكي العاقل نفس طابع العنف والبواعث والدوافع بطريقة أفضل من الجاهل، ويقل انحداره عن الجاهل في تقليد الوحش ففي المجتمع الذي يقوم حكمه على العقل، وهو المجتمع الذي يعيد إلى الفرد في سلطات واسعة أكثر مما أخذ منه في حرية مقيدة تكن فائدة كل شخص في سلوكه وولائه إلى المجتمع. وبذلك فإن الحاجة تقتضي بصيرة واضحة لضمان السلم والنظام والنية الطيبة. ولكن إذا كانت الحكومة نفسها حكومة تسودها الفوضى والسخافة، تحكم ولا تساعد، وتأمر ولا تقود، كيف تستطيع أن تقنع الفرد في مثل هذه الدولة على أن يطيع القوانين، ويحصر بحثه الذاتي داخل دائرة الخير العام؟ ولا غرابة أن يتجه القبيادس ضد دولة لا تثق بالمقدرة والكفاءة والمواهب، وتقدر العدد أكثر من المعرفة، ولا غرابة أن تعم الفوضى في البلاد التي يسودها الجهل، حيث تقوم الجماهير بوضع القرارات في سرعة وجهل، أليس من الجهل أن يحل مجرد العدد محل الحكمة؟ وعلى العكس ألا ترى الناس مجتمعين في جماعات أكثر سخافة، وعنقًا، وقسوة منهم وهم منفصلين ومنفردين؟

أليس من المخزي أن يقوم على حكم الشعب الخطباء الذين يضيعون وقتهم في خطبهم الطويلة كالأوعية النحاسية التي إذا دقت وقرعت تستمر في الدق والقرع إلى أن نضع أيدينا عليها ونوقف دقها؟

لا جدال في أن إدارة الدولة مسألة تحتاج إلى أفكار أعظم العقول وأحسنها، إذ كيف يمكن انقاذ مجتمع أو جعله قويًا إلا إذا أمر هذا المجتمع أحكم رجاله وأعقلهم؟

تصور ردّ فعل الحزب الشعبي الديمقراطي في اثينا على هذا الإنجيل الارستقراطي الذي كان يدعو له سقراط، في وقت استدعت فيه ضرورة الحرب اسكات كل نقد ولوم لسياسة الحكومة. وعندما كان الأغنياء والمثقفون يعدون الخطط للثورة. وتصور شعور انايتس الزعيم الديمقراطي الذي رأى ابنه يصبح تلميذًا لسقراط ويتحول عن عبادة آلهة والده ويسخر منه في وجهه. ألم يتنبأ «ارسطو فان» بدقة بمثل هذه النتيجة في تبديل الفضائل القديمة بالذكاء والعقل.

وبعدئذ اشتعلت الثورة، وحارب الرجال لها وعليها، بمرارة حتى الموت، وعندما فازت الديمقراطية تقرر مصير سقراط وأصبح واضحًا، فقد كان الزعيم العقلي للحزب الثائر، مهما كان مسالمًا هو نفسه، فقد كان مصدر الفلسفة الارستقراطية البغيضة ومفسد الشباب الذين أسكرهم النقاش، ورأى أنايتس ومليتس زعماء الديمقراطية، أن من الأفضل أن يموت سقراط.

وبقية القصة يعرفها جميع العالم، لأن أفلاطون سجلها في نثر أشد روعة من الشعر. ومن الأفضل أن نقرأ لأنفسنا ذلك «الاعتذار» أو الدفاع البسيط الذي أعلن فيه أول شهيد للفلسفة حقوق الإنسان، وضرورة حرية الأفكار، ورفض أن يطلب الرحمة من الجماهير التي احتقرها دائمًا. لقد كانت لديها السلطة لتعفو عنه، ولكنه رفض باحتقار أن يناشدها الرحمة. لقد أراد القضاة إطلاق سراحه بينما صوتت الجماهير الغاضبة مطالبة إعدامه، ألم ينكر وجود الآلهة؟ ويل له لأنه علم الناس فوق طاقتهم على التعلم وهكذا حكموا عليه بشرب السم. وجاء اصدقاؤه إلى سجنه وعرضوا عليه مهربًا سهلاً، فقد رشوا الموظفين الذين يقفون بينه وبين الحرية والفرار، ولكنه رفض فقد بلغ السبعين من عمره (399 قبل الميلاد (وربما اعتقد أن الوقت قد حان ليفارق الحياة، وأنه قد لا يموت أبدًا بمثل هذه الطريقة المفيدة لتدعيم مبادئه. لقد قال لأصدقائه الحزينين افرحوا وقولوا إنكم تـوارون في التراب جسدي فقط، وعندما نطق هذه الكلمات قال أفلاطون في فقرات تعد من أعظم فقرات الأدب في العالم.

نهض سقراط ودخل غرفة الحمّام مع كريتو الذي طلب منا إن ننتظر وانتظرنا نفكر ونتحدث... في حزننا الكبير. فقد كان لنا بمثابة الأب الذي سنفقده بعد قليل ونعيش بقية حياتنا يتامى... لقد اقتربت ساعة غروب الشمس إذ مر وقت طويل ونحن في الداخل. وعندما خرج علينا جلس معنا مرة ثانية... ولكننا لم نتحدث سوى القليل، ودخل السجان... ووقف بجانبه قائلاً إليك يا سقراط يا أنبل وألطف وأفضل من جاءوا إلى هذا المكان، سوف لا أتهم أو استذنب شعور الرجال الآخرين الذين يثورون ويغضون ويسبون ويشتمون عندما أقدم لهم السم وأطلب منهم أن يشربوه إطاعة لأوامر السلطة. وأنا على يقين بأنك سوف لا تغضب مني لأنني لست المذنب كما تعرف والجرم يقع على الآخرين، وهكذا استودعك وأرجو أن تتحمل ما تستدعيه الحاجة، أنت تعرف مأموريتي، وبعدئذ انفجرت دموعه وخرج. لقد نظر سقراط له وقال «أقابل تحياتك الطيبة وسأفعل ما طلبت» وبعدئذ اتجه لنا وقال يا له من رجل ساحر لطيف، منذ أن جئت إلى هذا السجن وهو يحضر دائمًا لرؤيتي... والآن تشاهدون كبير حزنه عليّ. ولكن يجب أن نفعل بما يقول. دعهم يحضرون السم يا كريتو إذا كان معدًا، أو دع الخادم يعمل على إعداده. فيما بعد قال كريتو أن الشمس لا تزال فوق أعلى الهضاب والكثيرون تناولوا جرعة السم في وقت متأخر، وبعد أن أعلنوا بحكم الإعدام أخذوا يأكلون ويشربون وينهمكون في مباهج شهوانية، لذلك لا تتسرع إذ لازال هناك وقت. وقال سقراط، نعم يا كريتو أولئك الذين تتحدث عنهم على حق في فعل ما فعلوه لأنهم كانوا يعتقدون باستفادتهم من التأخير في الشرب. ولكني مصيب في التسرع وعدم التأخير واعتقد أن تأخري في شرب السم لن يجدني نفعًا، لأنني بذلك أكون قد وفرت حياة قد انتهت، ولا يمكنني سوى الضحك على نفسي بذلك. لذلك أرجوك أن تفعل كما أقول ولا ترفض قولي. وعندما سمع كريتو هذا أشار إلى الخادم الذي ذهب وغاب بعض الوقت وعاد بعدئذ مع السجان يحمل كأس السم.

وقال سقراط «أنت يا صديقي السجان المجرب في هذه الأمور هل تدلني كيف أفعل وكيف أتقدم في شرب السم». وأجاب الرجل عليك أن تمشي فقط إلى أن تشعر بثقل قدميك فتستلقي وبهذا يسري السم في جسدك وفي الوقت ذاته قدم الكأس إلى سقراط الذي أخذه بأسهل وألطف طريقة، وبدون رجل أو تغير في لونه أو قسمات وجهه ناظرًا إلى الرجل بملء عينيه كعادته دائمًا وقال «ما رأيك لو تقربنا بهذا الكأس لأحد الآلهة؟ هل أفعل ذلك أو لا أفعل؟» وأجاب الرجل» نحن نعد يا سقراط فقط ما نعتقد أنه الكفاية «وقال سقراط أفهم ومع ذلك يجب أن أصلي إلى الآلهة لتسهل رحلتي من هذا العالم إلى العالم الآخر، لذلك هل من الممكن أن تمنح لي صلاتي» ورفع الكأس إلى شفتيه في هدوء تام وابتهاج.

لقد تمالك معظمنا شعوره حتى ذلك الوقت، ولكن عندما شاهدناه يشرب ورأيناه أيضًا ينتهي من شربه لم نعد نقدر على تمالك شعورنا واحتمالنا، وانهمرت دموعي على الرغم مني فغطيت وجهي وبكيت على نفسي لمجرد تفكيري في مصيبتي لفقدي مثل هذا الصديق. ولم أكن أنا الأول في البكاء، لأن كريتو الذي وجد نفسه عاجزًا عن ضبط مشاعره وكبت دموعه نهض وابتعد وتبعته. وفي تلك البرهة أرسل أبو لودوروس الذي كان مستغرقًا في البكاء طيلة الوقت صرخة عالية أظهرتنا جميعًا بمظهر الجبن. لقد احتفظ سقراط وحده بهدوئه وقال «ما هذا الصراخ والصخب؛ لقد ابعدت النساء عن هنا كيلا أشعر بالإهانة في مثل هذه الطريقة، فقد سمعت بوجوب ترك الرجل يموت في سلام. أهدأوا واصبروا». وعندما سمعنا ذلك خجلنا من أنفسنا وكبحنا دموعنا، واستمر سقراط في المشي هنا وهناك إلى أن بدأت ساقاه كما قال السجان تخونه ولا تقوى على حمله فاستلقى على ظهره. وكان الرجل الذي قدم له السم ينظر إلى ساقيه وقدميه، وبعد فترة جس قدميه بشدة وسأله فيما إذا كان يشعر، وأجاب سقراط بالنفي، فجس ساقه واستمر يضغط على جسمه أعلى فأعلى وقال لنا أنه أصبح باردًا وجامدًا، وشعر سقراط بذلك وقال «ستكون النهاية عندما يصل السم

إلى القلب» وبدأ البرود يصل إلى فخذيه فكشف وجهه (لأنه كان قد غطى نفسه، وقال وكانت كلماته الأخيرة «يا كريتو أنا مدين يديك إلى اسكيبيوس أرجوك أن لا تنس دفع هذا الدين؟» وقال كريتو «سأدفع الدين هل هناك شيء آخر» ولم يسمع جوابًا لهذا السؤال وبعد دقيقة أو اثنتين سمعنا حركة وقام الخادم بتغطيته وقام كريتو بإغلاق عينيه وفمه.

هكذا كانت نهاية صديقنا الذي اسميه بحق، احكم واعدل وافضل جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتي.

لقد كان اجتماع أفلاطون بسقراط نقطة تحول في حياته، فقد نشأ أفلاطون في جو وثير مريح وربما في جو من الثروة. وكان شابًا وسيمًا وعنيفًا، وسمى أفلاطون على ما يقال بسبب عرض كتفيه، وكان جنديًا فائقًا وبارزًا، ونال الجائزة مرتين في الألعاب. لم تجر العادة أن ينشأ الفلاسفة في مثل هذه السن من المراهقة، ولكن روح أفلاطون الداهية وجدت بهجة جديدة في لعبة سقراط المنطقية الجدلية، ووجدت لذة لرؤية السيد سقراط يد حض البراهين والاعتقادات ويخترق الفرضيات باسئلته الحادة. ودخل أفلاطون إلى هذه الرياضة التي كانت أشد خشونة من المصارعة. وراح تحت رعاية سقراط وإرشاده ينتقل من مجرد النقاش إلى تحليلات دقيقة ومحادثات مثمرة، وامسح مشغوفًا بالحكمة وبمعلمه سقراط، واعتاد أن يقول الشكر الله الذي خلقني بوثانيًا لا بربريًا حرًا لا عبدًا رجلاً لا امرأة ولكن فوق الجميع انني ولدت في عصر سقراط.

لقد كان في الثامنة العشرين عند موت سقراط، وترك هذا المصير المحزن أثرًا على كل تفكير التلميذ، وملأه احتقارًا للديمقراطية وكراهية للجماهير والمجموع التي ولدتها في نفسه نشأته الارستقراطية، وساقه إلى قرار يستدعي ضرورة القضاء على الديمقراطية واستبدالها بحكم الأعقل والأفضل من الرجال. وقد أمضى حياته وعمره باحثًا عن وسيلة تهديد إلى اكتشاف أعقل الرجال وأفضلهم وإقناعهم وتمكينهم من الحكم.

وفي الوقت ذاته فإن جهوده في محاولة انقاذ حياة سقراط أثارت الريبة والشك حوله من جانب الزعماء الديمقراطيين، وحثه أصدقاؤه على مغادرة اثينا التي أصبحت إقامته فيها محفوفة بالأخطار، ولم تعد مكان آمن له. وكانت هذه فرصة مناسبة له تمكنه من مشاهدة العالم، وهكذا سافر في عام (499 قبل الميلاد) والواقع إننا لا نستطيع أن نقول ابن ذهب في رحلته، هذه على وجه التحديد، وهناك خلاف بين العلماء حول كل مرحلة من رحلته، ويبدو أنه قد سافر أولاً إلى مصر وتأثر عندما سمع من طبقة الكهنة التي كانت تحكم مصر يومئذ أن اليونان دولة وضيعه تنقصها التقاليد الثابتة والحضارة العميقة، وكان فلاسفة النيل في ذلك العهد لا يعيرون اليونان أهمية بالغة أو اهتمامًا جديًا. ولكن لا شيء يعلم الإنسان أكثر من الصدمات واهتزاز المشاعر. إن ذكريات هذه الفئة المثقفة المستنيرة التي كانت تحكم شعبًا زراعيًا ساكنًا بقيت حية في تفكير أفلاطون، ولعبت دورًا في كتابته عن الدولة الفاضلة المثالية. ثم أبحر إلى صقليه وإيطاليا، وهناك التحق لفترة من الزمن في المدرسة أو المذهب الذي انشاه فيثاغورس، ومرة ثانية تأثر عقله بذكرى جماعه صغيرة من الرجال انصرفت للعلم والحكم، تعيش عيشه بسيطة على الرغم من أن سلطة الحكم كانت في يدها. لقد تجول اثنتي عشرة سنة مرتشفًا الحكمة من كل نبع ومنهل، وجالسًا في كل كعبة ومزار، متذوقًا كل شريعة وقانون. وقد ذكر البعض أنه ذهب إلى فلسطين وانعجن فترة من الوقت في طينة الأنبياء الذين كان معظمهم من الاشتراكيين، وإنه شق طريقه إلى ضفاف الفانج وتعلم التفكير والتأمل من الهندوس. ولكننا لا نعرف.

وعاد إلى اثينا في عام 387 قبل الميلاد. أنه الآن رجل في الأربعين من عمره، وقد اكتملت رجولته ونضجه باختلاطه بشعوب مختلفة، وامتصاصه الحكمة من أقطار كثيرة، لقد فقد القليل من حماسة الشباب الحارة، ولكنه اكتسب أفكارًا ومشاهدات تعتبر كل تطرف واندفاع منصفاً للحقيقة فقط. لقد اكتسب معرفة وفنًا، ولأول مرة يعيش الفيلسوف والشاعر معًا في شخص أفلاطون وروحه،

وابتدع لنفسه وسيلة في التعبير وجد الجمال والحقيقة فيها مكانًا لهما، ومسرحًا لتوجيه الحوار. لم تلبس الفلسفة على ما نعتقد إطلاقًا مثل هذا الثوب الجميل اللامع الذي بدأ في أسلوب أفلاطون قبله أو بعده، وعلى الرغم من الترجمة نجد هذا الأسلوب يشرق ويتلألأ ويسطع ويقفز ويتدفق.

المشكلة الأخلاقية عند سقراط

يدور هذا الحديث في بيت سيفالوس، وهو ارستقراطي موسر، واشترك في الجماعة التي حضرت هذا الحديث كل من: جلاكون وادمانتوس شقيقًا أفلاطون وثراسيماخوس وهو سفسطائي مثير وشرس، وسقراط الذي يتحدث بلسان أفلاطون في هذا الحوار، وهو يسأل سيفالوس، ما هي أعظم البركات والخيرات التي جنيتها من الثروة والمال؟

ويجيب سيفالوس أن الثروة نعمة له، لأنها مكنته من أن يكون سخيًا وكريمًا وعادلاً. ويسأله سقراط بطريقته الماكرة، ماذا يقصد بكلمة العدالة، وهنا يطلق سراح كلاب الحرب الفلسفية، إذ لا شيء أصعب من التعريف، ولا شيء أشد في الفحص العقلي من محاولة تعريف الأشياء وتحديد المقصود منها. أن سقراط يجد في هذا طريقة سهلة لتدمير التعاريف التي تقدم له الواحد تلو الآخر. لقد أثارت طريقة سقراط ودحضه لكل تعريف يقدم له ثراسيماخوس الذي كان أقل صبرًا من الحاضرين فانفجر صارخًا وقال:

ما هذه السخافة يا سقراط؟ وما بالكم جميعًا تسقطون أمامه الواحد تلو الآخر بهذه الطريقة الماكرة؟ لأني أقول أنك إذا كنت تريد أن تعرف ما هي العدالة يجب عليك أن تجب لا أن تسأل، ولا تفخر لأنك تدحض ما يقوله الآخرون... لأن الكثير من الناس يقدرون على السؤال ولكنهم لا يقوون على الإجابة.

ولم يرهب هذا التحدي سقراط أو يخيفه، واستمر في إلقاء الأسئلة بدلاً من الإجابة.. وبعد مدة من المراوغة والدفع أخذ يثير ثراسيماخوس ويدفعه إلى إلزام نفسه بتعريف. أصغوا إذًا، يقول السفسطائي بغضب، إنني أعلن أن

القوة هي الحق، وأن العدالة هي مصلحة الأقوى... أن الحكومات المختلفة تسن القوانين سواء أكانت حكومات ديمقراطية أو ارستقراطية أو اتوقراطية.

كل هذه الحكومات تقوم بسن القوانين وفقًا لمصالحها، وتستخدم هذه القوانين التي وضعتها بنفسها لتخدم مصالحها، إن هذه الحكومات تقدم لشعوبها ما نسميه بالعدالة مثلاً وتعاقب كل فرد يتجاوز حدود هذه العدالة أو ينتهك حرمتها... إنني اتكلم عن العدالة على نطاق واسع، وهذا المعنى الذي أقصده سيظهر أكثر وضوحًا في الحكومة الأتوقراطية التي تستولي بالغش والخداع والقوة على أملاك الآخرين بالجملة وليس بالتدريج، والآن بعد أن يغتصب الرجل أموال المواطنين ويحيلهم إلى عبيد، عندئذ بدلاً من أن نسميه لصًا ومختلسًا ونصابًا نسميه سعيدًا ويباركه الجميع ولا يجرؤ أحد على لومه أو انتقاده على المظالم التي أوقعها بهم بسبب الخوف من بطشه..

هذا هو الميثاق الذي يُنسب اليوم إلى نيتشه الفيلسوف الألماني، عندما يقول: حقًا إنني أسخر كثيرًا من الضعفاء الذين يفكرون أنفسهم صالحين، لأنهم ليس لديهم مخالب لينشبوها، لقد عبر شتيرنر عن هذه الفكرة باختصار عندما قال، حفنة من القوة خير من كيس من الحق، وربما يكون هذا المبدأ خير من وضعه أفلاطون نفسه في تاريخ الفلسفة في حوار آخر، «جورجياس» حيث ينبذ السفسطائي كاليكلس الأخلاق ويستنكرها على أساس كونها بدعه من اختراع الضعفاء لتقييد قوة الأقوياء.

أنهم يوزعون المديح واللوم بالنسبة إلى مصالحهم، ويقولون أن عدم الأمانة عار والخيانة فضيحة والقوة ظلم، لأنهم يعرفون ضعفهم وعجزهم ويفرحون بالحصول على المساواة والدعوة لها..

ولكن إذا قام رجل قوي لديه القوة الكافية واستطاع أن يهز هذه القيود والسلاسل الأخلاقية ويحطمها ويخرج منها، فإنه سيقوض تحت أقدامه جميع قوانيننا وسحرنا ودساتيرنا وشرائعنا وتعاويذنا وخرافاتنا التي تتنافى مع طبيعة

الكون والحياة. إن من يريد الحياة حقًا يجب أن يسمح لرغباته في الانطلاق إلى أوسع مدى، ولكن عند بلوغ هذه الرغبات مداها الأقصى ينبغي أن تتوفر لديه الشجاعة والذكاء في توجيهها وإشباعها، وأؤكد أن هذا هو النبل والعدالة الطبيعية، ولكن الكثيرين من الناس لا يقدرون على فعل ذلك، لذلك فهم يلومون مثل هؤلاء الأشخاص الأقوياء، والسبب هو عجزهم وضعفهم الذي يريدون التستر عليه ومواراته. وبذلك يسمون الإفراط سفالة ودناءة. إنهم يستعبدون الطبائع النبيلة، ويمدحون العدالة، لأنهم جبناء ضعفاء.

إن مثل هذه العدالة ليست للرجال ولكنها لأقزام الرجال، إنها أخلاق العبيد وليست أخلاق الأبطال، أن فضيلة الرجل الحقيقية هي الشجاعة والذكاء.

ربما تكون هذه اللا أخلاقية نتيجة لتطور الاستعمار في سياسة اثينا الخارجية، ومعاملتها القاسية الشديدة للدول الأضعف منها. أن إمبراطوريتكم، تقوم على قوتكم لا على نية رعاياكم الطيبة. ويذكر المؤرخ ثوسيديدس الذي روى خطبة باركليز أن مبعوثي اثينا أجبروا جزيرة ميلوس على الانضمام إلى الاثينيين في الحرب ضد أسبارطة قائلين، إنكم تعرفون كما نعرف أن الحق ليس سوى مسألة بين دول متساوية في القوة، والقوى يفعل ما يقدر على فعله، والضعيف يقاسي ويعاني لضعفه. لدينا هنا جوهر المشكلة الأخلاقية ولب نظرية السلوك الأدبي والخلقي، ما هي العدالة؟ هل هي التقوى، أم هي القوة؟ وهل من الأفضل أن تكون صالحًا وطيبًا أم الأفضل أن تكون قويًا وشجاعًا؟

كيف يواجه سقراط الذي يتحدث أفلاطون بلسانه هذا التحدي الناجم عن هذه النظرية في العدالة والأخلاق. أنه لم يواجهها في بادئ الأمر بتاتًا، وأشار إلى أن العدالة عبارة عن علاقة بين الأفراد تستمد من التنظيم الاجتماعي، وهذا بالتالي يمكن دراسته بطريقة أفضل في جزء من بناء المجتمع أحسن من دراسته كصفة في سلوك الفرد، ويقول أننا إذا استطعنا إن نصف دولة عادلة يتوفر فيها العدل فإننا نكون في موقف أفضل لوصف الفرد العادل، ويعتذر أفلاطون لهذا الانحراف

بقوله أننا في فحص قوة نظر الإنسان نجعله يقرأ حروفًا كبيرة ثم نطلب منه قراءة الحروف الصغيرة، ويقول أن من الأسهل تحليل العدالة على نطاق واسع أي في الدولة كمجموعة من تحليلها في سلوك الفرد على نطاق ضيق ولكن يجب أن لا ننخدع.

تفسير شخصية سقراط من خلال محاورة (أيون)

ليس لدينا من المعطيات التي يمكن من خلالها تفسير شخصية سقراط سوى تلك المحاورات التي دونها معاصرية دون غيرها.

وماذا تتطلب الطريقة الصحيحة لتفسير سقراط؟ تجيبنا المناقشة التي أجراها سقراط في عامه السادس والخمسين. جرت المناقشة مع «أيون» الشاعر المحترف الذي يقرض الشعر ويفسر القصائد الشعرية. وانتهى سقراط من مناقشته مع «أيون» إلى نتيجة مدهشة: تتمثل في أن أفضل مفسر لشعر «هومر» ليس الشخص المتخصص مثل «أيون» وإنما الشخص العارف بأمور السعادة الإنسانية. ويمكن القول: إن هذا الشخص نفسه يُعد أفضل مَنْ يقدم تفسيرًا لشخصية سقراط.

دعونا نتعرف على أهم ما جاء في تلك المحاورة ما بين سقراط وأيون.

بعد قيام «أيون» بسرد فقرة عن «مركبة السباق» سأله سقراط سؤالاً كان من السهل عليه إجابته:

سقراط: أخبرني ماذا قد يقول «نستورد» لابنه «انيتلوخوس»، حين ينصحه ويشرح له كيف تدور العربة ويديرها في حلبة السباق الذي يقام على شرف «باتروكلوس».

أيون: (ساردًا من الإلياذة) يقول: مل بالعربة المسرعة إلى اليسار بالفرس الأيسر، وانخس الفرس الأيمن بالمهماز. وحين تصرخ بأعلى صوتك، اترك سير اللجام ودع الفرس الأيسر يدور بالعربة حتى تكاد تلامس سرة العجلة الأرض. ولا تصطدم بحجر النهاية أثناء الدوران.

سقراط: يكفي هذا، السؤال الآن مَنْ الذي يستطيع أن يحكم حكمًا صحيحًا على تلك الكلمات التي قالها «هومر» الطبيب أم قائد العجلة الحربية؟

أيون: قائد العربة الحربية بالطبع.

ترك كل من «سقراط» و«أيون» مسألة صواب أقوال «هومر» في هذه السطور دون تحديد، إذ توجد معايير عديدة نستطيع أن نحكم من خلالها على صحة أو صواب هذه الأقوال أكان «هومر» أمينًا في نقل كلمات نستور مثلاً؟ تحتاج إجابة مثل هذا السؤال إلى خبير في التاريخ والسير العامة. ولا يستطيع قائد العربة أو الطبيب إجابة مثل هذا السؤال. كذلك إذا أراد شخص ما أن يعرف مدى صحة عبارات «هومر» من الناحية اللغوية واستخدامه الصيغة الشعرية (مثلاً إذا كان اليونانيون يستخدمون تفعيلة شعرية سداسية التفاعيل) فإنه يحتاج الخبير في أمور النحو لإجابة مثل هذا التساؤل. كذلك قد يجيب «أيون» على سؤال سقراط «بأنه الطبيب، وذلك طالما أننا نحتاج لخبير وعارف بالمخاطر الطبية وللإصابات التي تحدث في السباق. ولا يستطيع أحد الحكم بصحة حديث «هومر» حول سماح الفرد لابنه بالمشاركة في سباق العربات إلا إذا كان جيدًا متخصصًا في إصابات السباقات».

من الواضح أن «أيون» فهم كلمات الحديث بأنها صحيحة وتعني التحدث عن كيفية كسب السباق. ولا تعني الحديث عن مخاطر السباق. وإذا ما فهمنا كلمات سقراط بنفس الطريقة التي فهمها «أيون» فإننا نوافق على إجابته. فلقد صرح «أيون» بوضوح شديد؛ أننا بحاجة لخبير في سباق العربات للحكم على مدى صحة أقوال «هومر» حول السباق.

يستمر «أيون» في الموافقة على تعميم سقراط ما يحدث فى مجالات السباق للمجالات الأخرى. «إذن من ليس لديه معرفة بمجال معين لن يستطيع الحكم عمّا إذا كانت الكلمات والأفعال المتعلقة بهذا المجال صحيحة أم خاطئة؟». «هذا صحيح». وحين يتعلق الأمر بالحكم عن مدى صحة الحديث عن سباق العربات فإن الطبيب لن يكون أقل مرتبة من سائق العربات فقط بل والشاعر أيضًا، حتى لو كانت القصائد قد تحدث بها «هومر» والشاعر متخصص في شعره. ويصدق

ذلك أيضًا على عملية الصيد والطب وقراءة الطالع والمستقبل. فيكون الشاعر أقل مرتبة من الخبير المتخصص في عملية تقييم قيمة الأحاديث الخاصة بتحقق الأهداف في الحرفة مجال تخصصه. ويُعد «أيون» محقًا في الاتفاق مع سقراط.

يتحدى سقراط أيون، ويسأله بعد أن انتقى بعض الفقرات من قصائد «هومر» التي تتحدث عن مهن أخرى بأن يحدد الأقوال التي وردت في هذه القصائد، وتنمي لحرفة إلقاء الشعر أي فقرات من الملحمة يستطيع الشاعر بخبرته أن يفهمها ويقيمها بصورة أفضل من الذي ليست له دراية بالقصائد والشعر عمومًا. يجيب «أيون» بأن ذلك ينطبق على كل قصائد «هومر» والفقرات التي تحدث بها. حينئذ، يقوم سقراط بلفت نظر «أيون» بأنه قد اعترف بنفسه «بأن معرفة الشاعر لا يمكن أن تضم كل شيء». وإذا «بأيون» يجيب إجابة واعدة يقول فيها بأن معرفة الشاعر «تضم القول المناسب والصحيح الذي يمكن أن يتلفظ به الرجل أو المرأة أو العبد أو الإنسان الحر أو الحاكم أو أحد أفراد الرعية».

أحكم على إجابة «أيون» بأنها إجابة واعدة لاقترابها من الموضوع الذي اعتبره سقراط في المحاورة أهم موضوعات «هومر» أفضل شعراء السماء. فوفق رؤية سقراط يتناول هذا الشعر الحديث عن الحروب بصورة أساسية إلى جانب تناوله لمسائل العلاقة الاجتماعية بين الناس، والأخيار والأشرار، والعامة والمثقفين، والعلاقة بين الآلهة والبشر، والأحداث في السماء والعالم السفلي، وصلة الأبطال بالآلهة يفرق سقراط بين الشعر والحرف الأخرى مثل الصيد وسباق العربات، والتنبؤ، والفنون الأخرى. يعرف الخبير بالسباق العلاقة بين البشر والعربات أثناء السباق. ويدرك الخبير في مسألة الصيد العلاقة بين البشر والأسماك أثناء عملية الصيد. ويدرك قارئ الطالع العلاقة ببين البشر والمستقبل والأماني. وهكذا نجد عن طريق المقارنة أن موضوعات الشعر تدور حول أولاً: العلاقات بين البشر وبعضهم بعضًا، سواء كانوا أخيارًا أم أشرارًا، عامة أو متعلمين أثناء الحروب وداخل المجتمعات. وثانيًا: العلاقات بين البشر والآلهة. وثالثًا: العلاقات

بين الآلهة وبعضها البعض بما فيها الحوادث الخارقة (أي الحوادث في السماء أو العالم السفلي). أخيرًا كما يعرف الخبير في السباق أصل المتسابق- كيف يدرب الإله أو البطل على السباق أي كيف- كذلك يعرف العارف بموضوعات الشعر الرئيسية كيف يكون البطل بطلاً بل كيف يصير الإله إلهًا.

صورت عبارات «سقراط» موضوع الشعر على أنه موضوع إنساني خالص وعام. يهتم «الإنجيل» مثلاً بما هو إنساني وبما هو إلهي باعتباره نقيضًا مثلاً لسباق العربات والاهتمام بالصيد. وقد نقرأ «الوصايا العشر» باعتبارها تقدم لنا قائمة بالواجبات الدينية (تذكر يوم السبت) وبالواجبات الخلقية تجاه الآخرين من البشر (يجب ألا تقتل).

ويُعد كونفشيوس نموذجًا ثانيًا ينتمي لتراث ثقافي مستقل تمامًا يتعلق بالمساواة في السلطة. وقد دار اهتمام كونفشيوس حول الطريقة السليمة للتعامل مع البشر. ولم يهتم كونفشيوس بالآلهة كما يهتم بها المفكر الديني. ومع ذلك كانت الحياة الإنسانية الطيبة وفقًا لتعاليمه حياة الولاء الديني للآلهة.

يشرح التفسير الذي قدمه «سقراط» للشعر المنفعة الكبرى التي يمدنا بها الشعر الراقي ويتصف بها الأدب الجيد بصفة عامة. وكما فهم كل من «سقراط» و«أيون» من حديث السباق في قصيدة «هومر» على أنه ليس مجرد وصف أو سرد لواقعة تاريخية، وإنما كلمات تشرح كيف يحقق الإنسان هدفًا، كذلك يجب أن نفهم حديث سقراط عن موضوع الشعر الرئيسي بأنه حديث يبين لنا كيف نحقق أهدافنا الكبرى باعتبارنا بشرًا نحيا مع بعضنا بعضًا وأمام الآلهة.

اعترف بأن القصائد الشعرية لا تهدف كلها لمساعدة الإنسان على إدراك أهداف حياته الإنسانية وكيفية تحقيقها. فقد تم إقراض الشعر ببساطة للتعبير عن عاطفة أو انفعال أو خبرة خاصة أو رؤية معينة. كذلك غالبًا ما نختار قراءة الأدب للتسلية وليس لاكتساب الفضائل ومعرفتها. ومع ذلك، أقر بصحة تفسير سقراط للشعر. فقد اتفق مع «أيون» في بداية حديثهما حول الشعر على أن محور

اهتمامها ينصب على «أفضل الشعراء الدينيين وأحسنهم»، والذي كان «هومر» أبرزهم في تلك الفترة. ولا أستطيع أن أجد موضوعًا إلهيًا أفضل لأي قصيدة شعرية غير الذي حدده سقراط أو انتقاه.

اعتبرت إجابة «أيون» عن سؤال سقراط عن الموضوعات التي وردت في قصائد «هومر» وتعبر عن معرفة الشاعر وخبرته إجابة واعدة. حين قال «ما هو مناسب للرجل أو للمرأة أو لعبد أو لرجل حر أو لحاكم أو لأحد أفراد الرعية». ومع ذلك، حين فحص سقراط إجابته فشل «أيون» في التفرقة بين ما ينبغي أن يقوله الرجل بوصفه حاكمًا، وما ينبغي أن يقوله باعتباره قائدًا للجنود والبحارة.

سقراط: أتقول إن الشاعر يعرف أفضل من القائد ما يمكن أن يقال حين يقود سفينة تواجه العاصفة.

أيون: كلا، يعرف القائد أكثر في تلك الحالة.

سقراط: حسن، أيعرف ما ينبغي أن يقوله قائد ينصح جنوده؟

أيون: يعرف الشاعر مثل هذا القول.

سقراط: ماذا، هل معرفة الشاعر هي نفس معرفة القائد؟

تُعد إجابة «أيون» على سؤال سقراط ناجحة على الرغم من عدم توفيقه. وأرى أن سقراط قد يوافق على أن «الإرهابي» مثلاً قد يكون ناجحًا في قيادة جنوده، وأن «القرصان» قد ينجح في قيادة البحارة فإنهما قد يفشلان باعتبارهما بشرًا أو حكمًا للناس إذا نسبنا الفشل لفساد أخلاقهما وانحلالهما. كذلك قد يكون الطبيب أو النساج أو راعي البقر ناجحًا في عمله وإنسانًا ماهرًا فإنه يكون في نفس الوقت فاسدًا أخلاقيًا وسيئًا.

أكد «سقراط» في نهاية محاورة «خارميدس» على هذه التفرقة مستخدمًا نفس الأمثلة التي ضربها عن الأنواع المختلفة للمعرفة ومقارنتها بمعرفتنا للأنسب لحياتنا ولما ينبغي علينا القيام به باعتبارنا بشرًا.

سقراط: لن نحيا حياة سعيدة وطيبة إلا إذا كانت لدينا معرفة با[illegible]ـر والشر

والأفضل والأسـوأ. ولن تستقيم حياتنا إذا ما توفرت لنا جميع أنواع المعارف الأخرى دون هذه المعرفة بالخير والشر. وإذا ما اخترت «ياكرتياس» فصل هذه المعرفة عن كل المعارف الأخرى، هل يوفر الطب الصحة لنا أو تمدنا صناعة الأحذية بالأحذية أو صناعة النسيج بالملابس، أو يمكن أن تمنع معرفة الريان وخبرته موتنا بالبحر أو هزيمة القائد في المعركة؟

كريتاس: بالطبع لا

سقراط: ومع ذلك، أيها العزيز كريتاس، إذا ما غاب هذا النوع من المعرفة لن تتحقق هذه الأشياء ولن تنتفع منها.

يستمر «سقراط» في وصف هذا النوع الوحيد من المعرفة والخاص بمعرفة الخير والشر بأن هذه المعرفة «هي التي تحقق منفعتنا وتفيدنا». ويعني نفعنا لأنفسنا ككل وليس صحتنا فقط او مدنا بالأحذية والملابس أو المنفعة في الحروب.

نستطيع مع هذه التفرقة بين المعرفة النافعة للإنسان والصور المعرفية الأخرى أن نعيد صياغة دعوى «أيون» بأن الشاعر هو الشخص الوحيد القادر على تقييم كل فقرات «الإلياذة» للشاعر «هومر» من أول قصيدة بها حتى آخرها. فلقد فشل «أجاممنون» مثلاً في بداية «الإلياذة» بسبب رغبته المحمومة في الاحتفاظ بالأسيرة جارية له في التصرف وفق الأعراف. فلم يحترم والد الأسيرة الكاهن المتوسل إليه وحامل الفدية. كانت هذه المعاملة القاسية خطأ استراتيجيًا من اجاممنون باعتباره قائدًا. مما أدى في نهاية الأمر إلى حدوث تذمر بين جنوده. ومع ذلك لم يهتم الشاعر بالاستراتيجية العسكرية وإنما بالاستراتيجية الإنسانية. وتبين لنا الفقرة كيف فشل «أجاممنون» باعتباره إنسانًا بغض النظر عن قيادته العسكرية. وتأكد أن معرفة الشاعر تمكنه من الحكم بصحة حديث «هومر». ليس بالنسبة لنصيحته حول القيادة في الحرب وإنما في دعوته للتمسك بالقيم الإنسانية في الحرب (وفي المجتمع). وإذا انتقينا مثلاً آخر ورد في نهاية «الإلياذة». نجد أن الشاعر يصف لنا كيف استطاع «أخيل» على الرغم من تعطشه للدماء، ورغبته

في التنكيل بالجثة أن يتصرف وفقًا للتقاليد وأصول السلوك وتعاطف مع والد الشخص المقتول. استفاد «أخيل» ماليًا من المقايضة بالجثة. ومع ذلك لم تمثل مسألة الربح من عملية مقايضة الجثة الموضوع الرئيسي عند «هومر» وإنما كيفية تحقيق السعادة الإنسانية بسدادة الرأي وحسن التصرف والتعاطف.

ونستطيع على نفس المنوال أن نفسر العبارات التي ذكرها سقراط نفسه. فتعد الفقرة التي تم ذكرها حيث قدم «نستور» النصائح لأبنه شرحًا أو توضيحًا لآلية التسابق. ومع ذلك قدم «نستور» هذه النصائح مصحوبة بمدح لكل أنواع المعرفة وصورها يقول «نستور»:

«ابني العزيز يجب أن تستوعب كل صور المعرفة (الفنون).

حتى لا تخسر جائزة النصر وتفلت من يديك

تعين المعرفة الربان على قيادة السفينة وسط الأمواج.

والمحافظة على اتجاهها حين تهب الرياح.

وتمكن المعرفة (الفن) من تفوق المتسابق على الآخر».

يهدف «نستور» من حديثه إلى تقديم النصيحة لأبنه حول السباق. ولم يفعل ذلك إلا لقناعته بأن الفوز في السباق يسهم في نجاح حياة ابنه بوصفه إنسانًا. وكما يربط «نستور» سباق العربات بالنجاح في الحياة الإنسانية يجعل الشاعر موضوعه الرئيسي يتمثل في أن السباق لن يكون ناجحًا إلا إذا أدى إلى حياة إنسانية ناجحة. تنسب لمعرفة الشاعر إمكانية الحكم على ما إذا كانت نصيحة «نستور» يمكن أن تجعل أحد أهداف الحياة الإنسانية، تتمثل في احتفاظ العقل بكل أنواع المعارف وصورها. وليس كما انتهت مناقشة سقراط مع كريتاس من قبل، ونصيحته له بأن يسعى لمعرفة ما يحقق خير الإنسان وسعادته فقط. وليس بالمعرفة التي تضم كل أنواع المعارف معًا. «ربما استعان الشاعر بالفقرة التي سردها «أيون» عن حديث «نستور» باعتبارها صورة مجازية يقدم بها النصيحة للإنسانية «اترك اللجام لحصان الميسرة حتى تقترب سرة العجلة من لمس

الحافة ولا تصدم الحجر». وكما يجب أن تتخذ العربة مسارًا مستقيمًا مباشرًا حتى تكسب السباق وتفوز بالجائزة، كذلك يجب أن تستعين الحياة الإنسانية بكل شيء حتى يتحقق لها الاتجاه السليم والمباشر نحو السعادة. ولا تكون مثل المتسابق الأحمق الذي يثق في عربته وخيوله ولا يوجهها. فتجنح أثناء الدوران إلى هذا الاتجاه أو ذاك، وتخرج عن مضمار السباق» الإلياذة.

أعتقد أنني قد وُفقت في مواجهة تحدي سقراط وفي الدفاع عن دعوى «أيون» القائلة بأن الراوي أو الشاعر يعد أفضل من يُيّم كل قصائد «هومر» تقييمًا صحيحًا. كانت مقدمة «سقراط» نفسها عن «موضوع الشعر» النقطة التي بدأت دفاعي منها. يقول سقراط في هذه المقدمة: يكتب «هومر» أفضل الشعراء وأكثرهم اقترابًا من الآلهة عن الاهتمام بالبشر وأحوالهم، وبالتحديد عن كيف يحيا الإنسان وسط أقرانه وفي حضور الآلهة. توجد عدة اعتراضات على هذه المقدمة. إذ يجد البعض أن الإشارة إلى حضور الآلهة ليس ضروريًا. ويستهجن البعض الآخر عدم الإشارة إلى العالم الطبيعي باعتباره مستقلاً عن الإنسانية. وأجيب عن هذه الاعتراضات بتقديم تفسير للآلهة كما فسّرها اليونانيون القدماء، أي نترك مسألة ما إذا كانت الآلهة كائنات مفارقة للطبيعة أم أنها تنتمي إلى بعض جوانب الطبيعة التي تتطلب تقديسنا بها دون حسم. فإذا ما تم تفسير مقدمة «سقراط» بهذه الصورة فإنها تبدو لي صحيحة وأعتقد أنها تبدو كذلك لمعظم الناس.

على الرغم من عدم مخالفتي لما هو شائع في هذا التفسير، فإن النتيجة التي انتهيت إليها تعد جديدة. لم يكن سقراط شاعرًا. ومع ذلك يناقش الموضوع الرئيسي للشعر بالتحديد موضوع السعادة الإنسانية. ويترتب على ذلك بصورة مباشرة أن «المعرفة» (الفن) الذي يتم من خلالها تقييم كل من «سقراط» و«هومر» هي نفسها الذي يتم بها تقييم الشعر والأخلاق تقريبًا. وأقول تقريبًا لأنه ليست هناك حاجة لأي مقدمة أخرى جديرة للوصول إلى مثل هذا الاستنتاج. إذ يختلف فن عن فن آخر إذا

كان هناك اختلاف بين موضوعاتها. وليس من قبيل المصادفة أن سقراط نفسه قد قال بنفس المقدمة حين تحدث عن «الفن» أو المعرفة في محاورة «أيون»:

سقراط: أخبرني الآن، ما إذا كنت ترى أن هذه القاعدة تنطبق على كل أنواع «الفنون».

أي يجب أن يختص كل «فن» بموضوعاته نفسها. ونحتاج «الفن» مختلف آخر إذا اختلفت هذه الموضوعات. ويعني ذلك إذا ما اختلفت الفنون يجب أن تختلف الموضوعات التي نعرفها بها أو التي تخص بها.

ايون: أعتقد ذلك يا سقراط.

قد يكون هناك نوع من التسرع في الحكم في القول إن «الشعر» و«الأخلاق» يمكن تقييمهما معًا، أي عن طريق معرفتنا لفن واحد يختص بهما معًا. ويعد خطأ واضحًا أن نستنتج كما فعل «سقراط» مع «أيون» أن أي يكون متخصصًا في معرفة «هومر» يكون أيضًا متخصصًا في أي شاعر آخر يكون قد كتب: «لن نكون على خطأ في القول بأن «أيون» يكون ماهرًا في تفسيره لشعر «هومر» وشعراء آخرين، وذلك طالما أن «أيون» وافق على أن رجلاً واحدًا يكون قاضيًا متمكنًا على كل من يتناولون موضوعًا واحدًا وأن كل الشعراء يتناولون موضوعات واحدة أو نفس الموضوعات» أتعد أقسام الآداب المتخصصة متعنتة في البحث وأوراق اعتماد مختلفة للخبرة لتدريس «هومر» وإميلي ديكسون مثلاً؟ كذلك هل تكون أقسام الفلسفة متعسفة في اعتبارها أن «سقراط» وإميلي ديكسون مثلاً؟ كذلك هل تكون أقسام الفلسفة متعسفة في اعتبارها أن «سقراط» وكونفشيوس ينتميان لفرعين مختلفين للمعرفة؟ وهل تعد الجامعات متعسفة في الفصل بين الأدب والأخلاق وعمل أقسام مختلفة لهما كما لو كانا مجالين مختلفين للمعرفة، وتختلف مناهجهما؟

قد يتم الاعتراض بأنه إذا كان للشعر والأخلاق هدف واحد فإنهما مختلفان في المنهج (يستخدم الشعر الصور المجازية والاستعارات وتستخدم الأخلاق النثر والعبارات أو اللغة المباشرة). ولا يمكن التوحيد بين المناهج المختلفة لحاجتها إلى مهارات مختلفة.

ويمكن توسيع هذا الاعتراض ليحيد إلى الأنواع الأخرى للمعرفة، ولا يقتصر على المعرفة الخاصة بالسعادة الإنسانية. فلئن كانت العمليات الجراحية والمعالجة بالأدوية تهدف إلى علاج المريض والاهتمام بصحته وشفائه، فإن كلاً من هذه العمليات الجراحية والمعالجة بالأدوية تهدف إلى علاج المريض والاهتمام بصحته وشفائه فإن كل من هذه العمليات وتلك المعالجات تحتاج لمهارات مختلفة. كذلك تختلف المهارة في إقامة المعسكرات الصحراوية عن مهارة تسلق الجبال حتى وإن كان المكان المقصود الوصول إليه واحدًا. عمومًا، من الواضح أن المرء يستطيع أن يعرف منهجًا واحدًا أو مجموعة معينة من الوسائل لتحقيق غاية معينة دون دراية بكل المناهج الأخرى أو الوسائل البديلة التي قد يحقق بها تلك الغاية.

ويمكن الرد على هذا الاعتراض بأننا نتوقع من الطبيب أن يعرف أفضل وسيلة للشفاء من المرض، ولا يصلح أن يكون عالمًا بشئون الطب إذا ما عرف أن العملية الجراحية أفضل وسيلة لعلاج مرضك، ولكنه ليس متأكدًا من أن اللجوء إليهما أفضل أو أسوأ من العلاج بالأدوية. كذلك لا أكون خبيرًا في الإرشاد السياحي إذا ما حددت لك طريق السير ولا أعرف ما إذا كان آمنًا أو أسرع من الطرق الأخرى أو أقصرها. وهكذا، كما نتوقع من الربان أن ينقلنا إلى هدفنا، ومن الطبيب أن يعرف أفضل طرق العلاج، فإننا نتوقع من العالم بموضوع السعادة الإنسانية أن يعرف أفضل خطة للحياة. ويدرك متى تكون لغة الشعر والصور البلاغية أفضل من الأسلوب المنثور والحجج المباشرة لتحقيق السعادة الإنسانية.

اعتراض الذاتية عند سقراط

يتمثل اعتراض الذاتية في أن سقراط قد تجاهل ذاتية الشعر وربما الأخلاق. قد يكون سقراط محقًا بالنسبة لموضوع الأخلاق والشعر، فإن المفسّر يحتاج لمعرفة أفكار الذات وليس الحقيقة المتعلقة بالموضوع. فإذا ما عدنا إلى المثل

المتعلق بنصيحة «نستور» لأبنه نجد أن المفسر يحتاج لمعرفة فكر «نستور» الذي قد عبر عنه في كلماته: «ابني العزيز، تأكد من معرفتك لكل الفنون حتى لا تخسر الجائزة». تختلف هذه النصيحة عن تلك التي قدمها «سقراط» لـ«كريتاس»: «يجب على الإنسان أن يسعى للحصول على فن «المعرفة الوحيدة بالخير والشر» و«ليس بفن الحصول على كل المعارف الأخرى كلها». فإذا كانت نصيحة «نستور» تختلف عن نصيحة سقراط فإن من الممكن معرفة إحداهما دون معرفة الأخرى. لذلك من الممكن «للمفسر» أن يعرف فكر «هومر» أو «نستور» دون معرفة فكر سقراط. ونستطيع بذلك أن نحافظ على وجود الأقسام المختلفة في الأكاديميات التقليدية. فإن كنا نبحث عن أستاذ لتدريس فكر «هومر» علينا أن نبحث عن من لديه دراية بفكرة. ولن يصلح لهذه المهمة من يكون متخصصًا في فكر سقراط أو في فكر أي إنسان آخر. ولنفترض جدلاً أننا وجدنا عالمًا في السعادة الإنسانية الموضوعية، ولديه معرفة بحقيقة المسألة المثارة بين «نستور» و«سقراط» أي إنسان خبير بما كان الناس يجب أن يحصلوا على الفن الخاص بالسعادة الإنسانية فقط أم عليهم تعلم كل الفنون التي تحقق مكسبهم للجائزة. لن تسعى الأكاديمية لأن يشغل مثل هذا الخبير مهنة تدريس فكر «هومر» أو فكر «سقراط»، إذ لن تمكن هذه المعرفة الموضوعية من معرفة الأفكار الذاتية لـ«هومر» أو «سقراط».

أعتقد أن الكثيرين لن يوافقوا على أن المعرفة بالسعادة الإنسانية معرفة موضوعية. إذ يرى هؤلاء الناس أن من المستحيل على إنسان ما أن يعرف من الناحية الموضوعية فساد الأخلاق الذاتية والقيم الريفية لفرد ما. كذلك نجد من ناحية أخرى تشابهًا بين فن علاج الجسد المعطوب وفن معالجة النفس الفاسدة، وبين طريقة الإبحار في البحر والإبحار في الحياة. وكان سقراط دائم الإشارة إلى عملية العلاج وعملية الإبحار بسبب تشابه الصفات بينهما.

ويظل اعتراض الذاتية قائمًا حتى وإن صحت أقوال «سقراط» ويوجد شيء موضوعي في السعادة الإنسانية. ويسمح القارئ الكريم لي أن أبين كيف يظل

الاعتراض صحيحًا في حالة المعرفة الموضوعية مثل معرفة الطب مثلاً. يصبح الاعتراض في هذه الحالة حول كيفية أن يكون الإنسان متخصصًا في الطب «الهومري» دون معرفته لطرق العلاج الأخرى. لا نتوقع أن يكون المتخصص في العلاج- أي في المعرفة الموضوعية للعلاج- عالمًا بالأفكار التي تدور في رأس «هومر» عن العلاج. وقد لاحظ «الأكاديمي» هذا الفرق في قسمته بين العلوم والإنسانيات. فينتمي الطب للعلوم بينما ينتمي تاريخه مثله مثل تفسير الشعر إلى الإنسانيات.

ويظل الاعتراض على الذاتية بالنسبة للموضوعات الموضوعية من المعرفة مثل موضوع «الطب» قائمًا. وكذلك إذا ما كان هناك علم موضوعي يتناول السعادة الإنسانية فإن الاعتراض يظل صحيحًا.

يوجد ثمن يجب دفعه حين نستخدم اعتراض الذاتية. يميز الاعتراض بين الحقيقة الموضوعية والآراء الذاتية الخاصة بموضوع معين. ولا يعرف المتخصص في دراسة الذات أي حقيقة بل مجرد مجموعة من الآراء. ويتمثل هذا الثمن في أن هذه التفرقة، بينما تجعل هذا الخبير المتخصص قادرًا على تقييم مدى كفاءة أي ذات في التفكير في موضوعاتها والحديث عنها، فإنها تحرمه من القدرة على القيام بمقارنات بين الشاعر الجيد والشاعر الرديء. ومع ذلك يرغب «أيون» كما يرغب كل المفسرين الآخرين للشعر وأساتذته بعمل هذه المقارنات.

سقراط: أتقول إن «هومر» والشعراء الآخرين، ومنهم «هزيود»، و«أرخيلوخوس»، يتحدثون عن الأشياء نفسها ولكن بطرق مختلفة، وذلك طالما يجيد الحديث عنها واحد منهم بينما يفشل الآخرون في إجادة الحديث عن نفس الموضوع؟

أيون: نعم، وما أقوله حق.

حقيقة إذا كان لدى «هومر» أو «سقراط» ما يحدثوننا به عن أنفسنا فإن المتخصص في الفكر الذاتي لن يعرفه.

قد يمدنا الاعتراض الذاتي بمعرفة محددة عن فكر «هومر» فإنه يُفقد هذه المعرفة الخاصة بفكر «هومر» قيمتها الوجودية أو العملية أي لا تصبح لها قيمة

عملية تفيدنا في حياتنا الإنسانية. قد تهتم بدراسة فكر «هومر» لأسباب أكاديمية خالصة، فإن هذه الأسباب تنفصل تمامًا عن اهتماماتنا الإنسانية العملية.

ينخفض اعتراض الذاتية وراء ردود أفعال معظم القراء محاور «أيون». انقسمت معظم الدراسات إلى قسمين. الأول منها ينظر لسقراط نظرة سطحية، ويفزع من توقعه بأن المعرفة الحقيقية تشكل الموضوع الرئيسي للشعر. ويُخطئ هذا القسم من الدراسات سقراط على عدم اعترافه بما سميتها بالطبيعة الذاتية للشعر، ويجد القسم الثاني أن من التناقض أن يعتقد سقراط صراحة وبوضوح أن المعرفة الحقيقية الحقة تتأتى من الشعر. ويعرض أصحاب هذا القسم لقراءة ساخرة أو أخرى للمحاورة لتفسير شخصية سقراط باعتباره مدركًا لهذا التناقض.

يفشل اعتراض الذاتية ويختفي بمجرد تفسيرنا لشخصيتي «سقراط» و«أيون» باعتبارهما شخصيتين إنسانيتين واقعيتين. يقول سقراط في بداية المحاورة: احكم بأن الشعراء أحق بالمحاكاة لمعرفتهم. ونسعى لمحاكاتهم بسبب أفكارهم وليس لمجرد العبارات التي ينطقون بها» وقد وافقه أيون على ذلك. (530b5-c1). لقد قدر كل من سقراط وأيون معرفة الشعراء ليس لأسباب أكاديمية وإنما لأنها معرفة عملية ضرورية لتحقيق الغايات النهائية للسعادة الإنسانية. ونستطيع التيقن من أن اهتمامهما بتفسير الشعر باعتباره مرشدًا لنا في الحياة، لا يعني أن أيًا منهما قد يوافق على الاعتراض الذاتي على حساب اعتبار التفسير الأدبي شيئًا يخص الاهتمام الأكاديمي الخالص.

قد يوجد من يدرس «سقراط» دراسة أكاديمية خالصة ولهدف علمي بحت. ويوجد من يدربه لكسب المال، والتمتع بمكانة معينة ويحيا كما أحيا، أستاذ جامعي يتقاضى أجرًا عاليًا للتفرغ لدراسة سقراط. كما يمكن النظر لمحاورات سقراط وأحاديثه للتسلية، كما نتعامل مع الكلمات المتقاطعة من أجل المتعة التي نحصل عليها من حلّها. وليس هناك شيء غير ذلك، ونجد في مقابل من

يدرسون «سقراط» من أجل الحصول على المال أو المكانة أو المتعة أناسًا آخرين يرون أنهم يحصلون من قراءته على معرفة بكيفية إدارة حياتهم باعتبارهم بشرً وخبراء بشئونها، أي يدرسون سقراط لاهتمامات وجودية. يتوجه تفسيري لشخصية «سقراط» إلى هذا القارئ الوجودي الذي يرى في «سقراط» مرشدًا وموجهًا للحياة الطيبة، ويتعجب في نفس الوقت من حكمته. بهدف التفسير مثل هذا القارئ، ليس فقط لمعرفة معاني الكلمات الواردة في النصوص وإنما لفهم الفكر الحقيقي لـ«سقراط» حتى يمكن وضع تقييم له باعتباره أفضل أو أسوأ من غيره. لذا تتطلب عملية التقييم لنفس المهارة التي قد نحتاج إليها لتقييم «هومر» أو «كونفشيوس» أو أي كانت آخر كتب في الشعر أو الأخلاق. ويرتبط هذا التقييم بقدر فهمي لمعنى السعادة الإنسانية والحياة الطيبة والكريمة للإنسان.

إذا أمكن مواجهة «سقراط» بنفس السؤال الذي وجهه إلى «أيون» عن ما العبارات التي قد استخدمها الشاعر، فماذا تكون إجابته؟ لا يقدم النص العاري أو المباشر أو الحرفي أي إجابة عن هذا السؤال. بينما يقدم المنهج التأويلي إجابة له. فإذا أردنا الحصول على معرفة عن سعادتنا الإنسانية فإن من الأفضل دائمًا الأخذ بالنهج التأويلي المتوافق مع النص ويتسق معه. ويُعد هذا التأويل المتسق مع النص واجبًا علينا تجاه المؤلف المتوفي «أفلاطون» وشخصيته الرئيسية. ومع ذلك أجد من الضروري لأسباب عملية البحث عن إجابة عقلية محددة قد تتسق مع روح النص، إذ تزيد مثل هذه العملية من فرص حصولنا على مزيد من الأفكار الجيدة.

طرح «أيون» بعد موافقته مع سقراط على أن معرفة الشاعر ومهارته أمران يستحقان المحاكاة، فكرة جديدة زادت من هوة الاختلاف بينهما. إذ قال: «اعتقد أن باستطاعتي الحديث عن «هومر» أفضل من أي فرد آخر. وعلى الرغم من أن «أيون» قد بدأ سعيدًا بذلك على الأقل في داخله فإن مسار المحاورة يُبين أنه لم يستطع توضيح هذه المهارة التي قد تحدث بها. وتُعد محاولة سقراط كشف جهل «أيون» كما يُبين الفصل التالي، مثلاً على مهمته الإلهية.

الفصل الثاني

حياة سقراط
والشائعات المغرضة عنه

عاش «سقراط» حياة صعبة وخطرة. خدم ثلاث مرات بالجيش. مكث في إحداها ثلاث سنوات. انتهت المرات الثلاث التي خدمها بهزيمة عسكرية لـ«أثينا». كانت الهزيمة في اثنتين منهما كارثة بمعنى الكلمة. حيث قُتل المئات من الجنود والقادة. شهد رفاق سقراط له بالشجاعة والبسالة في القتال. وعلى الرغم من خطورة هذه السنوات الثلاث التي قضاها في الخدمة فإنها قد أنقذته من الموت. فقد عانت «أثينا» في تلك الفترة من الإصابة بالطاعون التي قضت على ثلث أو ربع السكان. ومع ذلك كان سقراط في المدينة أثناء الموجتين الثانية والثالثة من الطاعون اللتين قضتا على آلاف السكان، وخلت الخدمة العسكرية من الأفراد لعقدين من الزمان. عاش ليشهد هزيمة المدينة من الإسبرطيين. واستطاع الهرب من الإبادة الجماعية التي قام بها الكورنثيون الحاقدون، وشهد فترة الحكم الطاغي التي تلت هذه الفترة. ولم يطع أمر القبض عليه. وعاش فترة حالة العصيان التي انتهت بعودة الحكم الذاتي الديمقراطي.

كانت سمعة «سقراط» أو الصورة التي لدى العامة من الناس عنه السبب في إنهاء حياته. وبينما تقبّل «أيون» أسئلة سقراط بروح طيبة كان «انتوس» عدائيًا في ردوده يقول «سقراط، يبدو أن الحديث السيئ عن الناس أمر يسير بالنسبة لك. وأنصحك بالحذر. يسهل دائمًا إيذاء الناس ونشر الأحاديث المسيئة عنهم بينما يصعب القيام بالأفعال الطيبة والأشياء الحسنة. وأعتقد أنك تدرك ذلك».

كان من السهل على مَنْ يحقدون على سقراط نشر الشائعات المغرضة

والروايات السيئة عنه، فقد أُتهم بعدم احترامه للعقائد الدينية والاجتماعية التي يعتنقها مواطنوه. ويُقلل من شأن هذه العقائد في مناقشاته. فقال في محاورة «أوطفرون» مثلا أنه كان يدافع عن نفسه في المحكمة بسبب حديث الناس عن كراهية الآلهة لبعضها بعضا وتقاتلها فيما بينها. يقول سقراط: «لقد وجدت من الصعب قبول ذلك، وأعتقد بأن ذلك هو السبب في اتهامي بأنني مدان أو مذنب».

لم يقبل سقراط القصص الدينية التقليدية التي يتناقلها الناس. كان يُحاول إصلاح المعتقد الديني ليتوافق مع المبادئ العقلية. ويشبه موقفه في هذا الشأن موقف العلماء الطبيعيين مثل «أنكساجوراسي». اشتهر مثل هؤلاء العلماء بسوء السمعة بسبب رفضهم للخيال السماوي المفارق للطبيعة من منطلق التفسير العلمي الطبيعي. وربما أدت عدم موافقة سقراط العقلية على هذه العقائد إلى انتشار الشائعات، وتكوين صورة لدى الرأي العام خطأ بينه وبين العلماء الطبيعيين. ولذلك وافق الأثينيون على الصورة التي قدمها «أرستوفان» لسقراط في مسرحية «السحاب». حيث يقول «سقراط علي لسان (أرستوفان)»: «لا يوجد زيوس، والظواهر الطبيعية «السحب» هي الآلهة الحقيقية».

تعرض سقراط حين حوكم في سن السبعين للهجوم من قبل قضاته بسبب سوء سمعته. ونبه في محاورة الدفاع إلى ما سمعه قضاته في طفولتهم بأنه «لا يؤمن بآلهة المدينة، وأنه يُعلم الآخرين مثل هذه الأشياء». نجح «ميل توسه» الشاب المتطرف في حماسة وبمساعدة «أنيتوس» في إدانته بتهمة من النادر استعمالها أي «تهمة إفساد الشباب، ورفض الآلهة التي يؤمن بها سكان المدينة، والإيمان بآلهة جديدة». وأدانته المحكمة المكونة من مائة مواطن بالفساد وسوء السلوك وحكمت عليه بالموت.

لم يحاول سقراط استدرار عطف القضاة، خاصة وأن النظام القضائي الأثيني لم يجعل من القضاء مهنة بل عمل مدني يُشعر القائم به بنوع من التسلية، ويقوم بالعمل طواعية وليس باعتباره واجبًا مدنيًا. كان التزلف للقضاة واكتساب

تعاطفهم من الأعراف المعمول بها. ومع ذلك لم يلجأ سقراط لأسلوب العبيد وتحدث بحرية وصراحة وقال لقضاته بكل شجاعة وثقة:

«لقد تعودتهم رؤية المتهمين يبكون ويستدرون العطف في دفاعهم. ويقومون بفعل أشياء لا أقدرها. وحين قدمت خطبتي للدفاع لم أفكر في أن خوفي من خسارة القضية قد يدفعني للقيام بما يقوم به العبيد. لم أندم على الطريقة التي قدمت بها دفاعي. وأفضل الموت بسببها على الحياة إذا ما استعنت بطرق الدفاع الأخرى».

يتحدث «سقراط» بصراحة تامة على الرغم من إدراكه بأن هناك من القضاة مَنْ يسيئ فهم دفاعه القانوني الحر، ويتصوره نوعًا من الهزل. قد يبد لبعضهم أن حديثه حديث الهزل» فقد سبب مثلاً اختياره شاهده للدفاع عنه صخبًا شديدًا. «اتجه إلى إله دلفي باعتباره شاهدًا على حالته. وسمِّي هذا الإله الذي تحدث من خلال الكاهنة بيثيا باسم «أبو للو» (كما قال عنه سقراط في محاورة بروتاجوراس وإن كان لم يذكره بهذا الاسم في محاورة الدفاع. ولقد لجأ الأثينيون إلى كاهنته باعتبارها مصدرًا مستقبلاً للوحي الإلهي.

يعرض «سقراط» قصة الشهادة الإلهية تجاهه. «اعتقد أنكم تعرفون جميعًا «شريفون»؟. كان الرجل مشهورًا بغرابة حتى إن المسرحيات الهزلية كانت لمدة عشرين عامًا تلجأ لذكر اسمه في المسرحية لإضحاك الجمهور». كان صديقي منذ الطفولة. وتعلمون كيف كان متهورًا في حياته. ذهب شريفون في إحدى المرات إلى معبد دلفي وطلب أن تجيبه الآلهة عن السؤال التالي «أرجو أيها السادة ألا تسخروا أو تضجوا مما قد أقوله». من الواضح أن العديد من الناس يعرفون هذه القصة، ويعترضون على استخدام سقراط لهذه الشهادة. «سأل هل هناك من هو أعلم وأحكم مني؟ فأجابت الكاهنة بأنه ليس هناك من هو أحكم. لقد كان «شريفون» هنا الآن، ولكن أخاه هنا ومستعد للشهادة على ذلك»:

أصابت إجابة الكاهنة سقراط بالحيرة: يقول:

«تعجبت من هذه الإجابة حين سمعتها: ماذا يعني الإله بهذا القول، وإلى ماذا يلمّح بهذا اللغز؟ إذ أدرك تمامًا أنني ليست حكيمًا في قليل أو كثير. وماذا يقصد حتى قال بأنني أفضل الحكماء؟ لا يكذب الإله بالطبع. وليس ذلك أسلوبه».

إذا كان «سقراط» لا يقدس إله دلفي لأصبح لديه حل سهل لهذا اللغز، فقد يكون الحديث عن حكمته كاذبًا أو أنه ليس هناك إله يتحدث هناك، وإن وُجد فإنه يكذب.

كان سقراط مؤمنًا. ولذلك شعر بالحيرة. ولذا تبدلت حياته كما تبدلت حياة النبي «موسى» حين سمع ربه من بين الأحراش المحترقة.

قرر «سقراط» حين عجز عن حل هذا اللغز أن يبحث في النهاية عن إنسان آخر يشتهر بالحكمة معتقدًا أنه «إذا ما وجد هذا الشخص فإنه يُبطل النبوءة ويقول للكاهنة يُعد هذا الرجل أحكم مني، وقد قلت باسمي ليس هناك من هو أحكم مني»، كان سقراط في وضع يشبه وضع الجنود الذين لم ينهوا الأوامر الصادرة لهم، ويعودوا إلى القائد يقولون «لقد أمرت سيدي بالأمر «س» ولكنه يتعارض مع «ص»». لا يفترض هؤلاء الجنود أن الضابط مخطئ أو أن الأوامر خاطئة لأنها غير مفهومة. وإنما يبينون أنهم لم يفهموا الأمر، ويطلبوا تفسيره. يقول «سقراط» إنه قد لجأ للبحث عن شيء مضاد لهذا القول رغمًا عنه أو عن كره. ويتشابه هنا أيضًا مع النبي موسى في الشعور بالذل والخنوع. لم يقل «سقراط» لماذا قام بالبحث مرغمًا. واعتقد أنه رغب تجنب مساءلة الناس وامتحانهم.

يفشل «سقراط» في أن يجد ما يدحض به قول الكاهنة. لم يستطع بالطبع أن يختبر كل الناس. وإنما يكتفي بعينات مختلفة. بدأ بمخاطبة القادة السياسيين الذين آلوا على أنفسهم تقديم النصح للمدينة عن أفضل سبل حياتهم. ثم انتقل لمخاطبة الشعراء الذين اهتموا بالغايات البعيدة للإنسان. وأخيرًا خاطب أصحاب المهن الذين تُعد طبقتهم الطبقة التي تحظى بمعارف كثيرة من بين الطبقات

الثلاث، لا تعلم شيئًا عن العلم الذي تعتمد عليه كل العلوم الأخرى وكل شيء.

فهم سقراط في لحظة معينة أن كلمة الله- وإن كان بصورة مؤقتة- حين قدم حلاً للغز بالقول «بأن هناك فرصًا قد توجد».. يفسر الحل الذي قدمته كلمات الكاهنة- ليس هناك مَنْ هو أحكم- كما لو كان الله يقول: إن الحكيم منكم من يعترف كما اعترف سقراط بأنه ليس حكيمًا وتعني هذه الكلمات أن ما قاله الله «للكاهنة» في دلفي أن الحكمة الإنسانية محدودة أو لا قيمة لها على الإطلاق.

يحل سقراط اللغز بالتمييز بين مستويات ثلاثة للحكمة. المستوى الأعلى أي الحكمة الحقة التي لا يمتلكها إلا الله ولا تتوفر للبشر. والحكمة المتوسطة التي يمتلكها كل من يشبه سقراط، أي يعرف أنه لا يمتلك «الحكمة الحقة». والحكمة الأدنى أي من يرى نفسه حكيمًا ولكنه ليس حكيمًا حقًا. ويُعتبر سقراط أكثر الناس حكمة، ليس هناك من هو أحكم منه لأنه لا يمتلك الحكمة إلا الله. ويُعد سقراط أكثر حكمة من هؤلاء الذين لا يعلمون بجهلهم.

مثلث المهمة التي كلّف الله بها سقراط في «دلفي» طوال حياته حجر الزاوية في دفاعه. «لقد كلفني الله بأمر بأن أقضي حياتي في الفلسفة واختبار نفسي والآخرين» لذلك يُعد التوقف عن التفلسف «عصيانا لأوامر الله وبالتالي شيء مستحيل» هذا ما كان يعتقده سقراط.

يذكر سقراط أنه قد أُمر «كما جاء في كلام الكهنة وفي أحلامه وبكل الوسائل التي قد يتلقى بها أي فرد الأوامر الإلهية». ومع ذلك جعل من تفسيره كلام كاهنة دلفي الأساس الأول لالتزامه بالتفلسف، أي اختبار الآخرين وتوجيه الأسئلة لهم.

لم تصدر الكاهنة أي توصية وإنما قررت واقعة قائمة: «ليس هناك مَنْ هو أحكم». كذلك يعد تفسير سقراط لمعنى هذه العبارة- أن حكمة الإنسان محدودة أو لا قيمة لها- تقريرًا لواقعة قائمة. وقد يبدو استماع سقراط لهذه التوصية أمرًا مستغربًا لأعضاء المحكمة. فيجب أن نعترف نحن وأعضاء المحكمة بأن سماع سقراط لهذا الأمر يعني احترامه لآلهة المدينة وتقديسها. بمعنى آخر،

يجب أن نعترف بزيف الاتهام الموجه له بأنه لا يؤمن بالآلهة. ويمكن القول بأنه بمجرد اعترافنا بأن سقراط إنسان مؤمن نستطيع أن نستنتج سبب التزامه. ونستنتج أيضًا أنه بمجرد اعتراف المؤمن بالآلهة فإن عليه الالتزام بخدمتها وفهم كلماتها. ويُفسر افتراض إيمان سقراط بالآلهة سبب التزامه بحل اللغز: «إذ من الضروري أن نعطي الأولوية القصوى لاهتمامنا بفهم كلمات الإله ومعناها».

يتناقض قول الكاهنة كما فسره «سقراط» مع ما نلاحظه في مدننا وما لا يلاحظه سقراط أيضًا في مدينته. يطلب الناس مثلاً في محاورة «لاخيس»، النصيحة للمواطنين «لاخيس» و«نيسيس» حول كيفية تربية أبنائهما. ومن الواضح إيمانهما بأنهما لديهما خبرة بالتربية الجيدة. كذلك حين يقدم «لاخيس» و«نيسيس» يعتقدان في داخلهما بأنهما ينميان الكمال الإنساني للشجاعة. وإذا نظرنا لمحاورة «الدفاع» ذاتها نلاحظ أن نجاح «ميلتوس» في إدانة سقراط تجعله يبدو أمام نفسه وللآخرين على دراية بكيفية تحقيق التقوى والفضيلة في المدينة.

يظل «سقراط» ملتزمًا بالاستمرار في التفلسف. ويطلب من المحكمة أن تنظر لأعماله باعتبارها شبيهة بأعمال «هرقل» وبأنها دليل على صدق الكاهنة. لم تكن هذه الأعمال مجرد تسلية يشغل بها وقت فراغه بل كانت مهمة تشغل وقته كله ولا تترك به فراغًا للعلاقات العامة والحياة العائلية. «ليس لدي الوقت الكافي للعلاقات العامة أو العائلية. وأعاني من الفقر المدقع بسبب خدمتي لله». يثير ذلك الموقف سؤالاً جديدًا. لماذا آمن سقراط بأن عليه الالتزام بالاستمرار في التفلسف بمجرد إدراكه معنى كلمة الله؟

تبيّن لنا مقولة الكاهنة «الحكمة الإنسانية محدودة أو لا قيمة لها» أننا في خطر، ونحتاج إلى الخلاص. يفترض سقراط التقي أن الله خير ويريد أن يعرف الناس حاجتهم للخلاص. واعتبر «سقراط» باعتباره تقيًا أن التزامه الأكبر يتمثل في خدمة الله. وتوضح كل هذه الأسباب لماذا يظل «سقراط» يقول بعد حله للأحجيّة وفهم معناها «بأنه عليه الاستمرار في اختبار الناس طاعة لله، ويمتحن

كل من اعتقد في حكمته، فحين أكتشف عدم حكمته، أساعد الله في كشف جهله له وعدم حكمته». وهكذا يساعد «سقراط» في كل مرة يكتشف فيها عالمًا متظاهرًا على نشر كلمة الله المنجية، أي أن حكمة الإنسان محدودة أو لا قيمة لها.

ويقدم «سقراط» سببين لإصراره على أن يحيا بهذه الصورة وعدم استرضائه للمحكمة بأن يتخلى عن الدفاع عن الكاهنة.

قد يصعب على حضراتكم تصديق هذا الأمر. فإن قلت إن السكوت وعدم المناقشة شيء مستحيل لأنه عصيان لأوامر الله، تعتقدون أنني أسخر من حضراتكم ولن يصدقوني وإن قلت إن البحث عن الكمال الإنساني، وعن الأشياء الأخرى التي تسمعونني أناقشها، ولا تستحق الحياة التي لا يتم فحصها، أن يحياها الإنسان يمثل أعظم شيء للكائن البشري، فإنكم قد لا تصدقونني. فقد يكون ما أقوله أمرًا سهلاً وواضحًا لكنه أمر من الصعب تصديقه أيها المبجلون.

يؤكد سقراط أن التفلسف من أعظم الخيرات، وتُعد الحياة الخالية من التفلسف أسوأ من الموت. ولا تستحق هذه الحياة أن يحياها الإنسان. يُعد هذا القول أو ذلك التصريح في منتهى الخطوة والجرأة. تتغير حياتنا كلية إذا ما قبلنا به. إذ يصبح أول اهتماماتنا أن نحيا كما عاش سقراط يحاول فهم معنى الكمال الإنساني.

إذا ما صح ما قالت به الكاهنة «بأن الحكمة الإنسانية محدودة أو لا قيمة لها» فإن ذلك يتطلب توضيح مدى تشابه هذه الحبكة السينمائية الغربية وحياتنا الإنسانية فإن كانت تقول الحقيقة لأجرأ على إضاعة الوقت في محاولة كسب محبة الآخرين أو السلطة السياسية أو أن أقوم بتقديم النصح للآخرين كما فعل «لا فيس» و«نيسيس». لا أستطيع بسبب عجزي معرفة ما إذا كانت هذه الأفعال تتعارض مع كل الأشياء التي أقدرها. يمنعني الجهل عن معرفة نتيجة هذه الأفعال. يجب أن أبدأ بإثبات صحة دعوى أخرى تقول «تُعد الحياة السقراطية الحياة الخالية من الذنوب. وأحتاج للحديث عن بعض الأمور المتعلقة بالذنب لتوضيح معنى تلك الدعوى. إذ يسهل على الناس الاعتراف بمثل هذه الأمور في

حالة العقل على الرغم من انطباقها على كل الأفعال الخيرة والشريرة.

اهتم «سقراط» بقيمة العدل وبالتالي شكلت محورًا مهمًا في حياته. إذا صممت هيئتنا الإنسانية نفس تصميم المباني لتمثلت العدالة في القدرة التي تحقق لنا الخطوط والزوايا الصحيحة. وإذا أخذنا هيئة النباتات والخضروات لباتت هذه القوة السبب في نمونا بصورة صحيحة في المكان الصحيح في الحديقة. وإذا كنا أجسادًا رياضية أمدتنا هذه القوة بالصحة السليمة والقدرة على ممارسة الرياضة. وإذا كانت علينا واجبات يجب أن نقوم بها، فإن العدالة تشكل القوة التي تمكننا من القيام بها. ولقد اعتبر الأثينيون «العدالة» من القيم الأساسية للكمال الإنساني.

وإذا ما جمعنا كل مقدماته السابقة يمكن أن ننسب الحجة التالية إليه.

1 - يفتقر الناس الحكمة ومعرفتهم بالعدالة ضئيلة أو معدومة. وتمثل عملية اعترافهم بجهلهم أقصى معرفة يمكن أن يحصلوا عليها.

2 - يستأهل المهمل العقاب. ويتصف الجاهل الذي يحيا حياته معتقدًا أنه حكيم بأنه ظالم ومذنب.

3 - تعد العدالة ذات أهمية قصوى. وتعتبر الحياة التي تخلو من الظلم حياة جديرة بأن نحياها.

4 - إذن، ليس هناك إلا نمط واحد للحياة وفقًا للشروط التي حددتها الكاهنة. وتعد حياة التفلسف الحياة الوحيدة الجديرة بأن نحياها.

لم يعرض سقراط في دفاعه لهذه المقدمات في حجة واحدة ولكنه أكد على أهميتها وليس من الصعب إدراكها.

يؤكد سقراط في المقدمة الأولى على مصداقية الكاهنة حين يخبر المحكمة بأن حياته مليئة بالكفاح والعمل- كما لو كان في بطولة هرقل- حتى يثبت صدق «الكاهنة».

ويوضح سقراط في المقدمة الثانية أن الظلم الناتج عن الإهمال مستحق

للعقاب. يقول مثلاً: «تعد مسألة الخشية من الموت صورة أخرى من صور التفكير الذي يعتقد في صوابها. بينما تُعد في الحقيقة صورة خاطئة. حيث يعتقد المرء في معرفته لأمر لا يعرفه حقيقة. ويستحق هذا الجاهل الذي يعتقد في معرفته لأمر لا يعرفه العقاب». سبق أن اتهم سقراط «ميلتوس» بهذا النوع من الإهمال قائلاً: «بأنه ظالم» بسبب معاملته المسائل المهمة باستخفاف وبنوع من الطيش». تعتبر طريقة معاملة المسائل المهمة بهذه الصورة الطائشة نوعًا من اللعب بالنار، وتُعد في نفس الوقت من الأفعال الخاطئة التي سلكها كل من لا يحيا الحياة السقراطية (نمط حياة سقراط) ويستحق الجزاء. ويُعد «حديث «ميلتوس» أمام الجمهور في المحكمة وتظاهره بالاهتمام بمسائل لا تحظى باهتمامه حقيقة» صورة من صور اللعب بالنار التي يُدان عليها». يصف سقراط بعد ذلك العمل الذي يقوم به لخدمة الآلهة. حيث يسأل من يدعون اهتمامهم بالكمال الإنساني والعدالة ويضعونها في أولى مراتب اهتماماتهم. فإذا ما اكتشف «سقراط» في مثل هذه الحالات أن المتعالم «لا يعرف الكمال ويدّعي معرفته، فإنه قد يلومه على احتقاره الأشياء المهمة وإهماله لها واهتمامه بالأشياء التافهة».. ولا يُعفي مسألة عدم معرفة المتظاهر بأنه ظالم ويسلك سلوكًا خاطئًا، وقيامه بذلك بصورة لا إرادية من المسئولية والذنب. وأخيرًا ليس في نية القائمين على اتهامه التصرف بطريقة ظالمة. ومع ذلك يحذرهم «سقراط» من الوقوع في ذلك، «إذ تتمثل الصعوبة الحقيقية في الهروب من الوقوع في الشر في أن الإصابة به أسرع من الموت... فيا من تتهموني وتتصفون بالتعجل والمهارة قد تصابون بما هو أسرع، أي بالإثم وتدانون بالفساد والظلم».

يؤكد «سقراط» في المقدمة الثالثة على قيمة العدل والكمال الإنساني حين يصف نشاطه المتميز في المدينة. يقول مثلاً «لا أفعل شيئًا غير محاولة إقناعك، كبيرًا كنت أم صغيرًا بألا تهتم ببدنك أو بما تملك أكثر من اللازم أو أكثر من اهتمامك بكمال الروح» ولقد سبق أن عرّف سقراط في بداية محاورة «الدفاع»

هذه الحكمة بكيفية اكتساب الإنسان للكمال الإنساني. ووجه المحكمة إلى أن هناك أناسًا يسمون بالسوفسطائيين قد تنبأوا بمثل هذه المحكمة:

«هرعت إلى كاليس ابن هيبونيقس الذي دفع مبلغًا كبيرًا من المال إلى السوفسطائيين. وسألته إن كان له ولدان- إذا كان قد حدث إن كان لديك عجلان أو جوادان لأمكن أن نجد مدربًا لهما يجعلهما أفضل صحة وعلى درجة عالية من الكمال، وأنه قد يكون فلاحًا أو مدربًا للخيول. والآن، كون أن ولديك بشران. من الذي قد تختاره لتدريبهما؟ من الذي يعرف كمال الإنسان أو المواطن؟ إذ افترض كونك والدًا قد فكرت في هذا الأمر، فهل وجدت من يصلح لهذه المهمة أم لا؟».

- قال «طبعًا».

- سألته: من هو؟ ومن أي بلد؟ وما المبلغ الذي يتقاضاه بوصفه معلمًا؟

- قال: «إيفينوس» من «باروس»، خمس منيات».

- قلت: مبارك «إيفينوس» إن كان لديه مثل هذه المعرفة والقدرة على تعليمها والتي أشعر بالفخر إذا امتلكتها إلا أنني للأسف لا أعرف مثل هذه الأمور.

يؤكد «سقراط» على المقدمة الرابعة على الرغم من أنه لم يستنتجها من المقدمات الثلاث السابقة. تقول هذه المقدمة: إن حياته أفضل أنماط الحياة الجديرة بأن يحياها الإنسان لأنها تخلو من الذنوب. كما يضيف سقراط قائلاً: بأن أفضل نمط يمكن أن يحياه الإنسان ذلك النمط من الحياة التي لا تخلو من البحث على امتدادها عن الكمال الإنساني، ومن الأشياء التي سمعتموني أتحاور فيها، ولا تستحق الحياة الخالية من التفلسف والبحث أنه يحياها الإنساني. كذلك يقول أيضًا: «ليس هناك خيرٌ عم هذه المدينة فاق خدمتي للآلهة» ومن الواضح أن هذه الخدمة التي قدمها ليست إلا حث الآخرين على التفكير في حياتهم. يقول «سقراط» إنه لم يرتكب ذنبًا متعمدًا أو غير عمدي. ويرى أن من يحيا حياة خالية من الذنوب أمر لا يحققه إلا البطل الأوليمبي. ولعل هذا سبب اقتراحه بأن على المدينة أن تقدم له الوجبات المجانية في «البرتيانيوم»، وذلك شرف لا يحظى

به إلا الأبطال. إذ إنه لم يصب يومًا أحدًا بضرر أو أذى مقصود». ويصف هذا الموقف بأنه «لم يؤذ أحدًا على الإطلاق». وافهم من حديثه هذا أن عدم ارتكابه للذنوب يجعل منه إنسانًا أفضل من كل من «ميلتوس» و«أنتينوس».

٤- حياة متغيرة

يواجه من يقتنع بفلسفة سقراط ضرورة تغيير نمط حياته. ويشبه موقفه موقف من يعتنق مذهبًا دينيًا جديدًا أو ما يُسمى بالتحول الديني. يتضمن ذلك الموقف ضرورة اعتراف الفرد بأن حياته السابقة على عملية التحول كانت مليئة بالذنوب. وتصبح حياة جديرة بأن يحياها. يعترف المرء بأن أفعاله السابقة نتجت عن إهمال يستحق اللوم. ويترتب على ذلك أن على المرء أن يؤجل كل أمور حياته. ويجعل عملية البحث عن الكمال الإنساني شغله الشاغل وأول اهتماماته.

لم يعتزل سقراط الحياة الاجتماعية أو ينسحب منها. يشارك في الحروب، ويؤدي جميع التزاماته المدنية، ويتزوج وينجب الأطفال ويشرف على تربيتهم. ويجب أن تفسر فلسفته بصورة تسمح للمتحولين بمحاكاته. ويمكن القول بأن هناك تشابهًا بين فلسفته وبين الديانة المسيحية. فيستطيع المتحول للدين الجديد أن يحيا حياته وفق القواعد الاجتماعية المتعارف عليها ويمارس في نفس الوقت حياة التفلسف والبحث.

قد يكون من السخف أن أطلب مساعدة «سقراط» في اتخاذ القرار بالاستقرار في موطني أم السفر للخارج أو في المحافظة على وظيفتي أو تخصيص حياتي دارسًا للفلسفة. يُعلمني سقراط أن يُصبح ابتعادي عن الأفعال الدنيوية التافهة من أول اهتماماتي، وأن البحث عن الحكمة واتباع أسلوبه في المناقشة يجب أن يشكل الهدف النهائي الذي يجب أن أحيا من أجله. فإذا ما تحوّلت عدت لممارسة حياتي، واستردت كل اختياراتي قيمتها فلقد تم خلاصي واهتديت برسالة سقراط.

الفصل الثالث

سقراط ومشكلة السمعة السيئة

لقد إتسم سقراط بالحكمة فاين ومتي لاحقته السمعة السيئة؟

ويُقال إنه ذهب «شريفون» لسبب ما إلى كاهنة «دلفي». وسألها هل هناك من هو أحكم من سقراط؟ أجابت الكاهنة «ليس هناك من هو أحكم منه». يُقسم التفسير الذي قدمه سقراط لإجابة الكاهنة في محاورة الدفاع حياته إلى مراحل ثلاث: الأولى قبل سماعه الإجابة. والثانية بعد سماعها وإدراكه لجهله، ومحاولة فهم معنى كلام الكاهنة ومغزاه، واختبار إجابتها ومدى صحتها عن طريق توجيه الأسئلة للشخصيات العامة. والثالثة المرحلة الأخيرة قد بدأت بعد قدرته على حل اللغز. قضى هذه المرحلة من حياته مدافعًا عن مصداقية الكاهنة ومحاولًا إنجاز مهمته الدينية بتحويل الناس إلى حياة التفلسف وحثهم على البحث والتفكير.

حمل سقراط في المرحلة الأخيرة من حياته رسالة للعالم. يقول سقراط في محاورة «الدفاع» أنه بعد حله اللغز أصبح «التفلسف» نشاطه الثقافي. يحاول أن يتساءل حول معنى الكمال الإنساني، ولا يقدم عرضًا لمهارته في تعليمه كما فعل السوفسطائيون، وإنما يقدم عرضًا فلسفيًا للرغبة في الحصول على الحكمة. يوضح فيه كيفية التفكير ويقدم النصح يقول: «يا أيها الرجل الصالح ألست خجلًا لكونك مواطنًا أثينيا- مدينة من أعظم المدن وأقواها وأشهرها حكمة وسلطة- أن تهتم بجمع أكبر قدر من المال والسمعة والوضع الاجتماعي، ولا تهتم بالتفكير في الحكمة العملية وإدراك الحقيقة ومعرفة ذاتك وأن تجعلها أرقى وأكثر كمالا «قدر إمكانك»».

يهدف النصح إلى انتزاع إجابة الشخص بقوله «نعم أهتم» حينئذ يبدأ الاختبار في صورة مجموعة من الأسئلة. ينتج عنه اعتراف من جانب الشخص بالجهل. ثم

يتم عرض الحل الذي يتمثل في أن يجعل محاولة اكتشاف في الحكمة تحتل أول اهتماماته يقول سقراط:

«فإن وجدت أنه لا يمتلك الحكمة ويتظاهر بمعرفتها، أعيب عليه بأنه قد وضع أهم شيء في حياته في مرتبة أدنى، والأشياء التافهة عديمة القيمة في المرتبة الأعلى».

يفسر هذا النقد الذي يوجهه سقراط للناس السبب في سوء سمعته باعتباره مواطنًا بسنوات عديدة، واكتسابه لأعداء والحكم عليه بالموت.

يختبر سقراط في المرحلة المتوسطة من حياته كلام الآلهة. يبدأ سقراط المرحلة المتوسطة من حياته حين يسمع ما قالت به الكاهنة ويصاب بالحيرة.

«تعجبت حين سمعت: «ماذا يعني الله بقوله، وماذا يقصد من هذا اللغز؟ وذلك لإدراكي جيدًا أنني لم أوت من الحكمة الكثير أو القليل. مما عساه يقصد بقوله إنني أحكم الناس؟ لا يكذب الإله فليس ذلك أسلوبه». وقضيت مدة طويلة لا أعرف ماذا يقصد.

يتخذ «سقراط» قرارًا خطيرًا بعد معاناته الحيرة فترة طويلة «لقد قررت معرفة مقصد الآلهة».

يبدأ سقراط عملية منظمة لاختيار مواطني أثينا. وتتضمن الخطة التي اتبعها «إثبات عدم صدق الكاهنة» أي العثور على إنسان حكيم وذي رأي صائب. يبدأ باختيار طبقات ثلاث من طبقات المجتمع الأثيني: القادة السياسيون، والأدباء والصناع فإذا ما وجد إنسانا ذا حكمة واضحة، يشير إليه ويوجه كلامه للكاهنة قائلًا: هذا الرجل أحكم مني. ولقد سبق أن قلت «إنني أحكم الناس».

يصف سقراط الخطوات الثلاث التي تمت في هذه المرحلة المتوسطة. الأولى: يذهب إلى سياسي مشهور بحمته. والثانية: يكتشف أنه ليس حكيما. والثالثة: يبين للرجل أنه ليس حكيما. وتنتج عن هذه الخطوات الثلاث كراهية الرجل وكثير من الحاضرين له.

«ذهبت لمقابلة رجل مشهور بحكمته. وبدالي حين تناقشت معه أنه يرى نفسه حكيما وكذلك يراه معظم الناس، مع أنه ليس حكيما على الإطلاق. حاولت أن أبين له أنه ليس حكيما على الرغم من اعتقاده بأنه حكيم. فكان أن كرهني وشاركه كل الحاضرين في هذه الكراهية».

يقول سقراط: إنه كرر المحاولة عدة مرات. واستطاع حل اللغز بعد فشله في العثور على إنسان حكيم يمكن أن يُعلم الكمال الإنساني: يقول الله على لسان الكاهنة «حكمة البشر ضئيلة أو معدومة». ويبدو أن الله أشار لسقراط واستخدم اسمه ليجعله مثلًا يُحتذى به «وكأنما أراد الله أن يقول إن من يدرك كما أدرك سقراط أن حكمته في حقيقة الأمر لا تساوي شيئًا يكون أحكم الناس».

يصل سقراط بعد اكتشافه في حل هذا اللغز إلى نهاية المرحلة المتوسطة من حياته.

كان موضوع المناقشات وأسلوبها ونتيجتها في المرحلتين المتوسطة والأخيرة واحدًا. دار موضوع المناقشات في المرحلتين حول تحقيق الكمال في الحياة الإنسانية ومهارتنا في تحقيقه. اتبع سقراط كما سبق أن بيّنا في المرحلة الأخيرة أسلوب المناقشة. يوجّه الأسئلة ويحاول أن يبين للناس جهلهم المعرفي. واتبع نفس المنهج في المرحلة المتوسطة أيضا. اتبع أسلوب طرح الأسئلة لاختبار القادة السياسيين، محاولًا أن يوضح لهم جهلهم. وحين ناقش الشخصيات الأدبية المشهورة «انتقى القصائد المشهورة واختبر كتابها من الشعراء». لم يقدم «سقراط» لنا أي تفاصيل عن مناقشاته مع الصناع غير أنه قد ذهب إليهم فقط» إلا أنه ليس هناك شك في أنه قد لجأ لنفس الأسلوب. وجاءت نتيجة المرحلتين واحدة حيث بات مكروها من قبل من قام باختبارهم بهذه الأسلوب.

بينما كان موضوع المرحلتين أسلوبها واحدًا، وانتهيا إلى نفس النتيجة اختلف أسلوب الانتقاء المنظم للطبقات الثلاث الذي تم في المرحلة المتوسطة عنه في المرحلة الأخيرة التي تميزت بالانتقاء العشوائي ومحاورة من يتصادف الالتقاء معه» كذلك اختلف الدافع. فبينما كان في المرحلة المتوسطة يبحث عن حل

اللغز الذي قالت به الكاهنة بأن يحاول أن يجد من لديه معرفة بطبيعة الحياة الإنسانية، وبالتالي يكون أحكم من سقراط الذي يدرك جهله بهذه المعرفة. كان دافعه في المرحلة الأخيرة من حياته «خدمة الآلهة بأن يظهر للناس جهلهم». بأن يوجههم تجاه الفلسفة بأن يجعلها تحتل أول اهتماماتهم».

تثير المرحلة الأولى من حياة سقراط سؤالًا محيرًا حول السمعة السيئة التي التصقت به طوال حياته. ويتطلب دفاعه عن نفسه أثناء المحاكمة أن يفسر لماذا أصبح سيئ السمعة؟» يجب أن أحاول في هذه الفترة القصيرة أن أزيل من عقولكم القدح في سمعتي الذي لازمني فترة طويلة. كان عليه أن يجيب عن السؤال التالي لإزالة هذه السمعة: سقراط ما مشكلتك؟ ومن أين جاءت لك هذه السمعة، وتلك الاتهامات؟ لم تلتصق بك هذه السمعة، وتلك القصص التي نسجت عن حياتك بسبب قيامك بعمل ما يقوم به الآخرون من الناس، ولم تفعل شيئا يخالف التقاليد؟ يجيب سقراط بأن رغبته في التيقن من مدى صدق حديث الكاهنة السبب في سلوكه هذا، السلوك الذي جلب عليه السمعة السيئة. أصيب بسوء السمعة بسبب التحول الذي حدث في حياته وتغير اتجاهها للتيقن من صدق كلمة الله.

تثير تلك الإجابة السؤال التالي: متي غيّر سقراط مسار حياته، وماذا كان اتجاهها قبل قيامه بمحاولة التيقن من نبوءة الكاهنة؟ وماذا فعل سقراط حتى يجعل «شريفون» يسأل الكاهنة عن ما إذا كان هناك من هو أعلم من سقراط؟ لعل شريفون قد علم شيئا ما عن سقراط جعله يتجه إلى الكاهنة. فإذا لوحظ أن شهادة سقراط في المحكمة قد الصقت السمعة السيئة به بسبب حواره الفلسفي فقط بعد نبوءة الكاهنة، فإن التناقض يبدو واضحًا في هذه الشهادة.

قد تكون الشهادة زائفة أو أن سقراط كاذب أو مشوش الذهن. ومع ذلك مازال هناك تفسير أخف حدة. أبين في هذا الفصل أن «سقراط» قد اكتسب السمعة السيئة خلال شهر أو شهرين. وأبين أن مناقشاته في المرحلة الأولى من حياته لم تكن السبب في وصفه بهذه السمعة سيئة الذكر. ولماذا ذهب «شريفون» إلى

الكاهنة قبل اكتساب سقراط لهذه السمعة. وأخيرًا أقترح بأن «شريفون» قد ذهب لمقابلتها بعد سنة أو سنتين من لقائه سقراط.

- متى اشتهر سقراط بسوء السمعة؟

لا تضم محاورات أفلاطون حجج سقراط ومناقشاته الفلسفية فقط، وإنما عبّرت عن هذه المناقشات في صيغة درامية. ويبين «أفلاطون» بعد إ
ضافته لهذه المواقف الدرامية التاريخ الذي دارت به هذه المناقشات، ومتى حدثت الأعمال التي قام سقراط بها من عامه العشرين حتى عامه السبعين. وتوضح لنا هذه المواقف الدرامية متى غيّر سقراط اتجاه حياته بحثًا عن مدى صحة الرسالة الإلهية. أي التغيير الذي جلب عليه السمعة السيئة في أثينا. وتتسق هذه المواقف الدرامية مع المعلومات التاريخية المحدودة التي لدينا عن حياة سقراط. ويتم تفسير ذلك الاتساق في التواريخ بأن أفلاطون قد كتب هذه المواقف الدرامية على هذه الصورة رغبة منه في أن تعكس الوقائع التاريخية لبعض المحاورات. ومع ذلك ظهرت بعض التفاسير التي تشك في دقة هذا التاريخ الدرامي أو تطابقه مع التاريخ الواقعي.

تبين المواقف الدرامية في محاورة «لاخيس» أن سقراط كان حسن السمعة، وله علاقات اجتماعية طبيعية في تلك الفترة. تبدأ المحاور بدعوة يوجهها «ليسيماخوس» ومن آخر صديق له إلى كل من «لاخيس» و«نيسس» القائدين في الجيش وفي السياسة، لمشاهدة أحد العروض الفنية لأحد الفنانين. وحين سأل «ليسيماخوس» وصديقه القائدين النصيحة حول أفضل طريقة لتربية ولديهما طلبا انضمام سقراط للمناقشة واستشارته.

لاخيس: كيف تطلب مني ومن «نيسيس» النصيحة حول كيفية تربية أبنائك ولم تطلبها من سقراط الذي يُعد عضوًا في الحزب الذي تنتمي إليه، ويقضي معظم أوقاته في مناقشة مثل هذه المسائل التي ترغب النصح بها، ويتحدث دائمًا عن تربية الأولاد وتدريبهم.

ليسيماخوس: لاخيس، أتقول بأن سقراط يهتم بهذا الموضوع؟

لاخيس: نعم هذا صحيح ياليسيماخوس.

نيسيس: أتفق مع «لاخيس». وأوافق على طلب النصح منه. فلقد وجد مدرسًا اسمه «دامون» ليعلّم ولدي الموسيقى. ولم يكن هذا الشاب موسيقيًا ماهرًا فقط وإنما إنسان خلوق يجعلك تتمنى أن يتشبه به شباب اليوم.

ليسيما خوس: لن يستطيع يا سقراط ونيسيس ولاخيس لمن في مثل سني أن يعرفوا ما يفكر فيه صغار السن. وذلك طالما أن كبر السن يجعلنا نقضي معظم أوقاتنا داخل المنزل. فإذا كانت لديك نصيحة يا ابن «سوفر ونيسك» لمن يشاركك في الانتماء للحزب لا تبخل بها عليه. ويجب عليك تقديم هذه النصيحة لأنك كنت صديقا لنا مع والدك الذي كنا أصدقاء معًا، ولم نختلف يومًا ما حتى وفاته.

يقول «لاخيس»: «إن سقراط يمضي وقته دائمًا في أماكن تلقي الثقافة والرياضة البدنية. ويضيف «نيسيس» بأنه لجأ إلى سقراط الذي أوصى بأفضل المعلمين له حين كان يبحث عن معلم لابنه. وكان كلاهما يتصف بأن مواطن صالح وعلى خلق فاضل وتربية جيدة. ولم ينسب سقراط لهم أي فضائح باعتبارهما منحرفين. كان «سقراط» يقضي معظم أوقاته في تلك الفترة مثل المعلم الأكاديمي الذي يعمل في كلية الآداب في يومنا. ينصح الناس بكيفية الحصول على تعليم مناسب. ويرشح لهم من يقوم بتعليمهم. وربما يكمن الفرق في أنه كان يعمل دون مقابل. ربما كان يقبل بعض الهدايا فإن المحاورة لم تشر إلى ذلك. وهكذا يتضح لنا أن أسلوب حياة سقراط ونمطها كانا مقبولين اجتماعيا. ولم يكونا متجاوزين للقيم الاجتماعية أو ينقداها لها.

تُظهر هذه الفقرة من المحاورة أن سقراط لم يكن سيئ السمعة في تلك الفترة وعلى الرغم من انتمائه إلى نفس الحزب الذي ينتمي إليه الوالدان الطاعنان في السن «ليسيماخوس» وصديقه العجوز لم يعلم عن حياته شيئا. ولم يعرف كيف كان سقراط يقضي وقته على الرغم من أنهما قد قضيا حياتهما في نفس الحي الذي

يسكن به سقراط. كانا أكثر من مجرد جيران بالنسبة لسقراط. ارتبطت عائلاتهما بعلاقات وثيقة حتى إن «ليسيماخوس» يخاطب سقراط (في الفقرة التالية لهذه الفقرة السابقة من المحاورة) بأن أعماله تنعكس عليهم وأفعالهم تنعكس عليه. لا يمكن وصفهما بأنهما غريبان عنه. ويعرف «ليسيماخوس» أن سقراط بن «سوفرونيكوس». وقد يكون من الغرابة أن «ليسيماخوس» لا يعرف شيئا عن أسلوب سقراط في الحياة على الرغم من هذه الصلة القوية بين العائلات. إذ تبين هذه التفاصيل أن حياة سقراط بعيدًا عن سوء السمعة، لم تكن معروفة لعامة الناس.

تبين المناقشة أن «ليسيماخوس» يدافع عن جهله بحياة سقراط «بأن كبر السن يلزمنا قضاء معظم أوقاتنا بالمنزل». لا يدعي «ليسيماخوس» أنه يجهل الشخصيات السياسية والمشهورين من الناس، وإنما نلاحظ أن نشاطه على خلاف ذلك يتصل بالشخصيات العامة التي تقوم بالتدريس، وتحرص على متابعة العروض الفنية. وتفسر العبارة التي دافع بها عن نفسه عدم معرفته لوظائف جيرانه وأعمالهم حتى لو كان هذا الجار ابنا لأحد أصدقائه.

وتوضح لنا بعض التفاصيل التي وردت في المناقشة بعض الصفات الخاصة بسمعته بين من يعرفونه. كانت سمعته محترمة على الرغم من أنه كان من الشخصيات العامة. ولم يكن من يقدرون قدره في حاجة للدفاع عن أسلوب حياته أو سمعته.

ليسيمياخوس: تذكرني هذه المناقشة بأمر ما. حين كان أولادنا يتحدثون مع بعضهم بعضًا داخل المنزل، وكانوا يمدحون سقراط. ولم أسأل إطلاقًا ما إذا كانوا يقصدون ابن «سوفرونيكوس». لذا أخبروني أيها «الأبناء» هل هذا سقراط الذي يتحدثون عنه؟

الابن: إنه هو أيها الوالد.

ليسيماخوس: يُعد أمرًا طيبًا أن نعرف يا سقراط أنك تحذو حذو والدك. وتسير على الطريق المستقيم الذي اتبعه. فلقد كان والدك من أفضل الرجال.

وأعتقد أن الأمر جيد لعائلاتنا، لأن أمثالك تؤثر علينا كما تؤثر أفعالنا عليك.

يُعد «ليسيماخوس» مواطنا أثينيا صالحا. ويبين رد فعله أن سقراط إنسان فاضل- يقضي وقته يُعلم الشباب ويدربهم- يتصف بنفس السمعة الطيبة التي اتصف بها والده وله علاقة طيبة بالعائلات. وعلى الرغم من انشغاله بالأمور العامة وشهرته فإن ذلك لن يجعل منه إنسانًا سيئ السمعة.

يقدم الجزء من هذا الحوار لنا لمحة عن بداية اتهام سقراط بسوء السمعة.

لاخيس: لا تبتعد عن هذا الرجل فقد راقبته واحتككت به في موقف آخر. وأستطيع القول؛ إنه لا يسير على خطى أبيه الطيب فقط وإنما يتصف بما يتصف كل مواطن أثيني حر. لقد انسحبنا معًا من معركة «ديلوم» وتعرفت إليه. وأقول لك، إذا ما حاكى كل مواطن «سقراط» ونهج نهجه لصلح حال بلدنا ولم نصب بهذه الهزيمة.

نشبت معركة «ديلوم» في نهاية عام 424 قبل الميلاد. لذا لم تكن هذه المحاورة التي لا يتصف فيها «سقراط» بسوء السمعة قد ظهرت بعد. كذلك لم تُعرض مسرحية «السحب»، «لارستوفانيس» قبل مارس 432. وعلاضت في احتفال «دينسين» بعد مسرحية زواج أمبيسياس التي فقدت ولا تعلم عنها إلا شبيهة بمسرحية «السحب» لا يمكن أن يسخر من مواطن محترم أو إنسان مجهول. لذلك يجب أن يكون سقراط قد عرف عنه سوء السمعة في بداية شتاء عام 424. وألهم هذين الشاعرين حتى إنهما قد صورا شخصيته في المسرحيتين اللتين ساهما بهما في احتفال مارس عام 423.

تيقن ما يقوله سقراط في محاورة «الدفاع» مع ذلك التاريخ. يقول «إن القدح في سمعته قديم ولقد سمع به معظم القضاة في طفولتهم أي حدث منذ نحو خمسة وعشرين عامًا أو أكثر حيث كان عمر سقراط نحو خمسة وأربعين عامًا أو أصغر بقليل. بلغ سقراط عامه الخامس والأربعين في عام 423. ويعني ذلك أن «القدح» بدأ في الظهور قبل ذلك التاريخ وبعد عودته من معركة «ديلوم» في نهاية عام 424.

لماذا بات سقراط سيئ السمعة

تبين محاورة «لاخيس» لنا سقراط الذي بلغ عامه الخامس والأربعين ولم يكن سيئ السمعة وقد ظهر قبل محاورة «لاخيس».

محاورتان هما «خارميدس» «وبروتاجوراس» اللتان بهما بعض التواريخ الدرامية. تفتتح محاورة «خارميدس» بعدودة سقراط إلى أثينا بعد انتهاء القتال في «بوتيديا». وبالتالي تكون المحاورة قد تمت في عام 429، وأن سقراط قد بلغ عامه الأربعين. ووضعت محاورة «بروتاحوراس» في أثينا. وتبدأ بملاحظة حول عمر «الكيبديس» الذي بدأ لحيته في النمو، يترك «الكبيديس» أثينا في عام 432. وقد بلغ من العمر نحو ثمانية عشر عامًا وأصبح جنديًا. وذهب إلى «بوتيديا» ومكث مع سقراط لمدة ثلاث سنوات. حين عاد «الكبيديس» كان قد مضى وقت طويل على بداية نمو لحيته. لذلك يكون التاريخ الدرامي لمحاورة «بروتاجوراس» قبل عام 432. ولا يمكن أن تكون قد نبتت لحيته قبل 432 بفترة طويلة أو أن الكبيديس كان صغيرًا جدًا على أن تكون له لحية. لذا يجب أن يكون عمر سقراط في تلك الفترة نحو 36 أو 37 عامًا.

تبين الحوادث الدرامية في محاورة «بروتاجوراس» أن سقراط كان في الثلاثينيات من عمره في ذلك الوقت. وكان قد كوّن بالفعل اسما له في الدوائر الثقافية ولم يكن قد وُصف بسوء السمعة في المدينة. وكان «بروتاجوراس» يتحول في الدوائر الثقافية داخل المدن جاذبا لمن يدافعون أجرًا مقابل تعليمهم. وكان «هيبوكريتيس» شابًا يافعًا يتوق للتعلم على يديه وقد أخبر سقراط عن السببين اللذين دفعاه للابتعاد عن «بروتاجوراس». أولهما أنه مازال صغيرًا جدًا على الدراسه معه. والثاني أنه لم يستمع قط «لبروتاجوراس» أو لكلمة منه حيث كان صغيرًا

حين زار «بروتاجوراس» المدينة أول مرة. وطلب من «سقراط» أن يتوسط له عند «بروتاجوراس» وصل «بروتاجوراس» للمدينة منذ يومين. وافترض «هيبوكراتيس» أن سقراط لم يقابله بعد حتى الآن في هذه الزيارة ويعني ذلك أن سقراط كان قد قابل «بروتاجوراس» من عشر سنوات مضت أي في زيارته السابقة للمدينة حيث كان «سقراط» في العشرينات من عمره. ويعرف سقراط «بروتاجوراس» معرفة وثيقة تجعله يعرف أن «بروتاجوراس» يقضي معظم أوقاته في المدينة. ويؤكد «بروتاجوراس» في نهاية المحاورة أن سقراط له شهرته، حيث قال «لقد قلت لمعظم من تقابلت معهم إنني معجب بك كثيرًا خاصة لمن هم في مثل سنك من الشباب». ويتنبأ «بروتاجوراس» «بأن سقراط سيصبح مشهورًا بحكمته». وعلى الرغم من أن سقراط كان معروفا لدى السوفسطائي ومشهورًا في دائرته، فإنه لم يكن معروفًا بحكمته لسكان المدينة ولم تكن سمعته قد ساءت بالطبع.

توضح محاورات «بروتاجوراس» و«خارميدس» و«لاخيس» فلسفة سقراط في المراحل الأولى من حياته قبل اتصافه بسوء السمعه. وعلى الرغم من تشابه آرائه الفلسفية في هذه المحاورات الثلاث مع آرائه في المراحل الأخيرة من حياته بل تكاد تتطابق فإن هناك فرقًا بين الآراء في المرحلتين الأولى والأخيرة يُبين أو يفسر السبب الذي جعل تفلسفه لم يكن مؤذيا للناس أو مؤديا لسوء سمعته أبدا. أولا ببيان أوجه التشابه بين المرحلتين:

يتشابه أسلوب سقراط في التفلسف في المراحل الأولى من حياته مع أسلوبه في أواخر العمر في عدة نقاط. كان أسلوب المناقشة وموضوعها واحدًا في كلتا المرحلتين. يعرض في جميع مناقشاته لموضوع الكمال الإنساني والحياة الإنسانية ولكيفية معرفته. ويتضمن أسلوبه طريقة للبحث عن مدى صحة نبوءة الكاهنة، إذ يفترض سقراط أن انسانا يتظاهر بالحكمة ثم يحاول أن يثبت له أنه ليس حكيما.

يفترض سقراط هذا التظاهر بالحكمة مثلًا في محاورة «بروتاجوراس» من خلال هذه المناقشة:

قلت: «هل أفهم من كلامك أنك تصف المعرفة المدنية، وتعد بأن تجعل من الناس مواطنين صالحين»

قال بروتاجوراس: «هذا نفس ما أنتوي القيام به يا سقراط». يتبع سقراط نفس الأسلوب في محاورة «خارميدس» في مناقشته مع «كريتاس»:

قلت: «افترض «يا كريتاس» أنك تعرف معنى «رجاحة العقل» وفقًا لدراستك وكبر سنك. وقد وافقت على ما يقوله عن معنى «رجاحة العقل» وتعريفها. فهل تقبل أن أتناقش معك حول ما إذا كان هذا التعريف صحيحًا أم لا؟

قال: بالطبع أقبل التعريف ومعناه وأوافق على مناقشته معك. وحدثت نفسي الخطوة في محاورة «لاخيس» أي اتبع نفس النهج:

سقراط: ألا نحتاج في هذه الحالة إلى معرفة معنى الكمال الإنساني؟ كيف نرشد الناس ونحثهم على تحقيقه إذا كنا نجهل معناه؟

لاخيس: لا شك في ذلك ولابد لنا من معرفته.

سقراط: تقول إذن بأننا نعرف معناه وما هو.

لاخيس: نعرف بالطبع يا سقراط.

تظهر في كل المحاورات الثلاث دلالة على الجهل. وتبدو هذه الدلالة واضحة في المناقشة التي حدثت في نهاية محاورة «بروتاجوراس».

هناك سؤال أخير: هل ما زلت ترى كما بدا لك في البداية أن هناك أناسًا جهلة ومع ذلك يتصفون بالشجاعة؟

قال: حين تطلب معنى إجابة هذا السؤال فإنك تبدو لي شخصا تريد الانتصار، ولذا أسدى لك معروفًا وأجيبك أن ذلك في ضوء ما اتفقنا عليه يبدو أمرًا مستحيلًا.

قلت: لا أسأل هذه الأسئلة إلا رغبة في معرفة معنى الكمال الإنساني وطبيعته. فإذا أدركنا معناه تصبح كل الموضوعات التي نناقشها واضحة لنا.

وكان الدليل على جهل كريتاس في محاورة خارميدس واضحًا لكل الحاضرين.

«قال خارميدس: بحق زيوس يا سقراط. لا أستطيع أن أعرف ما إذا كنت راجح العقل أما لا. إذ كيف أعرف ولم تستطيع أنت و«كريتاس» أن تعرفا معناه كما تقول!

ويرى نيسياس في محاورة لاخيس، أن هناك رجلين جاهلين تماما. يقول لا يعرف كلانا ««نيسياس و«لاخيس»» عن المعرفة المناسبة للإنسان المحترم»

لم يتصف «سقراط» بسوء السمعة من جانب من تناقش معهم على الرغم من الإزعاج الذي قد يسببه لمن يتوجه إليهم بالأسئلة في المرحلة الأولى من حياته.

فقد مدحه مثلًا «بروتاجوراس» السوفسطائي بقوله «إنه على الرغم من انزعاجه من الأسئلة التي يوجهها سقراط له، فإنه استمتع بروح المناقشة وأسلوبها. ولا يمكن أن يتهم سقراط بسوء الطوية». وأيد كريتاس في محاورة خارميدس رغبة خارميدس في قضاء الوقت في صحبة سقراط على الرغم من إظهار سقراط جهله ووصفه بأنه إنسان جاهل وانسحب لاخيس ونيياس من العمل في تعليم الأولاد، وأوصيا بـ «سقراط» باعتباره أفضل من يعلم الشباب في محاورة لاخيس بعد أن ظهر لهما جهلهما.

أعتقد أن «سقراط» لم يُصبح مكروها أثناء هذه المناقشات بسبب التزامه بالأعراف والتقاليد الاجتماعية المناسبة. وكان يحافظ على هذه التقاليد ويحترم الأماكن التي تتم فيها المناقشات على الرغم من اختياره للآخرين.

ذهب سقراط إلى مقاطعة «كاليس» للحوار مع «بروتاجوراس» الشخصية العامة. لم يذهب للتيقن من مصداقية الكاهنة بل لمساعدة «هيبوكراتيس» على تحسين وضعه كان «بروتاجوراس» باعتباره معلمًا محترفًا يعمل في أثينا يرحّب بزيارة الناس له كما يفعل سقراط ولم يكن في الطريقة التي تناقش بها سقراط مع بروتاجوراس ما يشينها أو شيء منافٍ للعادة.

ذهب سقراط في محاورة «خارميدس» إلى صالة «تاريس» للألعاب، حيث يفضل الذهاب إليها للمناقشة مع أصدقائه. وحين كان سقراط يناقش «كريتاس»

لم يكن قد ذهب إليه قاصدًا المناقشة، وإنما «شريفون» من أجلس سقراط بجوار «كريتاس». كان سقراط يهتم بالحديث عن الحالة الراهنة للفلسفة، ويتساءل عما إذا كان هناك من الشباب من يتصف بالحكمة والجمال. وقد دفع ذلك «كريتاس» إلى أن يصف الشاب «خارميدس» ابن عمه بأنه من الشخصيات العامة التي قد يرغب سقراط في الحديث معها.

كانت هناك بعض الأعراف الاجتماعية التي التزم بها «سقراط» في مثل هذه المناقشات إذ كان من غير اللائق أن يتناقش إنسان مسن مع شاب في هذه «الجلسه». ومع ذلك إذا كان «خارميدس» أصغر سنا من سقراط فليس هناك ما يشين سقراط للحديث معه في حضور «كريتاس» ابن العم الأكبر والراعي له.

حدث «في محاورة لاخيس» حين كان سقراط حاضرًا لمناقشة عامة مع أحد معلمي الفنون، أن طلب منه «لاخيس» الاشتراك في مناقشة يساعد بها على تقديم النصح لأبوين.

وعلى الرغم من أن «لاخيس» و«نيسياس» كانا من الشخصيات العامة، وتمت المناقشة في مكان عام فإن سقراط لم يذهب إليهما إلا بعد دعوته لتقديم النصح. إذ كان سقراط يراعي الأصول الاجتماعية مطابقًا بين الفعل القويم والسلوك العادل: «أحاول تقديم النصح قدر إمكاني. فإنه لكوني أصغر سنًا وأقل خبرة من «لاخيس» و«نيسياس» فإنه من المناسب (الأكثر عدّلا) بالنسبة لي أن أستمع أولا لهما، وأتعلم منهما». ولا يمكن أن يصف أحد سلوك سقراط في هذه المناقشة بأنه غير لائق اجتماعيا.

يفسر التغير الكبير الذي حدث في سلوك سقراط للتيقن من مصداقية الكاهنة السبب الذي دفع لكراهيته. فوفق ما ورد في محاورة «الدفاع» من أنه قد غيّر من أسلوبه بُغية التيقن من مصداقيته الكاهنة، وأنه قد حدد في مناقشاته ثلاث خطوات: أولاها: الذهاب إلى أحد القادة المشهور لهم بالحكمة. والثانية مناقشة من يدّعي الحكمة، ولكنه ليس حكيما. والثالثة محاولة لفت انتباهه

إلى عدم حكمته. الأمر الذي يترتب عليه أن يصبح سقراط مكروها من هذا الرجل ومن كل من حضر المناقشة. من الواضح أن الخطوتين الثانية والثالثة كما تظهران في محاورتي «بروتاجوراس» وخارميدس»، لم تتغيرا عنهما في المرحلة الأولى في حياته. ويترتب على ذلك أن سقراط قد اكتسب الكراهية بسبب تغير نمط الأفراد والأماكن التي كان يجري مناقشاته فيها في المراحل الأولى من حياته. وبدأ يتجه إلى الشخصيات العامة.

أعتقد أن مناقشة الشخصيات العامة واختبارهم يشكلان نوعًا من البذاءة وعدم الاحترام. ولعل هذا النمط من السلوك يفسر سبب السمعة السيئة التي اكتسبها سقراط بصورة مفاجئة، وبعد ممارسته التفلسف لسنوات عديدة دون فضائح. كانت مناقشة من يحتل منصبًا سياسيًا مرموقًا واتهامه بالجهل، كما فعل سقراط في محاورة «الدفاع»، تُعد من الأمور غير اللائقة والبذيئة لدى الأثينيين كما هو بالنسبة لنا اليوم.

«ألا تشعر بالخجل أيها الرجل الصالح باعتبارك أحد مواطني أثينا، أعظم المدن وأكثرها شهرة بالقوة والحكمة، أن تسعى لكسب أكبر قدر من المال وتبحث عن الشهرة والمكانة الاجتماعية. ولا تهتم أو حتى تفكر في معرفة الحكمة العملية والبحث عن الحقيقة والارتقاء بالروح؟ فإذا ما أجاب أحدكم بأنه يهتم بذلك، لن أدعه يذهب وإنما أتوجه إليه بالسؤال وأستفته. فإن شعرت بأنه لا يعرف الكمال ويتظاهر بمعرفته أنبهه بأنه يضع الأشياء القيمة في أدنى مرتبة، والأشياء التافهة والسيئة في أعلى مرتبة.

تُفسر عملية الإلحاح من جانب «سقراط» على إجراء المناقشة واختبار الشخص. الذي قد يترتب عليه نوع من التهديد للشخص، ثم تكرار هذه العملية مرات ومرات السهولة التي اكتسب بها سقراط العداوة وسوء السمعة في شتاء عام 424 ق.م.

أفترض أنه ليس هناك اختلاف بين المعايير والقيم الاجتماعية التي كانت

سائدة في أثينا القديمة، وتلك السائدة في زماننا المعاصر. وأعلم من خبرتي في تدريس الفلسفة بالجامعة، أن من المناسب في المحاضرة أن يشعر الطلبة بجهلهم نتيجة للحوار الذي يدور بيني وبينهم. وليس هناك ما يشين ذلك بل قد ينتج عن طلبة يتمتعون بالإبداع الفلسفي. ويوافق العديد من الآباء والمربين على هذا الأسلوب في التدريس. فإنه ليس من المناسب على الإطلاق بالنسبة لي باعتباري أستاذًا في الفلسفة أن أقوم بتوجيه الاتهام لمدير الجامعة التي أعمل بها خارج المحاضرة وعلانية في أحد الأحداث العامة كما فعل سقراط. وقد يتهمني جمهور الحاضرين بالتزاز شخصية عامة معتمدًا على حالة الخجل أو الحرج التي قد تقع فيها هذه الشخصية، ويسخطون ويصفونني بسوء الخلق.

سبق أن أشرت إلى أن أسلوب سقراط يشبه وظيفة المعلم الناصح للشباب في مجال العلوم الإنسانية. ومن الواضح أن عمل هذه الاختبارات للطلبة من الأعمال المحترمة التي يقوم بها الأستاذ الجامعي اليوم. ومع ذلك وعلى الرغم من استمتاعي بالحوار مع الطلبة داخل المحاضرة، وقد يُفرض عليّ أن أفعل مثل سقراط وأتحول لمناقشة بعض الشخصيات العامة ودعوتهم للحوار. لذلك من السهل أن يتضح لنا السبب الذي دفع سقراط المحافظ على الآداب الاجتماعية في مناقشاته أن يقول في محاورة «الدفاع» إنه قد اتجه إلى اتخاذ هذه الخطوة وتغيير مسار حياته رغمًا عنه، وملاذًا أخيرًا لحل لغز الكاهنة.

- لماذا ذهب شريفون لرؤية الكاهنة؟

يقول سقراط في محاكمته؛ إنه لم يُصب بسوء السمعة إلا بعد أن دفعته نبوءة الكاهنة لتغيير مسار حياته ومناقشة الشخصيات العامة. وبالتالي أصبح من الضروري إثارة السؤال عن السبب الذي دفع «شريفون» لسؤال الكاهنة: هل هناك من هو أحكم من سقراط؟ تقدم محاورة «بروتاجوراس» إجابة لهذا السؤال.

يعتبر «سقراط» أشهر الفلاسفة المحدثين والقدماء الذين يقولون بأن الكمال الإنساني ليس إلا فرعًا من فروع المعرفة. وتعني هذه العبارة أن الأخلاقية ليست

إلا الفهم العقلاني دون حاجة لأي متطلبات أخرى إضافية يمكن أن تتصف بها الشخصية. وقد واجه الفكر التقليدي الأخلاقي هذا الاتجاه العقلي الخالص في الأخلاق. اعترض الأخلاقيون التقليديون بأن الإدراك العقلي دون النية الطيبة والإرادة الصالحة- دون الرغبات المناسبة واللذات المعتدلة- ليس كافيًا وحده لتحقيق الكمال الإنساني. كان الافتراض الكامن وراء هذا الاعتراض يتمثل في أن معرفة الفرد بما هو خيّر تتصارع مع رغبات النفس الأخرى. وتعجز مثل هذه المعرفة أحيانا عن الوقوف في وجه مثل هذه الرغبات.

يُبرهن سقراط بمهارة رائعة على زيف هذا الافتراض التقليدي. ويؤكد أن المسألة على خلاف ذلك تماما. ويثبت أن المعرفة بالحكمة الإنسانية (السعادة) تكون لها الغلبة والسيطرة حين تكون حاضرة في النفس. اختار «أفلاطون» أن يضع هذه الملاحظة الرائعة في محاورة «بروتاجوراس». إذ يحاول أن يبين أن «سقراط» الذي بلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا يدرك بالفعل قيمة المعرفة وقوتها، وأدرك النتيجة التي تترتب على ذلك:

«يبدو لي أن النتيجة التي انتهينا إليها من مناقستنا، إن كانت لها نتيجة، تبيّن مدر غرابتك يا سقراط. إذ تحاول أن تثبت أن كل الموضوعات التي تناقشنا فيها كالعدل، ورجاحة العقل، والشجاعة تعد من الموضوعات التي تساعدنا على تعلّم الكمال الإنساني».

يظهر سقراط نفسه بعد توصله إلى هذه النتيجة أنه أحكم من «بروتاجوراس». فقد اتفق معه على أن الحكمة تحكم الشخصية حين تكون حاضرة في النفس.

ومن الواضح أن موافقة «بروتاجوراس» جاءت من منطلق الكبرياء المهني بوصفه معلما للكمال الإنساني، ومن الشائن أن يقول بغير ذلك. لم يتنبه «بروتاجوراس» لمعنى العبارة وغاب عنه فهم معناها وما يترتب عليها. لم يدرك أنها تتعارض مع اعتقاده التقليدي «باختلاف الشجاعة عن الحكمة». لم يستطع «بروتاجوراس» أن يظهر للعالم حقيقة الدعوة القائلة بأن المعرفة تحكم وإنما يتابع فقط برهان سقراط.

تُعد واقعة تمتع «بروتاجوراس» بالسمعة الطيبة بأنه أحكم إنسان في اليونان أمرًا واضحًا تمامًا من الطريقة التي يأتي بها ذكر اسمه في المحاورة. تفتتح المحاورة بسرد أسطورة «الصيد بالكلاب» لبيان جاذبية «الكيبدس» الجنسية التي يصعب مقاومتها والذي كان الأثينيون يرون فيه نموذجًا للجمال البدني. يسأل أحد الأصدقاء المقربين لسقراط: من أين أتيت يا سقراط؟ لا شك من إطلاق كلابك وراء «الكيبدس» الذي يعيش أسعد لحظات حياته. يجيبه سقراط مندهشًا من المقارنة بأنه يتفق مع «هومر» في أن «الكبيدس» يُعد الأجمل حتى الآن. ثم يضيف بأنه قد نسيه تمامًا حين كان معه بسبب وجود من هو «أكثر جمالًا منه». اندهش الصديق وقال «لا يمكن أن تجد من هو أجمل منه على الأقل في أثينا». قدمت هذه المسرحية الحل لمشكلة سقراط «فمن الواضح أن «الحكمة» أكثر جمالًا من الحمال البدني، ولقد كان سقراط للتو في صحبة «أحكم من على وجه الأرض. إذا ما بدا «بروتاجوراس» لك أنه الأحكم».

لم يتنافس الصديق الحميم حين سمع هذا القول مع سقراط حول معنى الأفضل أو صيغة التفضيل. ومع ذلك بدا واضحًا في نهاية المحاورة، وبعد أن نقل له سقراط ما دار في مناقشته مع «بروتاجوراس»، أن سقراط أحكم من «بروتاجوراس». وربما كان ما دار في هذا النقاش سببا في سؤال «شريفون» للكاهنة: «أيوجد من هو أحكم من سقراط؟»- ذلك إذا ما افترضنا أن «شريفون» قد سمع بمناقشة سقراط مع بروتاجوراس.

أعتقد أن «شريفون» ليس إلا الصديق الحميم الذي لم يتم ذكر اسمه في المحاورة والذي نقل سقراط إليه مع بروتاجوراس. وقد قصد «أفلاطون» أن نصل إلى مثل هذا الاعتقاد. يبيّن «أفلاطون» وفق التاريخ الدرامي لمحاورة «بروتاجوراس» أن سقراط كان على وشك المغادرة لقضاء ثلاث سنوات في خدمته العسكرية. ويؤكد في بداية «خارميدس» أن «شريفون» كان أقرب صديق لسقراط في الفترة التي قضاها في أثينا قبل ذهابه للتجنيد. ووصف سقراط

في محاورة «الدفاع» «شريفون» الذي ذهب لمقابلة الكاهنة بأنه أعز أصدقائه، واستعمل نفس الكلمة في محاورة «بروتاجوراس».

لم يعترض «الصديق الحميم» الذي تخاطب سقراط معه في بداية محاورة «بروتاجوراس» على أن بروتاجوراس أحكم إنسان في العالم، وكان بالتالي لدى هذا الصديق السبب الذي يدفعه للتعجب بعد سماعه للنقاش حول ما إذا كان هناك من هو أحكم من سقراط. أعتقد أن أفلاطون قد قصد عدم تسمية اسم هذا الصديق. إذ كان عادة يذكر أسماء من يشتركون في المناقشات. وأرى أن «شريفون» يمثل أفضل حل لهذا اللغز.

- متى ذهب «شريفون» لرؤية الكاهنة؟

أعتقد إذا نظرنا لمدى توتر «شريفون» في محاورة «الدفاع» أن شريفون قد قام برحلته من أثينا إلى دلفي لسؤال الكاهنة بمجرد سماعه لنقاش «سقراط». مع «بروتاجوراس». وقد حدث في ربيع أو صيف عام 432. كان سقراط في مثل هذا التاريخ قد ترك أثينا لقضاء خدمته العسكرية. ولئن كان ذلك ليس أكيدًا فإن ما نعرفه عن تاريخ الحرب والإصابة بالطاعون في اليونان القديمة يمكن من القول بهذا التاريخ. كانت أثينا تحيا في سلام في هذه السنة لكن هذا السلام لم يستمر طويلا. ونشبت الحرب مع إسبرطة في بداية عام 431. وفقد الأثينيون حين احتشدوا داخل أسوار المدينة ما بين ثلث أو ربع عدد السكان في عام 430 بسبب الإصابة بالطاعون، والتي تعرضوا لها مرة أخرى في عام 429.

سعى «شريفون» بمجرد سماعة لإجابة الكاهنة عن سؤاله إلى نقلها إلى صديقه الغزيز «سقراط» بأسرع ما يمكن. وكان سقراط قد انتقل إلى مدينة «يوتيديا» لقضاء ثلاث سنوات الخدمة، غادر «شريفون» إلى أثينا، إذ كان من الصعب الذهاب إلى يوتيديا لبعدها عن أثينا وصعوبة الطريق في فصل الشتاء. فإنه كان من الممكن إرسال الرسائل إلى الفرق العسكرية، وأن سقراط قد علم بإجابة الكاهنة أثناء خدمته العسكرية.

قد يكون هذا التاريخ ضربًا من التخمين لكنه يربط الحوادث ببعضها بعضًا. أولا: كان سقراط ومن هذا التاريخ في حالة صراع مع اللغز استمرت لمدة سبع سنوات ولم يصل فيها إلى حل. ويتسق ذلك مع تصريحه بحيرته من إجابة الكاهنة قد «استمرت لفترة طويلة» قبل أن يقرر البدء بسؤال الشخصيات العامة في عام 424.

ثانيا: يفسر ذلك التاريخ استمرار حالة السهر أو التوهج التي كان سقراط يعاني منها أثناء الخدمة العسكرية. يصف «الكيبيدس» هذه الحالة في محاورة «المأدبة»:

«كان سقراط حين يدور في باله شيء يظل يفكر فيه طوال اليوم. ولا يذهب حين لا يتوصل إلى حل بل يظل واقفًا باحثا عن الإجابة. لاحظ الرجال أنه قد يظل واقفًا طوال فترة الظهيرة. وتحدثوا فيما بينهم مندهشين كيف ظل سقراط واقفًا هناك متأملًا. وحين أقبل الليل أخرج «الأيونيون» الأسرَّة بعد تناولهم العشاء حيث كان الوقت صيفا ومناسبا للنوم في الهواء الطلق في الخارج. ويمكنهم بالتالي رؤية سقراط ومعرفة إذا ما ظل واقفًا طوال الليل. استمر سقراط واقفًا حتى طلوع الفجر وشروق الشمس التي تلي صلاته وذهب في طريقه.

يدرك «أفلاطون» حين كتب هذه الكلمات أنه يستحيل علينا قراءتها دون التساؤل عن الشيء الذي أثار حيرة سقراط الشديدة. فإن كان «أفلاطون» قد قصد أن يضع لغزًا أمامنا فإن أفضل حل له أن سقراط قد سمع بنبوءة الكاهنة ولم ينجح في فهم مغزاها.

ثالثا: يفسر هذا التاريخ التغير الذي حدث لسلوك سقراط في الفترة ما بين محاورة «بروتاجوراس» ومحاورة «خارميدس». لم يتنبأ «سقراط» في محاورة «بروتاجوراس» قبل سنوات خدمته العسكرية بنقص معرفته بالكمال الإنساني، كانت ثقته بنفسه واضحة في المحاورة. ويثق بأن لديه القدرة على «تعليم العوالم» أن المعرفة تحكم».

يُلاحظ حدوث العكس في محاورة «خارميدس». إذ بدا سقراط غير راض عن نفسه بدلًا من الثقة فيها. تحمل سقراط ألمًا كثيرًا في محاورة «خارميدس»

بسبب إحساسه بالجهل. لم يعانِ في أي محاورة أخرى نفس هذا القدر من الألم بسبب التعبير عن جهله. يقول سقراط «إنه لا يجهل الكمال الإنساني فقط وإنما كيفية السؤال والبحث عنه». «إنسان أحمق ليس لديه القدرة على معرفة أي شيء». كانت محاورة «خارميدس» أول محاورة شارك بها سقراط بعد عودته من الخدمة العسكرية. ويرى لنا «أفلاطون» بصورة درامية كيف فاجأ «سقراط» «شريفون» وأصدقاءه الآخرين حين ظهر فجأة في ناديهم المفضل في الوقت الذي قد ظنوا أنه قد مات في المعركة الدرامية الأخيرة التي حدثت فترة خدمته.

نعلم جيدًا أن عبارة الكاهنة التي وصفت فيها سقراط بأنه الأحكم قد أثرت فيه، وجاءت العبارة التي يقول فيها «أعي جيدًا أن معرفتي ضئيلة أو محدودة» باعتبارها نوعًا من رد الفعل. ويفسر مثل هذا الموقف من جانبه التغير الذي حدث في سلوكه في الفترة التي أمضاها في الخدمة أي قبل الخدمة وبعدها. اسمحوا لي أن نقرأ «خارميدس» وفقًا للتاريخ الذي قد افترضته. وكما لو كان سقراط يتألم بسبب جهله بالإله الذي تحدث معه في معبد دلفي، وتعبيره عن هذه الألم لصديقه «شريفون» وأصدقائه ومناقشته.

يفسر التاريخ الذي قد افترضته متى علم سقراط بنبوءة الكاهنة والحيرة التي أصابته حول معناها. ويفسر أيضا تهدج سقراط الشديد وغير العادي وحالة سهره طوال الليل التي شهدها «الكبيدس» أثناء فترة خدمته العسكرية في «يوتيديا». ويوضح سبب اهتمام سقراط بجهله المذل وشعوره به بعد فترة الخدمة العسكرية.

مزج أفلاطون بين الحوادث والمواقف الدرامية والحوارات الفلسفية التي تضمنتها محاوراته. وتحتاج مثل هذه الحوادث والمواقف إلى تفسير. ولقد أتيت ببعض هذه المواقف والحوادث ووضعت لها بعض التفسيرات والفروض التي تساعد على فهمها فهمًا صحيحًا وبصورة غير متطرفة.

حياة سقراط ثلاث مراحل. الأولى في عام 433 حين كان عمره نحو 36

عاما، وحيت أخبر سقراط في هذه المرحلة «شريفون» نقاشه مع «بروتاجوراس». والثانية حين دفع تفوق سقراط في هذا النقاش على «بروتاجوراس» «شريفون» إلى الذهاب إلى الكاهنة وسؤالها عما إذا كان هناك من هو أحكم من سقراط: وربما حدث ذلك في بداية صيفة أو ربيع عام 432. وكانت تلك بداية المرحلة الثالثة من حياته.

وأعتقد أن سقراط قد سمع نبوءة الكاهنة أثناء الفترة التي قضاها في خدمته العسكرية بين عام 432- 429 ق.م. وشعر أنها لغز لا يستطيع حله حتى بعد فترة الطويلة التي قد شهدها «الكبيدس». أعرض سقراط عن حل اللغز فترة طويلة حتى عاد للتفكير فيه في عام 414 ق.م في أثينا. حصل سقراط بصورة مفاجئة على السمعة السيئة بسبب مناقشاته الفلسفية مع كبار الشخصيات العامة في شتاء 424، على الرغم من عدم اشتهاره بهذه السمعة أثناء حواراته مع العامة أو مع أقربائه وأصدقائه المقربين.

ليست عملية مناقشة الناس سببا مباشرًا لسوء سمعة سقراط. فقد قضى معظم أوقات فراغه في ممارسة المناقشات لمدة عشرين عامًا ولم يكن مشهورًا. وظل اسمه مجهولا نسبيا. وإنما اتهم سقراط بسوء السمعة بسبب سلوكه الاجتماعي المخالف للعرف والتقاليد السارية في تلك الفترة، وإخضاعه كبار الشخصيات للاختبار والمساءلة. لم يخالف سقراط هذه الأعراف الاجتماعية طواعية، وإنما تقواه فرضت عليه ذلك الموقف. ولم يجد أمامه بديلًا إلا إجراء هذا الاختبار لكلمة الله بأنه ليس هناك من هو أحكم منه.

أصبح سقراط مشهورًا في خلال شهرين فقط في أثينا بسوء السمعة بسبب سلوكه المخالف للأعراف والتقاليد الاجتماعية. وصور كوميان مثل «أرستوفانيس» شخصيته على المسرح وجعلها مثارًا للسخرية والضحك. لم يتوقف سقراط عن ممارسة نشاطه المثير للسمعة السيئة بعد حله اللغز في المرحلة الثالثة من حياته، وإنما استمر في ممارسته باعتباره التزامًا دينيًا حتى محاكمته ووفاته في

سن السبعين. وتبين لنا محاورة الدفاع أن الأمر لم يقتصر على ذلك فلم يعد سقراط يتبع منهجًا يكتفي فيه بالحوار مع شركائه «وإنما بدأ نتيجة لمناقشة أيٌ من كان يقابله». لم يكن دافعه البحث عن حل للغز الكاهنة في هذه المرحلة الأخيرة من حياته، طالما أنه قد عرف الحل. وإنما هدف سقراط في هذه المرحلة الأخيرة خدمة الله بأن يكشف للناس جهلهم.

بمعنى آخر أن يحول الناس إلى دراسة الفلسفة باعتبارها أهم شيء في حياتهم وأهم مراتبها.

اسمحوا لي بالعودة مرة أخرى لإنجاز سقراط الرائع في محاورة «بروتاجوراس» حين أظهر تفوقه على من يسمى بأحكم الحكماء.

الفصل الرابع

سقراط والكمال الإنساني
(محاورته مع بروتاجوراس)

يسرد سقراط، الذي يقترب من الثلاثين من عمره في محاورة «بروتاجوراس» مناقشة كان قد أجراها مع «بروتاجوراس» الذي يقترب من الستينيات من العمر، ويعتبر أحكم رجال اليونان. يحكي سقراط لأحد أصدقائه المقربين، عن كيف يتصور «بروتاجوراس» تعليم الكمال الإنساني فيقول:

«يتعلق موضوعي بالطريقة السليمة لإدارة الأمور الشخصية والأسرية حتى يمكن أن يدير المرء حياته الشخصية بأفضل الطرق، وكذلك تكون لديه الطريقة السليمة لإدارة الأمور المدنية حتى تكون لديه القدرة على معرفة بما يجب أن يقدمه للمدينة، وبالطرق التي ينفذ بها أفكاره». قلت: «أفهم ما تقول» «يبدو لي أنك تصف المعرفة المدنية وقدرتها على تحويل الناس إلى مواطنين صالحين».

قال: «هذا بالفعل ما أتنبأ به»

سببت مسألة تدريس بروتاجوراس للكمال نوعًا من الحيرة لدى سقراط. فيرى من جهة أن لديه من الأسباب التي تجعله لا يعتقد أن الكمال الإنساني قابل للتعلم: فقد كان الأثينيون يرون أن في مقدور أي إنسان الحديث عن الأحوال المدنية الصالحة. ويستشيرون الخبراء فقط في المسائل الفنية. كذلك ليس في مقدور القادة العظماء تعليم الناس كيف يكتسبون الكمال. ويقول سقراط من جهة ثانية: «إنه لا يشك إطلاقًا إن «بروتاجوراس» ذائع الصيت، والرجل الذي يتخذه معلما يستطيع تعليم الكمال».

يناقش بروتاجوراس الأسباب التي دفعت سقراط لعدم الاعتقاد فيما هو أصبح معروفًا باسم «الخطاب العظيم». ولا يزال الناس يحتفلون حتى يومنا بخطاب بروتاجوراس العظيم باعتباره التعبير التقليدي عن القيم الديمقراطية. يقول بروتاجوراس إن في حالة المعالجة الطبيعية يحتاج الناس إلى شخص واحد يعرف ما يجهلونه به. وينطبق ذلك على كل الفنون الأخرى. ولا يستثني من ذلك إلا طريقة معاملة البشر. ولا يمكن أن تحيا المدينة إلا إذا تشارك الجميع في المعرفة، وكان لكل منهم نصيب منها، أي يعرف كيف يعامله الآخرون أو يعامل الناس بعضهم بعضًا «بصورة صحيحة وباحترام». لقد كانت رغبة «زيوس» بالفعل أن كل من ليست لديه القدرة على تعلم معاملة الناس معاملة حسنه وباحترام أن يتم إعدامه «كالطاعون في المدينة». فإن كان في المدينة عدد قليل من الأطباء ومن أصحاب المهن الأخرى، فإن كل سكانها يعرفون كيف يتعاملون مع بعضهم بعضًا بطريقة صحيحة وباحترام. لذلك تسعى الديمقراطية ويحق للنظام الديمقراطي أن يتطلب المشهورة في الأمور الفنية والتقنية من عدد محدود من الخبراء، بينما يطلب المشورة من كل المواطنين في الأمور السياسية.

يقول بروتاجوراس: «إن القدرة العامة على التعامل السليم مع الآخرين ليست فطرية ويتم اكتسابها بالتربية». وبينما لا يتم توبيخ المرء على عيوبه الخلقية أو تأنيبه عليها فإنه يتم السخط عليه وتوبيخه على عدم تقواه ومخالفته لأصول الكمال الإنساني». الأمر الذي يثبت أن الكمال الإنساني يتم اكتسابه بالتعلم». ولعله السبب أيضا في أن نهتم بتعليم الأطفال منذ نعومة أظافرهم العدل والخير قبل تعليمهم أي شيء آخر. كذلك يأمر الآباء أولادهم بمجرد تعلمهم الكلام بأن يفعلوا كذا ولا يفعلون كذا. ويهتم المعلمون في المدرسة بتعليم الأولاد السلوك القويم أكثر من اهتمامهم بالمنهج الدراسي. وبينما يهدف تدريس الأدب إلى تهذيب سلوك الأولاد وتقويم نماذج للسلوك الصالح، يهدف تعليمهم الموسيقى إلى تحقيق انسجامهم النفسي واكتسابهم القدرة على التحكم الذاتي. وتهدف التربية

البدنية إلى تنمية قدرتهم البدنية على مواجهة أعباء الحياة. ولذلك «نصبح جميعًا معلمين للكمال الإنساني». ولا يدعي بروتاجوراس لنفسه أنه الخبير الوحيد بيننا بأمور الكمال الإنساني. وإنما يختلف عنّا في أنه أفضل قليلًا من كثيرين منا في مساعدة الناس على تعلم الكمال الإنساني.

يتوجه «سقراط» بالشكر لـ «لبروتاجوراس» بعد انتهائه من الحديث. ويقول إنه قد اقتنع بضرورة تغيير أفكاره، والاعتراف بما يزمعه «بروتاجوراس» بقدرته على التنبؤ بأن فعل ذلك أمر ممكن». ذلك فيما عدا شيء واحد ما زال يمنعه من الاقتناع. يقول سقراط: «إنه أصيب بالدهشة حين يستمع لـ«بروتاجوراس» يتحدث عن الكمال الإنساني كما لو كان الكمال «كلا» يتكون من مجموعة من الأجزاء مثل العدل، ورجاحة العقل، والتقوى وما يشابه ذلك ثم يطلب من «بروتاجوراس» أن يبين ما إذا كان الكمال بالفعل «كلّا» يتكون من مجموعة من الجوانب في مقابل البديل الذي يطرحه «سقراط» بأن العدل، ورجاحة العقل، والتقوى، والشجاعة، والحكمة كلها مسميات لشيء واحد أو للشيء نفسه». يجيبه «بروتاجوراس» بثقة شديدة: «أن سؤاله من السهل إجابته إذا يتكون الكمال الإنساني من كل الجوانب التي ذكرها سقراط، وأنه كل واحد».

يعرض سقراط حينئذ حجتين: « يبرهن في الأولى على أن «العدل» و «التقوى» إما أنهما شيء واحد أو متشابهان» والثانية: أن رجاحة العقل تعني قوله بأن الإجابة سهلة. ومع ذلك يظهر الخلاف بينهما حول المنهج المناسب لحسم هذه المسألة أهمل كلاهما مناقشة حجة سقراط لبعض الوقت قبل أن يعودا إلى مناقشتها من جديد. ويُعدل «بروتاجوراس» من وصفه السابق لإجابة سؤال سقراط بأنها سهلة. يقول بروتاجوراس: إن المصطلحات الخمسة محل النقاش الحكمة، ورجاحة العقل، والشجاعة، والعدل، والتقوى» تشير كلها إلى جوانب الكمال الإنساني، وتشبه أربعة منها طبيعته فإن الشجاعة تختلف كلية عنها أو عن الباقي. ونستطيع أن نرى هنا كم كنت محقًا في القول «إن هناك شجعانًا يتصفون بالجهل» وهي حقيقة كثيرا ما نواجهها في تعاملاتنا مع الآخرين.

- حجة سقراط الذكية

يسارع سقراط في تنفيذ إجابة بروتاجوراس المعدلة. ولئن كان من الصعب متابعة هذا التفنيد للحجة حين سماعه فإن صياغة «أفلاطون» لهذا الرد كتابة قد سمحت للقارئ أن يتفحصه بسهولة ويسر. إذ يشبه تأثير الكتابة إعادة إحدى اللقطات في لعبة رياضية على شريط الفيديو تمكن المشاهد من رؤية براعة اللاعب التي لا يستطيع المشاهد العادي للعبة أن يلاحظها.

يستخلص سقراط مقدمته الأولى من وصف بروتاجوراس المتميز للناس الشجعان بأنهم لديهم القدرة على فعل ما قد يخشاه الآخرون. ونستطيع أن نتفق مع سقراط وبروتاجوراس على تسمية هذه الصفة باسم «الثقة». يحكي **سقراط:**

- **قلت:** «توقف، إن ما قد صرحت به يستحق التفكير. أتقول إن الشجعان يثقون بأنفسهم أم تقصد شيئًا آخر؟»

- **أجاب:** نعم، ولديهم الاستعداد بالقيام بما قد يخشى الآخرون القيام به».

تشير المقدمة الثانية بوضوح شديد إلى أن صفة الكمال الإنساني المميزة أنه يستحق المديح. فإن كان مكونًا من أجزاء ما يعتقد بروتاجوراس، فإن كل جزء من هذه الأجزاء يكون مستحقًا للثناء.

يسأل سقراط: «الآن، أتقول إن الكمال الإنساني شيء مستحق للمديح، وتفضل تعليمه بأنه شيء مستحق للثناء؟».

يجيب بروتاجوارس: «إنه أكثر الأشياء المستحقة للمديح وإلا كنت مخبولًا».

يسأل سقراط: أيكون جزء منه مستحقا للثناء، وجزء آخر منه مستحقًا للخجل، أم أنه كله جدير بالثناء؟

يجيب بروتاجوارس: «بالتأكيد، يستحق كله الثناء وبأقصى درجة ممكنة».

يُشير الموضوع الذي تتم دراسته إلى أن عنصري الحكمة والشجاعة من عناصر الكمال الإنساني منفصلان: ونستطيع أن نجد أناسًا جهلة ويتصفوا بالشجاعة. ولعل ذلك السبب قد حدا بسقراط إلى مناقشة العلاقة بين الحكمة (المعرفة بالكمال الإنساني) والشجاعة فقط.

يستخدم «سقراط» مجموعة من الأمثلة ومن الملاحظات لوضع المقدمة الثالثة التي تتضمن أن «المعرفة» في مجال أو آخر تسبب شعور بعض الناس «بالثقة»، بينما نجد من جهة أخرى أناسًا جهلة ويثقون في أنفسهم.

يسأل سقراط: «أتعرف من لديهم ثقة بأنفسهم ويغوصون في الآبار؟».

يجيب بروتاجوارس: «نعم، أعرف الغواصين».

يسأل سقراط: «هل تكون ثقتهم بأنفسهم بسبب المعرفة التي لديهم أم لسبب آخر؟».

يجيب بروتاجوارس: «بسبب المعرفة التي لديهم».

يسأل سقراط: «ومن تكون لديهم الثقة في القتال من فوق ظهر الحصان الفرسان المدربون أم غير المتدربين؟

يجيب بروتاجوارس: «الفرسان المدربون، ثم أضاف: و«ينطبق ذلك على كل الحالات الأخرى». ويستمر قائلًا: إذا كانت هذه وجهة نظرك فإن من لديهم «معرفة» تكون لديهم ثقة بأنفسهم أكبر ممكن ليست لديهم هذه المعرفة. وتزداد ثقة الناس بأنفسهم بعد حصولهم على المعرفة وليس قبلها».

يسأل سقراط:: «ومع ذلك ترى أناسًا ليست لديهم معرفة بأي شيء من تلك الأشياء، ومع ذلك يثق كل منهم بنفسه».

قال: «نعم رأيت، ولديهم ثقة كبيرة بأنفسهم».

يحق لكل من سقراط وبروتاجوراس اعتبار المعرفة بشيء ما مثل تطهير الآبار، وممارسة الفروسية تولّد الثقة أي تولِّد المعرفة الثقة في القدرة على الغوص الصحيح، والثقة في القدرة على ركوب الخيل والبقاء على ظهر الجواد. كذلك تتولد الثقة أيضًا حين يكون النقص المعرفي كاملًا لدرجة قد تجعل الفرد جاهلًا حتى بجهله. (نلاحظ تجاهل كل من بروتاجوراس وسقراط مستوى الجهل الذي حدده سقراط في محاورة الدفاع أي جاهل يدرك جهله»، ولا يسبب هذا الجهل الشعور بالثقة.

تساعد الرسوم على مزيد من الإدراك لما دار في المحاورة. ويبين الشكل

التالي كيف قسم كل من سقراط وبروتاجوراس من لديهم ثقة في الكمال الإنساني إلى قسمين العاقل والجاهل:

العاقل	الجاهل

يعترف «بروتاجوراس» في المقدمة الرابعة بأن ثقة الجاهل شيء مخجل، لأنها تنم عن عدم رجاحة العقل:

«الآن: أيعد أصحاب هذه الثقة (أي الواثقين الذين يتصفون بالجهل) شجعانًا أيضًا؟

قال: قد يجعل ذلك الشجاعة شيئًا مثيرًا للخجل»، «وذلك طالما أن أمثال هؤلاء الناس مخبولون».

لقد سبق أن اعترف بروتاجوراس بالفعل في المقدمة الثانية من قبل، بأن كل الحكماء- بمن فيهم من الحكماء الواثقين بأنفسهم مستحقون للثناء. يترتب على هذا الاعتراف- أن الثقة عن جهل شيء مخجل- بالتفرقة بين الواثق المستحق للمديح والمثير للخجل- وهي تشبه القسمة «للمقدمة الثالثة بين الواثق العاقل والجاهل. يستحق الواثقون المديح والفخر إذا كانوا عقلاء وبأنهم شائنون في حالة جهلهم. ويبين الشكل المرسوم للتعبير عن المقدمة الرابعة عن هذه القسمة.

الحكيم = المستحق للثناء	الجاهل = المستحق للخجل

فإذا كان الشجعان يثقون في أفعال الكمال الإنساني (المقدمة الأولى) لابد أن تتم الإشارة إليهم في الشكل الخاص بالمقدمة الرابعة. وقد وضعها سقراط في المقدمة الخامسة وأشار إليها.

- قلت «أتصف من إذن بالشجاعة؟ بالتأكيد ليس الواثق؟»

قال «ما زلت أقول بنعم».

الحكيم = المستحق للثناء	الجاهل = المستحق للخجل

- لابد أن يكون الشجاع في موضع ما هنا!

يسأل «سقراط» «بروتاجوراس» السؤال السادس بأن يعترف بأن الشجاع لا يمكن أن يوضع مكانه في المربع غير المظلل.

- أضفت قائلا: «ألم نجد في هذه الحالة الأخيرة (حالة الواثق عن جهل) أن هؤلاء الناس ليسوا شجعانًا ومخبولين على الرغم من ثقتهم؟

اسمحوا لي أن أجيب نيابة عن بروتاجوراس لو وجدنا بالفعل أنه ليس هناك شخص واثق عن جهل ويتصف بالشجاعة. وذلك طالما أن ذلك قد يجعل من «الشجاعة»، التي من الكمال الإنساني شيئًا مخجلًا.

الحكيم = المستحق للثناء	الجاهل = المستحق للخجل

- لا يمكن أن يوجد الشجاع هنا طالما أنه ليس خجلًا.

- لذا يجب أن يوجد الشجاع في موضع ما هنا.

يُفند الشكل الخاص بالمقدمة السادسة دعوى «بروتاجوراس». لن تجد بين الجهلة من يتصف بالشجاعة. كذلك تبين المقدمة السادسة أن الشجاع يجب أن يكون من الحكماء.

حاول سقراط أن يبين بعد تفنيده دعوى «بروتاجوراس» وبيان أن الشجاعة من الحكمة، وحين طرح سؤاله السادس أن يستنتج أن الحكمة من الشجاعة. وقام بهذا الاستنتاج بالعودة إلى مقدمته الأولى بأن الثقة صفة مميزة للشجاعة.

«أليس صحيحًا أن في الحالة السابقة، حيث يكون الأكثر حكمة أكثر ثقة، بأن الأكثر ثقة هم الأكثر شجاعة؟».

بمعني آخر، طالما أن الحكمة من الكمال الإنساني هي «الثقة» في أعمال هذا الكمال يجب أن نتفق على أن «الحكمة» على الأقل جزء من الشجاعة. فمن يكون شجاعًا غير الواثق الحكيم؟

إذا كان قد وضح من الناحية المنطقية أن الشجاعة والحكمة تشكل كل منهما

أجزاء من الأخرى فإنهما لابد أن يشغلا نفس المساحة في المخطط «الرسم» أي لا يكون الشجاع حكيمًا وإنما الشجاع وحده فقط يكون حكيما. ويظهر هذا الاستنتاج واضحًا في الشكل الممثل للمقدمة السابعة.

الحكيم = الشجاع	الجاهل = ليس شجاعًا

فأن تقول إن الشجاعة هي الحكمة يعني أن من يتصف بأي منهما يتصف بالأخرى. إذ تشغل كل منهما نفس المساحة التي تشغلها الأخرى في الرسم. ومع ذلك لا يعني التشارك في المساحة بين من يتصفون بالشجاعة ومن يتصفون بالحكمة ليس كافيًا للتوحيد بين الشجاعة (أي تلك القوة التي تسبب الثقة المستحقة للثناء في أفعال الكمال الإنساني) والحكمة (أي القوة التي تدفع الناس للسلوك بحكمة وعقلانية).

ويُمكن أن ندرس المثل التالي لمعرفة عدم كفاية هذه المشاركة عمومًا للتطابق: يكون لدى أي نوع من أنواع الحيوان قلب إن كان له «كلية». وكما يمكن القول: إن من لديه قلبا لديه «كلية» والعكس. ومع ذلك لا يمكن أن يؤدي هذا التشارك أو يُعد سببا كافيًا للتوحيد بين «القلب» و«الكلية» لذلك يعني القول: إن من لديهم قلب لديهم [illegible]ة أو أن الشجعان حكماء والقلب والكلية (أو الشجاعة والحكمة) لا ينفصلان عن بعضهما، أي أن أي نوع من أنواع الحيوان يكون لأفراده قلب يكون لهم كلية. وبالمثل يعني القول إن الحكمة هي الشجاعة بأن الاسمين يسبران إلى شيء واحد أو نفس الشيء.

لقد بينت للتو أن ارتباط الحكمة بالشجاعة لا يعني تطابقهما أو يشكل أساسًا للتوحيد بينهما. ومع ذلك بمجرد توضيح «سقراط» لعملية ارتباطهما معًا يطلب من «بروتاجوراس» أن يستنتج تطابقهما. ويشكل ذلك محور السؤال الأخير في هذه المحاورة.

وهكذا ألا يترتب على هذا التفسير أن الحكمة شجاعة؟

يشكل الرد بالإيجاب الإجابة الصحيحة لسؤال «سقراط». ويمثل اتفاقهما المسبق على تعريف مسألة «الثقة» المقدمة الأساسية والرئيسية لهذا الاستنتاج

وحين يغوص أصحاب المعرفة الجيدة من الغواصين بثقة «فذلك بسبب ما لديهم من معرفة» ويتفق «بروتاجوراس» ويوافق تمامًا على أن المعرفة تدفع للثقة، أيضًا في كل الحالات والمسائل الأخرى للثقة العاقلة. يترتب على ذلك أن الحكمة (أي المعرفة بالكمال الإنساني) تؤدي للثقة في أعمال الكمال الإنساني، وللشجعان، إلا إذا استطعنا «معرفة» أخرى غير الحكمة يمتلكها كل الشجعان.

ويستمر النقاش دون القول بأن «الشجاعة» هي السبب في وجود «الثقة» لدى الشجعان من الناس. لم تكن هذه المقدمة واضحة أو مشارًا إليها. حقيقة قد وضع كل «بروتاجوراس» وسقراط في محاورة «بروتاجوراس» وفي بدايتها افتراضًا مشابهًا مستترًا يقضي بأن «المقدس» هو ما يجعل الأشياء مقدسة. لقد وضعا مثل هذا الافتراض باعتباره جزءًا من حوار أوسع حين اتفقا على أن «المقدس» يكون مقدسًا. وذلك على أساس أن «المقدس» موجود أو شيء قائم. ولا يمكن وصف شيء بأنه مقدس إن لم يكن «المقدس» نفسه موجودًا وتوجد في محاورة «فيدون» عبارات مشابهة تتعلق بالسبب «فالجمال» يكون السبب في أن تبدو الأشياء جميلة، والاتساع السبب في وصف الأشياء بأنها واسعة، وتُعد الحرارة السبب في وصف الأشياء بأنها ساخنة، وتسمى عبارات صحيحة أو موثوقًا بها، ولكنها لا تشكل معرفة. ويعني ذلك أن مثل هذه العبارات تشبه الأشياء التي توضح بذاتها- أي تؤكد وجود «الجمال»، والاتساع، والحرارة، تتعلق بالأشياء التي لا نحتاج إلى «معرفة» كي نعرفها.

يترتب على ذلك أن «الحكمة» و«الشجاعة» نفس الشيء، أي أن الحكمة هي الشجاعة وذلك طالما أنهما نفس الدور السببي. أيعد من الصواب الاستدلال على التطابق من الدور العليّ نفسه؟ لندرس العينة التي يتناقش بها القائمون بتحليل موقع ارتكاب الجريمة:

يُعد مرتكب الجريمة السبب في ارتكاب الجريمة وفي وجود الدليل (إصبع، خصلة من الشعر، أو أي شيء آخر).

لنقل إن «هوراشيو» السبب في وجود هذا الدليل.

إذن «هوراشيو» هو الفاعل.

يُعد هذا الانتقال من السبب إلى الهوية أو التطابق أمرًا صحيحًا حتى إنه من النادر عدم الإشارة إليه أثناء حديثنا الإنساني الطبيعي.

يُفنّد سقراط في حواره دعوى بروتاجوس، وأكد على تطابق الشجاعة والحكمة. الحوار دقيق ومعقد. وأعتقد أنه من أصعب الحوارات التي قدمها هذا الكتاب. ويمكن مقارنته مثلًا ببرهنة سقراط التي لا تقل غرابة على أن الحظ هو الحكمة، ووصفه لها بأنها بسيطة. ويعتمد في هذا الحوار أيضا على أن الانتقال من السبب إلى الهوية أو التطابق، وإن كان قد استنتجه هذه المرة من طفل وفرد عامين. كان سقراط محقًا في اختبار بروتاجوراس بمثل هذه الحجة الصعبة. وذلك طالما أن «بروتاجوراس» ليس طفلًا أو فردًا عاديًا. وإنما يزعم نفسه عارفًا بالكمال الإنساني ومشهورًا بأنه أحكم الناس. لقد دعى سقراط بروتاجوراس بعد أن استخلص منه المقدمات الضرورية إلى رؤية التطابق بين الحكمة والشجاعة باعتباره نتيجة لهذه المقدمات التي تم الاتفاق عليها. وكانت هذه الدعوة اختبارًا لحكمة بروتاجوراس.

ردود بروتاجوراس:

لم يوافق بروتاجوراس على أحكام سقراط الأخيرة، وقد أضاف رفضه نكهة للحوار ومثل تحديات للقارئ. اتهم سقراط بالاستخدام الخاطئ للمقدمات التي تم الاتفاق عليها «والتفكير فيها بطريقة خاطئة». وبين بروتاجوراس أثناء توضيحه لهذا الاستعمال الخاطئ مجموعة من النقاط الصحيحة بالنسبة للمناقشة.

النقطة الأولي: «حين سألتني ما إذا كانت الشجاعة هي الثقة، وإقراري بذلك: لم تسألني ما إذا كانت الثقة شجاعة. وإذا ما كانت قد سألتني هذا السؤال لأجبت «ليس على الإطلاق».

كانت تذكرة بروتاجوراس لسقراط «بالمقدمة الأولى» صحية تمام. ويجب أن

نؤيد قوله أيضًا بأن «الواثق ليس شجاعًا بأنه صحيح تمامًا.

النقطة الثانية: لم تبيّن حين تحدثت عن «الشجعان»- الطريقة التي لا يكونون بها واثقين من أنفسهم- أنني كنت مخطئا من الموافقة.

لقد وافق بروتاجوراس بأن الشجاع ليس واثقًا. وكان محقًا بالطبع في موافقته. وإذا ما فسرنا قول بروتاجوراس بالإشارة إلى هذا الاتفاق المسبق، فإننا يجب أن نؤيد هذه النقطة أيضا، يضيف بروتاجوراس:

«إذن تُبين أن هؤلاء الناس أنفسهم يكونون أكثر ثقة بعد حصولهم على مزيد من المعرفة. ويصبحون أكثر دقة من الذين تنقصهم مثل هذه المعرفة. وذلك على أساس أن الشجاعة والحكمة نفس الشيء».

بسترجع بروتاجوراس مرة ثانية جزءًا من الحجة (التي يقيم عليها سقراط مقدمته الثالثة) والنتيجة التي حاول سقراط استخلاصها.

يفسّر بروتاجوراس بعد توضيح هذه النقاط، لماذا قال إن سقراط قد قال بحجة خاطئة. وبيّن أن حجة سقراط تبدأ بنفس الصورة الخاطئة التي يتم بها إثبات أن القوة البدنية حكمة.

«ويمكن أن نستنتج باستخدام نفس الطريقة في التفكير أن القوة البدنية حكمة! ويمكن أن تسألني إذا ما استخدمنا هذه الطريقة في التفكير عما إذا كان القوي بدنيًا إنسانا قويًا، وأجيب في هذه الحالة بنعم، ثم تسألني بعد ذلك عما إذا كان العارفون بفن المصارعة أكثر قوة من الذين لا يعرفون هذا الفن، وعما إذا كان هؤلاء الناس أنفسهم أكثر ثقة بعد تعلمهم هذا الفن. باختصار تسألني عما إذا كان الحكيم قويًا، وأجيب في هذه الحالة بالإيجاب. وربما بعد اعترافي بهذه النقاط وتلك المسائل وباستخدام نفس طريقة الاستدلال أن نستنتج من اعترافاتي أن الحكمة هي القوة البدنية.

يحكم بروتاجوراس في هذه الفقرة، وكان حكمه صحيحًا ببطلان طريقة معينة في التفكر. وتتمثل المقدمتان اللتان استندت عليهما هذه الطريقة الخاطئة والحجة الباطلة فيما يلي:

1 - القوي بدنيًا يكون قادرًا.

2 - الحكيم إنسان قوي.

كما يبرهن بروتاجوراس وكان معيبًا على أن المقدمتين السابقتين (رقم (1) ورقم (2» لا تثبتان أو تؤديان إلى النتيجة المتناقضة القائلة بأن «الحكمة هي القوة البدنية».

وربما يحق لبروتاجوراس أن يعترف بالمقدمتين رقم (1) ورقم (2) ويظل رافضا للنتيجة المتناقضة وغير المنطقية. إذ يُعد من الصواب قوله بأن:

«القدرة والقوة البدنية ليستا نفس الشيء. إذ تتأتى القدرة من الحكمة أو من الجنون أو من العاطفة. بينما تتأتى القوة البدنية من طبيعة تكوين الجسد والتدريب».

كذلك حدد بروتاجوراس بصورة صحيحة المقدمة الناقصة التي نحتاجها للتدليل على تناقض النتيجة:

الحكيم يكون قادرًا.

القادر يكون قويًا بدنيًا.

لذا الحكيم يكون قويًا بدنيًا.

ويرى بروتاجوراس، على الرغم من صحة هذه الحجة، فإن المقدمة الثانية باطلة: «أعترف، ولن أعترف بأن القادر يكون قويًا بدنيًا، «إنما أعترف فقط بأن القوي بدنيا يكون قادرًا».

ويُعد تأكيد بروتاجوراس ببطلان القول بأن الحكمة هي القوى البدنية شبيهًا بقول سقراط بأن الحكمة هي الشجاعة.

«يشبه حجتك بأن الثقة والشجاعة ليستا نفس الشيء، واستنتاج أن الشجاع يكون واثقًا وليس كل واثق شجاعًا. إذ تتأتى الثقة مثل القدرة إلى الناس من المعرفة أو من الجنون أو من العاطفة والانفعال، بينما تتأتى الشجاعة من طبيعة النفس وتدريبها.

ويفسر التوازي المزعوم بين الحجتين، لماذا اتهم بروتاجوراس سقراط بالاستخدام

الخاطئ للمقدمات التي تم الاتفاق عليها «والربط المنطقي بينها بصورة خاطئة».

يبدو أن النقد الذي وجهه بروتاجوراس كانت له الغلبة. ولم يدافع أي من الحاضرين أو حتى سقراط عن الحجة التي قد قال بها. وليس من الصعب إدراك هذا الموقف من الحاضرين أو أي ممن سمع بهذا النقد. إذ من الصعب إدراك هذا الموقف من الحاضرين أو أي ممن سمع بهذا النقد. إذ من الصعب تتبع حجة سقراط لمن يستمع إليها ولا يقرأها. حين كتب «أفلاطون» الحجتين اللتين يتم الزعم بتوازيهما يمكن للقارئ فحص هذا التوازي المزعوم الذي لم يتمكن المستمع إليه من فحصه. وإذا ما وضعنا الحجتين جنبًا إلى جنب كما في الشكل التالي تسهل ملاحظة عدم التطابق بينهما.

حجة سقراط	التوازي الذي يزعمه بروتاجواس
1 - الشجعان واثقون.	يُعد الأقوياء بدنيا ذو قدرة.
2 - الكمال (كله، ومتضمنا الشجاعة والحكمة) يستحق التبجيل	
3 - يكون أصحاب الجرف (مثلا، الغواصون) واثقين في عملهم بسبب ما لديهم من معرفة.	
4 - يكون أصحاب المعرفة بمجال فنونهم أكثر ثقة حين يعلمون من الذين ليس لديهم معرفة، وتزداد الثقة بعد عملية حصولهم على المعرفة عنها قبل حصولهم عليها.	تكون من لديه معرفة مباشرة بالموضوع أكثر قدرة حين يعلمون. كما تزداد قدراتهم بعد عملية حصولهم على المعرفة عنها قبل الحصول عليها.
5 - يثق بعض الجهلة بأنفسهم.	

6 - لا يكون الجاهل الواثق شجاعًا	
7 - يكون الحكيم الواثق شجاعًا	
8 - لذا الشجاعة حكمة.	الحكمة قوة بدنية

- يلاحظ في الجدول السابق أن بروتاجوارس لم يضع أي مقدمات تطابق المقدمات رقم 2، 3، 5، 6، 7، التي قد وردت في حجة سقراط.

يمكن أن نساعد بروتاجوراس بأن نمده ببعض المقدمات الناقصة لتحقيق عملية التطابق. نستطيع مشابهة مقدمة سقراط الثالثة بأننا قد نتفق على أن من لديهم معرفة أثناء قيامهم بالفعل (المصارعين مثلا) يكونون أكثر قوة بسبب معرفتهم. ويمكن أن نحقق المشابهة مع مقدمة سقراط الخامسة بالموافقة على أن بعض الجهلة أقوياء، فإنه من الصعب تقديم كل المقدمات الناقصة ومعالجة كل الجوانب التي يستحيل التطابق بها. يمكن أن نرافق على ما ورد في القاعدة السادسة على أنه ليس هناك أناس جهلة يتصفون بالشجاعة. إذ قال بروتاجوراس: إن الجاهل الواثق يثير الخجل ويتصف بالخبل ومع ذلك لا نستطيع الموافقة على العبارة الموازية القائلة بأنه لا يوجد أناس أصحاب قدرة وجهلة ويتصفون بالقوة. فلقد وضّح «بروتاجوراس» نفسه أنه لا يتم اكتساب القدرة من المعرفة بالضرورة وإنما يمكن أن يتم اكتسابها «أيضا من الجنون أو العاطفة» عند الشخص الجاهل.

لقد حدث عدم التطابق بالنسبة للقاعدة السادسة بسبب عدم التطابق الوارد في القاعدة الثانية. قد نتفق جميعا على أن الكمال (متضمن الشجاعة والحكمة). ومع ذلك قد لا نوافق على العبارة الموازية القائلة بأن كل قوة بدنية تستحق التقدير والتبجيل. لا يوجد بالفعل ما يستوجب تقدير القوة البدنية إلا إذا تم استخدامها بحكمة. وإذا ما تم استعمالها بحماقة فإنها لا تستحق التقدير، وتدل على عدم رجاحة العقل وتثير الخجل.

بينت في الفقرات السابقة براعة سقراط في وضع المقدمات الآمنة التي

يحتاجها لتفنيد دعوى بروتاجوراس، تستطيع أن تجد أناسًا جهلة شجعانًا، وتأسيس دعواه «بأن الشجاعة حكمة». كان «بروتاجوراس» مخطئًا في مقولته «عن اختلاف الشجاعة عن الحكمة» وفي وصفه حجة سقراط «بأنها مثيرة للخجل». لم يقدر بروتاجوراس روعة حجة سقراط، ووضع حجته متعسفة ومنفرة في مقابلها. ظل بروتاجوراس غير مدرك للتطابق القائم بين «الحكمة والشجاعة» وغير قادر على فهم التفسير الصحيح للموضوع. تحدث بثقة شديدة في حواره أولا في حديثه العظيم ثم وصفه حجة سقراط بأنها مخجلة. ولئن يبدو بروتاجوراس حكيما أمام نفسه وأمام مستمعيه وللقراء حتى يومنا هذا أن عباراته نفسها تدينه. فليست حجة سقراط التي تثير الخجل وإنما ثقة بروتاجوراس بنفسه عن جهل وعدم رجاحة عقله.

لم يكن سقراط مثل بروتاجوراس يتظاهر بأنه معلم للكمال الإنساني. وإنما طلب من بروتاجوراس معاونته في البحث، وأن الموضوع أثار حيرته. وعلى الرغم من أن حجة سقراط تنم عن عبقرية فإن مقدماتها كانت عادية (النقاط السبع في الجدول السابق). لا تحتاج إلى معرفة خاصة أو متخصصة للحكم على صحتها. لم يتخذ سقراط من قدرته على معرفة مثل هذه الحقائق دليلًا على معرفته بالكمال بالإنساني. ولم يدر بالإهمال الذي أدين به بروتاجوراس.

ذهلت من حجة سقراط. حاول بأسلوب أرستقراطي الدفاع عن حجته أمام هجوم بروتاجوراس. وحين يشعر إنسان أنه قد أسيء فهمه فإنه من غير المألوف الا يحاول وسط لهيب النقاش أن يبين للمستمع أنه قد عجز عن فهم مقصده. كذلك لم يحاول سقراط بعد انتهاء الحوار، وسرده ما حدث فيه لصديقه أن يوضح مدى وجاهة حجته التي لم يتم تقديرها. الأمر الذي يثبت مرة أخرى أنه إنسان غير عادي ومتميز. لقد أدرك سقراط بالفعل في الثلاثينيات من عمره «موقفه من رأي الأغلبية، وعبّر عن هذا الرأي في محاورة «كريتو» في نهاية حياته حين تحدث «عن لماذا يجب أن نهتم برأي الأغلبية؟ إذ يعتقد سقراط أن معظم أصحاب الشأن الذين يستمعون الاعتبار تكون لديهم فكرة صحيحة ودقيقة عن مسلكنا».

لا يفيد كثيرًا أن نحاول التأكيد بشدة على حجة قوية وواضحة حتى نقنع بها لفيفًا من الشكاك وربما العجزة. ينتقل سقراط للحديث عن مشكلة التربية دون شكوى أو تذمر أو تعليق على عدم فهم حجته. يتوجه إلى «بروتاجوراس» بالسؤال التالي: «بروتاجوراس: هل تتحدث عن من يحيون حياة رغدة ومن يحيون حياة بائسة؟» يثبت سقراط في مناقشته التالية أنه تربوي ممتاز وناجح. وتبرهن هذه المناقشة على قدرة بروتاجوراس والمستمعين على تتبع الحجة الأخيرة في المناقشة.

الفصل الخامس

سقراط ودعواه الجريئة

دعوى سقراط الجريئة

على الرغم من تأكيده على روعة الأداء الموسيقى للجنيَّات، فإنه يبين أهمية المعرفة بأفضل طريقة للفعل، وكيف تتنحي هذه المعرفة جانبا في بعض الأحيان وتتخلى عن دورها لصالح أحد جوانب النفس الأخرى. يبدأ سقراط حجته الأخيرة في محاورة بروتاجوراس بتذكرة مستمعيه بالفكرة الشائعة عن أهمية المعرفة.

«لا يرى معظم الناس أن تتصف بالقوة، ولدى أصحابها القدرة على التوجيه والسيطرة. ويعتقدون أنها ليست شيئًا من هذا القبيل، ويفترضون أن الغلبة والسيطرة تكونانا دائما لشيء آخر غيرها كالقيم العليا مثلا أو اللذة أو الألم أو اللذة الجنسية أو الخوف في معظم الأحيان. ويرون ببساطة أن المعرفة كالعبد يتحكم بها شيء آخر غيرها.

يذكر «أفلاطون» حقيقتين في الكتاب الرابع مع الجمهورية يؤيد بها النظرة الشائعة والعامة.

الحقيقة الأولى: لا توجد الرغبة إلا بالنسبة للموضوع الذي قد يشبهها تمامًا كما نرغب الشرب لإشباع حالة العطش، ونتناول الطعام لإشباع رغبة الجوع. والحقيقة الثانية: تجد الروح نفسها مسوقة تجاه الموضوعات التي ترغبها. وتشبه الأشياء المسببة للكراهية أو المكروهة الأشياء المرغوبة فيها، أي تكون لها موضوعاتها الخاصة بها فإنها تدفع الروح بعيدًا عن الموضوعات بدلًا من الانجذاب نحوها وتفسر هاتان الحقيقتان شعورنا بالحيرة بين الرغبات المتعارضة. وتقول وجهة

النظر الشائعة إن المعرفة وحدها لا تكفي لإنقاذ الإنسان من الاختيارات الخطرة والمدمرة. إذ تتغلب الرغبة القوية على المعرفة كما حدث في رغبة «أوديسيوس» في سماع صوت الجّنيَّات. ولعل ذلك السبب في القول الشائع بأن روح الكمال تحتاج بالإضافة لحاجتها للمعرفة إلى شخصية قوية صلبة.

تبين الأسئلة التي وجهها سقراط «لبروتاجوراس» عدم قبولهما للفكرة العامة «أرجو يا بروتاجوراس أن نفكر معًا فيما إذا كانت المعرفة شيئًا نبيلًا وقادرًا على السيطرة على الإنسان، ولن يستسلم من يعرف معنى الخير ومعنى الشر لأي شيء آخر بأن يتحكم به ولن يفعل إلا ما تأمر المعرفة به. ولا يحتاج البشر لخلاصهم إلا للحكمة العملية».

ويجيب بروتاجوراس: « إن نظرتي تتفق تمامًا مع ما تقول به. وقد يكون الأمر مشينًا القول بأن المعرفة والحكمة لا تمثلان أهم القيم الإنسانية العظمى».

قلت «لقد نطقت بالحق»

يعترف الاثنان بأن البشر تفسد حياتهم حين ينقادون لخبرة اللذة والألم، فإن «سقراط» يقول بثقة شديدة: «إذا ما تعلم الناس هذه الخبرة ومعناها أي ما يسمى معرفة، فإنهم لا يفعلون أنسب الأفعال بسبب تأثرهم باللذة» تقول تعاليم سقراط للعالم إن معرفة «أوديسيوس» بالخبرة أي خبرته بسماع صوت الجنيَّات ليست معرفة مهمة، وإنما نوع من الجهل البسيط. يرى «سقراط» أن البشر يحتاجون فقط لأن تكون لديهم القدرة على المقارنة بين القيم المختلفة للأشياء طالما أنها تسهم في تحقيق روح الكمال الذي لا يحتاج لأي شيء آخر.

سقراط ومثل الكنز

يقول سقراط:

«تشبه مملكة السماء كنزًا مخفيًا في حقل. ثم وجده إنسان وقام بإخفائه مرة أخرى. ثم ذهب وباع كل ما يمتلك واشترى بالثمن هذا الحقل».

يؤكد المثل على قيمة الربح. يُعد قرار مكتشف الكنز ببيع قطعة من الأرض قيمتها «تالينت» واحد للحصول على المال لشراء كنز يساوي ألف تالينت. ولا يحتاج اتخاذ هذا القرار إلا لعملية حسابية بسيطة. ويصف خبرة الرجل في هذه الحالة بأنها خالية من أي صراع نفسي ومجرد خبرة ممتعة فقط. إذ إن القار لا يتضمن إلا القيام بعملية استبدال مبلغ كبير بآخر صغير.

يقول مثل الكنز إنه لا يوجد صراع ولا يشعر كل من لديه القدرة على الحساب إلا بالاستمتاع حين تحيا أن تحيا حياة تقية وطيبة. فهل هذا الاختيار بين الحياة الأفضل والأسوأ اختيار صحيح؟ قد يُفترض بأن حياة رجل الأعمال ليست الحياة الطيبة أو الحقيقية. ولا يوجد إنسان لا تكون رغباته ومخاوفة ولذاته وآلامه إلا أمورًا يتم تقييمها بالمال. إذ يجب أن يبيع مكتشف الكنز في هذه الحالة كل ممتلكاته الأخرى والمنزل الذي يعيش به بكل ما يحمله من ذكريات له. فربما قد تربى يلعب تحت هذه الشجرة، وتزوج في هذه الغرفة، وراقب أطفاله يلعبون في هذا الفناء، ودفن والديه في هذا الحقل. لا يمكن لإنسان عادي ألا يندم أو يحزن لبيع هذا المكان! ولا يوجد إنسان يُقدر كل شيء في حياته لمنطق الربح والخسارة.

يمكن أن يأخذ الاعتراض صورتين: الأولى ربما نرغب في أشياء أخرى غير الحياة السماوية، لأنه ليس هناك في الحقيقة أي قيم سماوية وغير سماوية في الحياة. ولا يمكن اتخاذ موقف تجاه هذه القيم ولا يمكن الفصل فيها، أي لا يمكن قياسها بمنطق الأفضل والأسوأ بنفس الطريقة التي يحكم بها رجل الأعمال على الصفقات التجارية. ويخطئ «أوغسطين» وفق هذا الاعتراض في وصفه اللذة الجنسية المكروهة بأنها تافهة، أي لا تساوي إلا قدرًا ضئيلًا من الحياة السماوية. إذ تأتي المسألة على خلاف ذلك تمامًا وتكون لهذه اللذة قيمة مختلفة تمامًا عن الحياة السماوية، وليست مجرد قدر ضئيل من هذه الحياة.

وتبين الصورة الثانية للاعتراض أنه على افتراض وجود معيار واحد للتمييز بين الأفضل والأسوأ في الحياة الإنسانية فإن نفس الإنسانية، تضم رغبات بهيمية

تجاه أشياء أخرى بجانب الحياة الإنسانية الطيبة. وتتصارع هذه الرغبات في داخل النفس. وربما يكون «أوغسطين» في هذه الصورة للاعتراض محقًا في أن الرغبات الجنسية الكريهة تكون نسبتها محدودة جدًا مقارنة بالحياة السماوية. ومع ذلك لم يجعل هذا الفرق اللا متناهي في العنصر من نفي القيمة من السهل عليه تجنب الجنس الذي لديه رغبة بهيمية فيه بغض النظر عن قيمته.

نعرض بعد تقديمنا لآراء سقراط حول قواعد المعرفة في فقرتين منفصلتين صورتي الاعتراض، أي اعتراض المسائل صعبة الحسم، واعتراض الرغبة البهيمية. وأحاول أن أقدم تفسيرًا لماذا كانت عملية الاختيار بين الذي يبدو لا متناهيا في الصغر والحياة السماوية اللامتناهية في القدر سببًا في عذاب «أوغسطين».

كيف علّم سقراط العالم

تبين الخطوة الأولى من تعاليم سقراط للعالم أن الناس لذيُّون (يبحثون عن اللذة) أي أن اللذة والألم يشكلان مدار كل القيم السائدة. ووضح سقراط حصوله على موافقة الناس على أن الخير والشر ليسا إلا اللذة والألم، أنه قادر على إثبات تناقض القول بأهمية المعرفة. وفي ذلك يقول سقراط صراحة:

«يختفي التناقض إذا ابتعدنا عن استخدام مجموعة من المصطلحات دفعة واضحة مثل اللذة، الألم، الخير، الشر. ثم بالقول باللذة والألم فيما بعد».

لا تحتاج مناقشة مسألة الأهمية الخاصة بالمذهب اللذي. أنها تحتاج فقط لمقدمة لا تثير خلافًا كبيرًا مثل؛ أن الخير من عناصر إيجابية بينما يتكون الشر من عناصر سلبية. ويبدأ سقراط في تحديد هدفه بأنه يرغب في تقليل درجة التناقض. وفي ذلك يقول سقراط صراحة:

«لنفترض أن الإنسان ربما يفعل شيئًا على الرغم من معرفته له بأن سيئ».

يستنتج سقراط تناقض مرمى القول من تفسيره التقليدي كما يلي:

«لنفترض أن سائلًا سألنا» لماذا يفعل أشياءً سيئة؟

نجيبه «لأنه مغلوب على أمره».

يسأل السائل: «بماذا؟».

لن نستطيع أن نجيبه في هذه الحالة بأنها اللذة، لأن هذه اللذة قد تغيّر اسمها بالخير يفترض سقراط حتى هذه المرحلة من المناقشة أن الخير ليس إلا اللذة. اسمحوا لي أن أبتعد عن هذا الافتراض من أجل مَنْ لا ينتمون لمذهب اللذة. ولنفترض فقط أن الخير يتكون من بعض العناصر أو من عنصر إيجابي ربما قد يشمل اللذة. وحين نُسأل في هذه الحالة من قبل السائل بماذا؟ نستطيع أن نجيب

بأن الذي قد يؤثر عليه ليس عنصرًا إيجابيا (سواء كانت اللذة أم أي شيء آخر). فلقد تغير اسم العنصر الإيجابي وبات اسمه «الخير».

لذا يجب أن نجيبه بعبارة واحدة فقط «لأنه مغلوب على أمره».

يسأل السائل «بماذا؟».

يجيب أن نجيب «بالخير».

«إذا كان السائل سليط اللسان قد يضحك قائلًا: ما هذا الكلام المتناقض، يقوم الإنسان بفعل الأشياء السيئة، على الرغم من علمه بأنها سيئة، ويجب عليه ألا يفعلها، لأن مفروض عليه فعل الخير».

لن أفترض مثلًا أن رجل المال يرفض مقايضة الحقل الذي به الكنز بمقولته الأخرى. ويعلم أن عدم المقايضة يحرمه من الغنى. قد يكون من التناقض أن نفسر رفضه بأن القيمة المالية لحقوله قد فرضت عليه هذا القرار بعدم المقايضة.

يقوم السائل سليط اللسان بتوسيع التناقض في الموقف بين الطرفين المتقابلين.

«يسأل: أتعبر هذه الحالة عن أن الأشياء الطيبة لا تستحق منه التغلب على الأمور السيئة أم لأنها تستحق منه القيام بذلك؟».

ويستبعد سقراط على الفور البديل الثاني ويقول:

«يجب أن نجيب بوضوح «لأنها لا تساويه» وإلا كان من نعتبره محكومًا برغباته ولذاته لم يكن مخطئًا».

إذا كانت الحقول التي يمتلكها قيمتها مساوية للحقل الذي به الكنز أو قيمتها أعلى منه، فإن رفضه استبدال الحقل بها الذي به الكنز بها لن يكون فعلًا خاطئا. ولم تعد هذه الحالة متعلقةً بالمعرفة الناقصة وإنما بالمعرفة الوظيفية!

نجد أنفسنا في هذه الحالة نتجه إلى الأخذ بالطرف الأول، أي يجب أن تكون الحالة متعلقة بأن تجعل قيمة الحقول أقل من الحقل الذي به الكنز.

«ومع ذلك ربما يسألنا: هل الأشياء الطيبة أقل قيمة من السيئة أم أن السيئة أقل قيمة من الأشياء الطيبة؟ ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كان أحدهما أكبر

والثاني أقل أو أن أحد الجوانب يضم عناصر أكثر والآخر يضم عناصر أقل. ولن نجد لدينا سببًا نبرر به ذلك».

«قد يقول السائل سليط اللسان: «لذا من الواضح بأنك تعنى بأنه مغلوب علي أمره، قبول شر أكبر في مقابل خير أقل». ويجب أن نتفق على ذلك.

وليس ذلك إلا التناقض بعينه: يرفض الرجل الذي لا يهتم إلا بتعظيم مقدار ربحه استبدال الحقل الذي به الكنز بحقوله الأخرى، على الرغم من معرفته بأن ذلك يحرمه من الغنى، وبسبب معرفته بالتحديد أنه يتصل بخسارة مالية كبيرة لكي يحقق مكسبًا ماليا ضئيلا. يشبه الأمر كما لو كنت أعرض عليك أن تمنحني دولارًا مقابل كل عشرة دولارات أعطيها لك. وأقول إنني أقبل هذه المقايضة بسبب رغبتي في جمع المال. وأعلم تمامًا أنني أخسر هذا المال في هذه المقايضة. أليس ذلك منتهى التناقض.

سقراط يؤكد على التناقض

يستمر سقراط في محاولة إثبات تناقض القول بنقص المعرفة أو عجزها على الرغم من إثباته السابق لتناقض مثل هذا القول، ولكنه يعتمد هذه المرة في إثبات التناقض على حالة اللذة والألم. ولقد أثارت هذه المحاولة لدى كثير من الناس ما يسمى باعتراض اللذة البهيمية يقول سقراط: دعونا ننتقل الآن إلى إطلاق اسمي اللذة والألم على مثل هذه الأشياء السابقة، وأن نقول إن هذا الرجل يفعل- الأشياء التي وصفناها من قبل بالسوء ونصفها الآن بأنها مؤلمة- ويعلم أنها مؤلمة لأنه مدمن للأشياء المبهجة، وتتحكم فيه على الرغم من أنها تافهة ولا قيمة لها ولا تستحق كل هذا الاهتمام».

لن تؤثر هذه المحاولة الثانية على مسألة استبدال العوامل الموجبة والسالبة باللذة والألم. ويُعيد سقراط طرح السؤال البلاغي الذي أثاره من قبل بعد استبداله لفظي اللذة والألم بلفظي الطيب والسيئ، أي متى يكون الرجل محكومًا باللذة؟ «ألا تستحق اللذة أن نُعلي من شأنها أو قيمتها إلا إذا فاقت الألم أو قلت عنه؟

وتتعلم تلك المسألة بأن يكون أحدهما أوسع والثاني أصغر أو يكون أحدهما أعلى قيمة والآخر أدنى قيمة أو يكون أحدهما أكثر والثاني أقل»

لا تعد إجابة السؤال البلاغي الذي طرحة سقراط محلًا للنقاش. تتمثل الطريقة الوحيدة لعدم المساواة بين العامل الإيجابي والعامل السلبي في أن «أحدهما قد يفوق الآخر أو يقل عنه» وتتعلق تلك المسألة بأن أحدهما يكون أوسع والثاني أصغر أو أحدها يكون أكبر والثاني أقل حجمًا أو أحدهما أعظم شأنا والثاني أقل شأنًا. ويتمثل التناقض مثلًا في أن الذي يختار الأقل لذة لأنه أقل لذة!

يدرس «سقراط» بعد ذلك الاعتراض المتعلق بالدور الذي يؤثر به الزمن على تقدير العوامل الإيجابية والسلبية. يُسأل سقراط: «لكن يا سقراط يوجد فرق كبير بين اللذة التي تحدث الآن وتلك التي تحدث في وقت متأخر أو فيما بعد في المستقبل». وقد ركز سقراط على نفس هذه النقطة حين رد على الاعتراض المتعلق بالزمن فقال سقراط مجيباً:

«أتختلف هذه العناصر في أي شيء آخر غير اللذة والألم؟ إذا لم يكن هناك شيء آخر، فعليك أن تضع- كما يفعل كل من يجيد وزن الأشياء وتقديرها- في اعتبارك حين قياس اللذة والألم البعد والقرب، ويحدد أيهما يتم الاعتماد عليه من الآخر». يبدو أن النقد الذي وجهه بروتاجوراس كانت له الغلبة. اتهم بروتاجوراس سقراط بالاستخدام الخاطئ للمقدمات التي تم الاتفاق عليها «والرد المنطقي يؤكده سقراط في إجابته عن سؤاله البلاغي أو الافتراض على أن الطريقة الوحيدة في عدم تساوي العنصر الإيجابي مع العنصر السلبي أن أحدهما قد يفوق الآخر أو يدنو عنه. وتبين هذه الإجابة مدى تناقض وجهة النظر العامة أو الشائعة. فإذا ما فاق الإيجابي السلبي يكون الاختيار واضحًا. فقد تم اختيار الكنز المدفون للحياة السماوية بمتعة وليست هناك معاناة لأي صراع نفسي أو الشعور به.

«تختار دائمًا الأمتع إذا ما وازنت بين مجموعة من الأشياء السارة. بينما تختار الأقل ألمًا إذا ما وازنت بين مجموعة من الأشياء المؤلمة. وإذا قارنت بين اللذة

والألم، وجدت أن السار يفوق المؤلم- سواء طالت فترة التعاقب أو قلت بينهما- فإنك تختار ما يحقق لك أفضل المتع. وإذا ما وجدت أن الألم يفوق اللذة فإنك لن تختاره. أتوجه الآن بالسؤال للناس»، أيمكن أن يختلف الأمر عن ذلك؟ «وأعلم تمامًا أنهم لن يقبلوا بغير ذلك».

الاعتراض الخاص بالرغبة البهيمية

لم يتناول سقراط في مناقشته مع بروتاجوراس الحقيقتين اللتين عرضهما أفلاطون في الكتاب الرابع من الجمهورية. واعتمد عليهما لتأسيس وجهة نظرة العامة عن عجز المعرفة وأنها لا قوة لها. واسمحوا لي بأن اختم هذا الفصل بدراسة هاتين الحقيقتين باعتبارهما تشكلان اعتراضًا على سقراط.. أولاً: يُعد «الجوع» حقيقة، مجرد رغبة في تناول الطعام وليس رغبة فيه بوصفه عاملاً إيجابيًا. ثانيًا تجد النفس نفسها حقيقة منساقة تجاه الموضوعات التي ترغبها. ويبدو واضحًا وفقًا لهاتين الحقيقتين أن الجوع الشديد في حد ذاته يجعل النفس تنساق تجاه الطعام، وأن الرغبة إذا ما كانت قوية تتغلب على القدرة الفعلية على حساب العوامل الإيجابية والسلبية.

ينهار الاعتراض بسبب الخلط بين الجوع بمعنى عام (الأعمى أو غير المحدد الاتجاه) والجوع المعرفي. يوضح مثل الماشية المحرمة هذا الخلط. تتمثل الحقيقة الأولى في أن الطاقم الذي يواجه الموت على الجزيرة كان أفراده يشعرون بالجوع الذي يعد في حد ذاته مجرد الرغبة في الطعام أو الأكل. ومع ذلك من الملاحظ أنه لا يوجد شيء يسمى طعامًا على الجزيرة. ليست الماشية مثلاً مجرد طعام فقط وإنما تعد أيضًا لحمًا، ومملوكة للآلهة، ومحرمة، وتتصف بصفات أخرى. كذلك ليس أفراد الطاقم مجرد طعام وإنما يعدون أيضًا أجسامًا إنسانية. ورفاقًا، وأشياء أخرى. وليس جسد الفرد الموجود فوق الجزيرة طعامًا أيضًا، وإنما أذرع وأرجل، حاجة للحياة، وأشياء أخرى. لا يُعد شعور أفراد الطاقم بالجوع مجرد رغبة عمياء في الماشية فقط، وليس في رفاقهم أو حتى في

أجسادهم نفسها أو في أي نوع من أنواع الطعام الأخرى التي قد توجد فوق الجزيرة. لا يُعتبر الجوع بوصفه مجرد رغبة عمياء مجرد رغبة في الطعام فقط وليس في أي شيء آخر. «وإذا أوهم شيء ما الطاقم للاعتقاد مثلاً» في أن الطين الكائن فوق الجزيرة كان لحمًا، لقام الأفراد كما يأكلون الماشية. باختصار لا تتجه الرغبات العمياء لشيء محدد. ولذلك لا تستطيع الرغبة العمياء في الجوع أن تجعل الطاقم يتجه إلى الماشية فقط ولا تجعل أفراده يتجهون لبعضهم أو لأجسادهم أو حتى لتناول الطين.

يوجد نوع آخر من الجوع أو من الرغبة مقارنة بهذه الرغبة أو الدافع الأعمى. يقوم بجذب الأفراد أو دفعهم تجاه موضوع محدد على الجزيرة. تشير الحقيقة الثانية التي وراء الاعتراض إلى هذا النوع من الرغبات أو إلى ما يسمى بالرغبة في الإدراك. تتجاوز هذه الرغبة العمياء بخطوتين أو بمرحلتين: مرحلة الإدراك ومرحلة الحكم. أولاً: يحتاج الطاقم لإدراك الموضوع المعين. والثاني: يحتاج إلى الحكم بأن هذا الموضوع المعين صالح للأكل، أي أنه شيء مفيد للقضاء على الشعور بالجوع. لذلك الرغبة المعرفية لمثل هذا الموضوع رغبة فيه بوصفه شيئًا مفيدًا وخيرًا. وحين يحكم أفراد الطاقم لن يكون الحكم بخيرية الموضوع أو فائدته إلا حكمًا بأنه شيء صالح من بين مجموعة من الأشياء الأخرى. ويوضح ذلك كما بيّنّا من قبل كيف صوّرت أوديسّا هومر أفراد الطاقم. لقد افترض أفراد الطاقم أسوأ السناريوهات وتداولوا حول الأقل ألمًا، إما تناول الطعام الآن ثم الغرق في البحر فيما بعد بسبب غضب إله الشمس «شرب الماء المالح والغرق فيه» أو الصوم الآن «ومعاناة الجوع حتى الموت على سطح الجزيرة المهجورة».

تجعل هاتان الخطوتان من المرحلة الثانية التعطش (الرغبة) إدراكيًا. فإن هذا الإدراك قد يكون جهلاً أو قابلاً للمعرفة. فإذا كان الطاقم مثلاً قد أدرك قطعة من الطين ودفعه الوهم للحكم عليها بأنها قابلة للأكل، فإن أفراد يكون لديهم تعطش إدراكي لهذه القطعة من الطمي ولكنهم يحكمون عليها من جهل.

يتضح الآن سبب انهيار اعتراض «اللذة البهيمية». فعلى الرغم من وجود رغبات ودوافع عمياء (غير محددة) للطعام فقط فإن هذه الرغبة العمياء لا تستطيع أن توجه الفرد نحو موضوع معين. كذلك، يتطلب وجود الرغبة المعرفية لأي موضوع معين الحكم بأنه صالح لإشباع هذه الرغبة. ينطلق الاعتراض من حقيقتين متعلقتين بالرغبة. تشير إحداهما للدوافع العمياء (غير المحددة) باعتبارها رغبات، بينما تشير الثانية للرغبات المعرفية المشار إليها. ويخلط اعتراض الرغبة البهيمية بين هاتين المرحلتين المختلفتين للرغبة.

يُعد من الخطأ القول بأن الرغبة تتحكم في المعرفة كما تتحكم في العبد أو توجهها. فلا تتجه الرغبة العمياء إلى شيء محدد بعينه. بينما تكون الرغبة المعرفية الإدراكية لاحقة لعملية التقدير أو الحكم التي يقوم بها الفرد سواء تم ذلك عن جهل أو عن علم. لذلك، لا تحتاج الخبرة بعملية التقدير أو المعرفة لأي إرادة صلبة تكون كامنة في النفس لتنفيذ النتائج التي تم التوصل إليها أو التي تم النظر إليها باعتبارها أفضل النتائج. لم يحتج سقراط إلى مقدمة قوية على الرغم من أن مناقشته تفترض أن اللذة هي القيمة الوحيدة في الحياة الإنسانية بأن يلتزم البشر بإيجاز الأفعال التي يرون أنها ترتبط بالعوامل الإيجابية وتقلل من العوامل السلبية. وإذا كانت المعرفة حاضرة في نفوسنا بأنها قادرة وحدها على السيطرة علينا وتنقذنا من الخيارات الفاسدة أو السيئة أو الهادمة لحياتنا.

يناقش سقراط مرة أخرى بعد نحو ثماني سنوات موضوع الشجاعة، والكمال الإنساني الذي يبدو متلائمًا مع الجهل. ويعرض مرة أخرى لنفس النقطة المتعلقة بالقوة المنجية للمعرفة، فإنه يعرضها هذه المرة بصورة ملتوية. وبعد أن بين أن الشجاعة معرفة يثبت في محاورة لاخيس أنها ليست معرفة.

الآباء الأوصياء

كان الوالدان «ليسيماخوس ومنيليسياس» صديقين حميمين. وكان كل منهما ابنًا لقائد مدني وبطل من أبطال الحروب. بينما لم يكن لأي منهما أي إنجازات

تشبه والده. ويلومهما الناس دائمًا على تدني مستواهما مقارنة بآبائهما أصحاب السمعة الحسنة. «حيث قد تركنا لأنفسنا حين اقترينا من سن الرشد. ولم يهتم آباؤنا بنا واعتنينا بأحوال الناس الآخرين». رغب الاثنان أن ينجحا ولديهما اللذين قد بلغا العشرين من العمر فيما قد فشلا فيه أي أن يصبحا ذا شأن وشهرة. وهكذا بدأ الاثنان يفكران في نوع التربية الذي يمكن أن يحسّن من مستوى ولديهما قدر الإمكان» فاستشار ليسيماخوس ومليسياس بطلين من أبطال الحروب من أبناء جيلهما هما نيسياس ولاخيس.

يوجد معلم في أثينا يُعلم فنون القتال العالية المستوى. فهل يقترح نيسياس ولاخيس أن ينخرط الأبناء في تعلم هذه الدروس؟ حدث أن سقراط كان حاضرًا هذه المناقشة حين كان في الأربعة والأربعين من عمره. وعلى الرغم من أن نيسياس ولاخيس قد رغبا في إبداء النصح فإنها قد طلبا من سقراط الاشتراك معهما. فقد علم نيسياس من ابنه أن سقراط كان خبيرًا في اختيار المعلمين للأطفال. وكان لاخيس شاهد عيان على الشجاعة التي أبداها سقراط في المعركة التي كان يقودها.

قدم نيسياس ولاخيس لسوء الحظ نصيحة للوالدين بالنسبة لقيمة دروس القتال ومدى مساهمتها في تنمية شخصية الشباب. ولما جاءت النصيحة مخالفة لآراء الوالدين أرادا أن يتخلصا من هذا الموقف المخرج وسألا سقراط أن يدلي بدلوه. يعترض سقراط على النصيحة إلا أنه بدلاً من التعبير عن رأيه صراحة استخلص هذا الرأي من مستمعيه عن طريق طرح مجموعة من الأسئلة. «تعتمد القرارات الحكيمة على المعرفة وليس على رأي الأغلبية». وكانت مسألة معرفة كيفية تربية الأبناء وكيف نصل بنفوسهم إلى الكمال قدر الإمكان تمثل موضوعًا في غاية الأهمية للآباء. إذ يعتبرون الأبناء يمثلون أعظم ما يمتلكون، ويعتمد نجاح الأسر على الأبناء وتربيتهم.

وافق نيسياس ولاخيس» على أن يستجوبهما سقراط للبحث عن حل لتلك

المسألة العملية المحيرة الخاصة بكيفية تقديم النصح للوالدين. ويبدأ سقراط باستجواب لاخيس الذي قال إنه يعرف معنى الكمال الإنساني، يبدأ سقراط هذا التحدي الفلسفي بقوله:

«دعنا لا نسأل عن معنى الكلمة الإنساني ككل فذلك يتطلب وقتًا طويلاً. ونحاول أن نرى ما إذا كانت لدينا معرفة كافية ببعض أجزائه أو جوانبه التي يعد السؤال عنها أمرًا سهلاً». «نعم يا سقراط دعنا نفعل ما تقترحه».

«بأي جزء من أجـزاء الكمال الإنساني نبدأ؟ من الواضح أن نبدأ بالجزء الخاص بالدروس التي تؤدي إلى البراعة في القتال التي يعتقد معظم الناس أنها تزيد من قدر الشجاعة وتنميها. ألا تعتقدون أن ذلك أفضل؟».

«نعم».

«دعنا نحاول أن نعرف معنى الشجاعة».

يحاول لاخيس في البداية أن يقابل التحدي بضرب مثل عن الشجاعة. يقول: «إذا ظل الفرد ثابتًا في مكانه لمواجهة العدو، ولم يهرب من هذه المواجهة يمكن القول بيقين إنه إنسان شجاع». يوافق سقراط على الأقل من أجل الاستمرار في المناقشة» «افترض أن هذا الرجل الذي تشير إليه وإلى ثباته في موقعه يُعد إنسانًا شجاعًا. فقد قدم سقراط هذا المثل من نحو ربع قرن مضى في محاور «الدفاع». إذ قال أينما يتخذ فرد ما موقعًا يعتقد أنه الأفضل أو أنه قد تلقى أمرًا من قادته بضرورة الوجود بهذا الموقع والثبات فيه، فإنه يجب أن يظل قابعًا به لمواجهة الأخطار».

أيجب أن نوافق جميعًا على هذا المثل؟ تنتابني الشكوك دائمًا حول وصفنا للإنسان الذي يسلك دون معرفة كافية بالأسباب التي تدفعه لهذا السلوك بأنه إنسان شجاع. ربما كانت مقاتلة العدو غير مبررة وليست لأسباب عادلة، أو ربما تلقى هذا الرجل مجموعة من الأوامر المتضاربة أو أنه قد أمر بارتكاب إحدى جرائم الحرب. لقد اعترف سقراط نفسه في محاورة الجمهورية. بإمكانية وجود الأوامر المتضاربة. ويرفض بشدة الأفعال المجرّمة واللاأخلاقية في محاورة

كريتو. إذن قبل موافقتي على قبول هذا المثل يجب أن أفترض مسبقًا أن الحرب نفسها ليست جريمة، وأن الأفعال التي يقوم بها الفرد في المعركة ليست من جرائم الحرب. أعتقد إذا ما توجهت بالسؤال إلى سقراط ولاخيس حول هذه الافتراضات، فإنهما قد يجيبان: «بأن مثل هذه الأشياء تحدث دون الحديث عنها». لقد باتت صفة من صفات اللغة العادية تناول مثل هذه الأمور ببساطة وبطريقة عامة غير محددة، لأنه من الصعب بل ومن المستحيل تناول كل جزء من أجزاء العبارة بالشرح والتوضيح.

لا تساعدنا عبارة «لاخيس» على فرض صحتها على تعريف معنى الشجاعة في الحياة العملية. وقد تُعد عملية هروب المحاربين في بعض معارك الفروسية التي تستخدم بها العربات الحربية عملية شجاعة، كما قد وضح «سقراط» نفسه وإذا ما فرضنا أن «لاخيس» كان يفكر فقط في معارك المشاة الحربية التي تعتمد على الجنود فقط، فإن الرجال الذين قد يسلكون على خلاف ما قال به «لاخيس» قد يعدون من الشجعان. فقد كان «الإسبرطيون» يشتهرون بمثل هذا السلوك في معركة «بلاتايا» و«يقال إن الإسبرطيين حين يواجهون قوات مسلحة بالدروع الخرسانية القوية لا يفكرون في الوقوف لمواجهتها والاشتباك في القتال معها، ويفضلون التقهقر والهروب إلى الخلف.

ثم يعودون إلى الانقضاض على الفرس بعد أن تتخلى القوات عن الدروع لملاحقتهم ويكسبون المعركة بهذا الأسلوب في القتال.

يُبين سقراط بينما يوافق على بعض الحالات التي عرضها لاخيس أن هناك مجموعة من الحالات الأخرى التي تتناقض معها أي يكون نقيض ما قال به لاخيس صحيحًا. ولا تعد العبارة التي قالها لاخيس لتعريف الشجاعة كافية. فليست الشجاعة التي يرغب الوالدان في إكسابها لأبنائهما إلا الكمال الإنساني. إذ يوافق لاخيس على أن الشجاعة لا تشمل فقط من يتصفون بها في معارك المشاة الحربية، وإنما تشمل الشجعان في الفروسية وكل صور القتال. كذلك

لا يقتصر على هؤلاء فقط وإنما يتصف بالشجاعة كل من يواجه مخاطر البحر والأمراض والفقر والحكومة». وتأتي كل هذه الحالات تحت عنوان «الشجاعة في «مواجهة الألم والخوف». ويتفق سقراط ولاخيس بأنه إلى جانب الشجاعة في مواجهة الخوف والألم توجد أيضًا «الشجاعة في مواجهة اللذة والرغبة».

تظهر مشكلة بالنسبة للطريقة التي وسع بها سقراط ولاخيس من تفسيرهما للشجاعة، هل يمكن أن نقبل بوجود تعريف واحد للشجاعة ينطبق على كل هذه الحالات المختلفة؟ ربما يشفي غليلنا أن سقراط بين إمكانية وجود تعريف واحد «للسرعة». تتنوع مظاهر السرعة كما تتنوع مظاهر الشجاعة. «نجدها في العدو في العزف على آلة الهارب الموسيقية، وفي طريقة الحديث وفي التعلم وأنواع أخرى مختلفة من النشاط» ومع ذلك عرّف «سقراط» السرعة على الرغم من تنوع مظاهرها باعتبارها قدرة واحدة. «أي المقدرة على فعل الكثير في وقت قصير» لذا يجب أن نعترف بإمكانية وجود التعريف الواحد. فإنه من الملاحظ أن هذا التعريف الواحد لا يعني أن هذه القدرة الإنسانية تمكّن الإنسان من القدرة على التصرف بسرعة في كل المواقف. فلا تمكننا القوة التي تجعلنا نجري بسرعة مثلاً من العزف بنفس السرعة على الآلة الموسيقية. وربما يكون الإنسان قادرًا على العدو وبسرعة ولا يستطيع العزف إلا بصورة بطيئة. لذلك إذا ما كان هناك تعريف واحد للشجاعة فإنه لن يكون مجسدًا في قدره واحدة يمكن أن تسلك بصورة صحيحة في مواجهة اللذة والرغبة أو مواجهة الخوف والألم. وحتى إذا ما حضرنا أنفسنا في حالات الخوف والألم فإنه لا وجود لمثل هذه القوة التي تمكننا من السلوك المناسب في جميع الحالات المختلفة. وقد لاحظ أرسطو في كتاب الأخلاق النيقوماخية أنه قد يتصف بعض الناس الكرماء الذين يواجهون خسارة الثروة بشجاعة بأنهم جبناء في الحرب. يبين المثل الذي ضربه «أرسطو» أن من لديه المقدرة على السلوك المناسب في مواجهة الفقر ربما تنقصه القدرة على التعرف بصورة صحيحة حين يواجه الموت في المعركة. ولذا يمكن القول

إنه كما يتكون الكمال الإنساني من مجموعة من الأجزاء المختلفة التي قد شكلت المسلمة الأولى لهذه المناقشة. فإن الشجاعة يمكن أن تتكون أيضًا من مجموعة من الأجـزاء أو الجوانب المختلفة. وبالتالي ربما اتخاذ «سقراط» و«لاخيس» مسارًا خاطئًا حين حاولا توضيح معنى الخير العملي للآباء. وذلك بافتراض أن الشجاعة قوة واحدة بدلاً من اعتبارها مكونة من مجموعة من القوى المختلفة. دعنا نؤجل الأسف على وحدة قوى الشجاعة، وعلى أنه ليست هناك قوة واحدة مجسدة للشجاعة يمكن أن تتحكم في كل المخاوف والرغبات حتى وإن كانت المناقشة قد توصلت لهذا التعريف الواحد للشجاعة.

قدم لاخيس مسترشدًا بالمثل الذي ضربه سقراط تعريفًا ثانيًا للشجاعة، قال: «إن الشجاعة تتمثل في قدرة النفس على المثابرة أو التحمل». يختلف هذا التعريف الجديد عن تعريفه السابق للشجاعة في أنه يضم كل حالاتها وليس فقط حالة الخوف والألم، وإنما أيضًا في مواجهة الرغبات واللذات. فإن سقراط قد حذف هذا التعريف على أساس أن المثابرة ليست مفيدة دائمًا في كل الحالات كالشجاعة.

لا يشك أحد في السبب الذي برر سقراط به القول بأن المثابرة يمكن أن تكون مؤذية إذا ما صاحبها الحمق. وإنما اعترض لفيف من الناس على افتراضه أن الشجاعة تكون خيرة ومفيدة دائمًا. وربما تُعد الشجاعة ضارة كما كانت المثابرة إذا ما ارتبطت بالحمق. ويسهل التفكير في كثير من الأمثلة الإجرامية والأفعال المدمرة للذات التي تحتاج للشجاعة. اسمحوا لي بتقديم هذا الاعتراض على هذه الصورة: طالما أن هناك أكثر من تعريف للشجاعة، كيف يبرر سقراط ولاخيس افتراضهما بأن الشجاعة تكون دائمًا مفيدة في كل الحالات؟

يُفند الهدف العملي الواقعي الذي يحكم البحث هذا الاعتراض. إذا كان سقراط ولاخيس يهدفان إلى القيام بعمل أكاديمي كإعداد قاموس لغوي مثلاً، من المؤكد أنهما قد يلاحظان الطرق المتعددة التي يستخدم بها الناس كلمة «الشجاعة» ويشيرون فيها أحيانًا للكمال الإنساني وأحيانًا أخرى لصفة شخصية لا تعد مفيدة

أو ضارة في حد ذاتها. ولما كانت غاية هذا النقاش نُصح الآباء حول كيفية تنمية الكمال في نفوس الأبناء، اتفق سقراط ولاخيس على تقديم تعريف للشجاعة التي تفيد الإنسان الذي يتصف بها. ولا يحيدان عن جادة الصواب حين يفترضان أن الكمال الإنساني هو الشيء الذي يسعيان لتعريفه ويسميانه بالشجاعة، أي أنه يكون دائمًا شيئًا مفيدًا وخيرًا. ولذلك كانا على حق في رفض مثابرة النفس التي لا تشكل كمالاً إنسانيًا أو نقيصة إلا بقدر ارتباطها بالحكمة والاسترشاد بها.

حين يريد لاخيس الشجاعة بأنها الكمال الإنساني، وبالتالي عرفها بأنها نوع من المثابرة الحكيمة، فإن من المعقول أن يستنتج سقراط وفق تفسيره أن الشجاعة ليست إلا المثابرة الحكيمة. فإن المثل الذي ضربه سقراط لا يبين أن الشجاعة في المثابرة الحكيمة على عمل أي شيء. فليست مواظبة الرجل على صرف المال بسبب حكمته في معرفة الاستثمار الجيد تُعد من الشجاعة. ولا يُعد الطبيب الذي يواظب على معالجة المريض إنسانًا شجاعًا بسبب حكمته في المداواة. فمن الواضح أن الشجاعة معرفة أو خبرة بكسب المال أو بطرق الشفاء، لذا كان سقراط محقًا في سؤاله لاخيس «متى تكون الشجاعة حكمة؟».

يتفق سقراط ولاخيس على أن الأمر يحتاج إلى شجاعة أكثر حين تقاتل خبيرًا بالخطط العسكرية عنه حين تقاتل من ليست له دراية بهذه الخطط. كذلك نحتاج إلى شجاعة أكثر حين نواجه الفرسان والرماة المهرة عنها حين نواجه غير المدربين. كما تتطلب عملية النزول للبئر دون معرفة أو خبرة شجاعة أكثر عنها في حالة توفر المعرفة أو الخبرة. بالطبع، ليست كل حالة من حالات مواجهة الصعاب أو أصحاب المهارة والخبرة أو المخاطر دون المعرفة والخبرة المناسبة تعد حالة من حالات الشجاعة. ولا نحتاج من سقراط أو لاخيس أن يقولا بذلك. ومع ذلك نلاحظ في بعض الحالات التي يكون السلوك بها دون معرفة شجاعة وليس تهورًا: «يُعد أصحاب مثل هذا السلوك حين يواجهون المخاطر أكثر حمقًا من الذين يفعلون مثل هذا السلوك أو مثل هذه الأشياء «التخطيط، والركوب،

وإطلاق الأسهم، والغوص بمهارة».

يلاحظ نوع من التناقض. ويبدو أن الفعل الواحد نفسه قد يتصف بالحمق وبأنه غير أحمق في آن واحد. كذلك لاحظ «سقراط» ولاخيس من قب أن الجرأة الحمقاء والمثابرة أشياء ضارة ومؤذية، وأن الشجاعة كمال بينما يقولان الآن «بأن الشيء المثير للخجل والمثابرة الحمقاء شجاعة».

نستطيع التخلص من هذا النوع من التناقض بإجابة سؤال سقراط «متى تُعد الشجاعة حكمة». ربما تجهل الأم القيام بعملية الغوص ولا تعرف كيفية النزول إلى قاع البئر. ومع ذلك تدرك جيدًا أن رفاهية أسرتها وسعادتها تتطلب منها في حالة معينة أن تقوم بعملية الغوص التي لا تدري عنها شيئًا. تقوم المرأة في هذه الحالة بالمثابرة الحمقاء على الغوص في البئر، وتفعل ذلك لأنها تمارس دورها باعتبارها أمًا. ينتهي التناقض حين ندرك أن الغوص دون معرفة ودراية كافيتين ربما يعد فعلاً جيدًا بالنسبة للإنسان. وفق هذا الحل نواجه التحدي الذي وضعه سقراط بأن نحدد في المقام الأول أن الشجاعة ليست مجرد المثابرة على العمل وإنما المثابرة الحكيمة. ونؤكد في المقام الثاني أن الحكمة ليست مجرد الحكمة في المثابرة وقوة التحمل وإنما الحكمة في السعي للسعادة الإنسانية.

لقد تخيلت للتو الحالة التي تتصف بها المرأة أو الأم بالحكمة للمخاطر بحياتها في عملية الإصرار على الفوضى في البئر دون دراية كافية بعملية الفوضى. ومن الواضح أن هناك حالات أخرى تتصف بها المرأة بالحمق حين تقوم بالمخاطرة بحياتها بمثل هذا الإصرار. يدفع هذا الاختلاف في تقييم عملية المثابرة إلى رفض التعريف الأساسي الذي قال به «لاخيس» بأن الشجاعة لا تتصف بالمثابرة على العمل أو عدم المثابرة. ومن الواضح أن الحكمة في السعي للسعادة الإنسانية تُعد الصفة الأساسية للشجاعة التي تسعى لها. ولذلك تتفق النتيجة التي توصلت إليها مع ما قاله سقراط عن الشجاعة في الفصل الرابع ونوضح ما قد يقترحه نيسياس في هذه المحاورة.

لم يستطع لاخيبس مواجهة التحدي الذي فرضه سقراط كما فعلت. فلقد كانت المناقشة شفهية وسريعة. وليس مستغربًا أن شعر لاخيس بالحيرة والارتباك ولم يستطع تقديم تفسير مناسب. وإذا ما قد أتيحت الفرصة أمامه لقراءة المحاورة والتأمل في الأشياء، أعتقد أنه كان قد نوصل لنفس الحل الذي توصلت إليه. واكتشف حلاً للتناقض. وربما تخلى عن القول بالمثابرة على العمل والقول بالحكمة. ومع ذلك، دعنا نعترف وفقًا لطبيعتنا الإنسانية بأنه قد يصعب علينا عدم المثابرة بالنسبة للمواقف التي نتخذها وندافع عنها علانية. وقد يتطلب التخلي عن مثل هذه المواقف شجاعة فائقة.

الحكمة عند سقراط

لم يكن نيسياس قد سمع مثل لاخيس بالتحديات التي يثيرها سقراط في المناقشات من قبل. وتذكر مقولة سقراط الشهيرة والعبارة التي يكررها دائمًا «بأن كل فرد منا يتصف بالطيبة بقدر حكمته وبالسوء بقدر جهله». أيد نيسياس قول سقراط ورفض تعريف لاخيس. لقد دفعت نيسياس نفس الاعتبارات التي دفعتني إلى اعتبار الحكمة جزءًا أساسيًا في تعريف الشجاعة: المعرفة بما يتصف بالجرأة ومقيت داخل أرض المعركة وخارجها».

يعترض لاخيس على تعريف نيسياس بأدب جم. يعرف الأطباء ما يخشى منه أو مقيت وما يتصف بالجرأة والجسارة في معالجة المرض. يعرف الأطباء مثلاً في حالة الإصابة بداء الغنغرينا يخشون منه في كل حالة ويقبلون القيام به بجرأة وبجسارة، أي ما يقبلون على القيام به بثقة كإجراء عملية البتر أو التخلص من تسمم الدم. ومع ذلك لا يحتاج الشجعان لمعرفة مثل هذه الأشياء أو المعلومات الطبية. ولا تجعل معرفة مثل هذه المعلومات الأطباء يتصفون بالشجاعة. وطبق لاخيس نفس وجهة النظر على الفلاحين وأصحاب المهن الأخرى.

لقد جاءت إجابة نيسياس موفقة في عملية التمييز بين معرفة الأطباء ومعرفة السعادة الإنسانية، وتشبه ما سبق أن أشرت إليه من قبل. إذ يتعلم الأطباء من المعرفة التي يحصلون عليها ما يتعلق بالمرض وما هو ضار للصحة ومدمر لها. «ولا يتعلمون ما إذا كان من الأفضل أن يتحقق الشفاء بالنسبة لحياة المريض». كان لاخيس محقًا في الاتفاق مع نيسياس على أن في بعض الحالات «يكون الموت أفضل من الحياة». إذا كان عطيل شكسبير مثلاً قد مات من الإصابة بالمرض بعد زفافه من مجموعته ويزفونه وقبل أن يفقد ثقته في حبها له، فما كان منه

إلا أن قتلها يأسًا أو قتل نفسه. تقع مثل هذه المآسي وتُعد واقعية تمامًا. وينتحر مئات العشاق الرومانسيون في الولايات المتحدة كل عام. وقد يمكن القول: إن حياة نيسياس نفسه تُعد مثلاً مباشرًا قاسيًا. فلئن عاد إلى بيته بعد إجرائه لهذه المناقشات وأصيب بمرض ومات ولا يزال بطلاً في عيون الشعب الأثيني، لتجنب اتهامه بأنه السبب في الكارثة التي حلت بمدينته والموت المثير للحزن بعد معاناته سنوات طويلة من الآلام المبرحة بسبب بعض الحصوات في كليته. تختلف المعرفة بأن موت إنسان ما قد يكون أفضل من حياته المعذبة عن معرفة الأطباء بكيفية تحقيق الشفاء للمرض.

تفترض الأحكام التي قدمتها حول حياة عطيل ونيسياس أن الفرض البديل المتمثل في الموت من المرض لم يكن قد أدى لمثل هذه المآسي كالانتحار أو القتل أو دمار المدينة. وربما تبين لنا المعرفة السحرية بالمستقبل ما إذا كان هذا الفرض صحيحًا. طرح لاخيس حين تمت الإشارة لمثل هذه المعرفة الخاصة بالطرفين سؤالاً جديدًا «يبدو أن العراف إنسان مستحق الوصف بأنه شجاع! ومع ذلك، هل تذكر يا نيسياس سوءًا كنت عرافًا أم لم تكن أن تكون شجاعًا؟». لقد أصاب لاخيس عين الصواب، ووصف معرفة العراف بأنها شجاعة شيء مناف للآداب.

وعلى الرغم من أن لاخيس كان محقًا في عدم اعتبار معرفة العراف شجاعة فإن إجابة نيسياس كانت موفقة. وقام هذه المرة بالتفرقة بين المعرفة بما يحدث والمعرفة بما قد يحدث في المستقبل.

«يعرف العراف فقط بعض العلامات التي تشير إلى ما يحدث في المستقبل كالموت أو الإصابة بالمرض أو فقدان الثروة أو النصر أو الهزيمة في الحرب أو أي حدث آخر. أما بالنسبة لمعرفة ما إذا كان من الأفضل أن يحدث للشخص أي حدث من هذه الأحداث فإنه العراف لا يستطيع أن يقرر الإجابة شأنه شأن أي شخص آخر.

يوضح سقراط ما يتوجب علينا القيام به حين نستمع إلى فكرة غريبة. «دعنا

نسأل صاحبها عن مزيد من الوضوح حول ما يفكر فيه. فإذا ما اكتشفنا صحة وجهة نظره نتفق معه، وإن اكتشفنا خطأها نعلمه». ولقد ذكر سقراط نفس المنهج من قبل إلى «لاخيس». يقول سقراط: «يجب أن نُعلم من يقولون بأشياء خاطئة ولا نوبخهم». ينطبق الاقتراح الذي قدمه سقراط علينا وعلى لاخيس: إذا ما اكتشفنا خطأ في فكر الآخرين يجب أن تكون لدينا القدرة على كشف هذا الخطأ لهم.

يبدأ سقراط في طرح الأسئلة بعد شعوره بإحباط لاخيس. ويلفت الانتباه للنتائج اللاأخلاقية لدعوى نيسياس.

«يُعد من الضروري لكل من يقول بمثل هذه النظرية، أن يرفض وصف أي حيوان بالشجاعة أو يعترف بأن حيوانًا كالأسد أو النمر أو الخنزير البري يعرف ما قد يعرفه عدد قليل من الناس، لأنه من الصعب عليه الإدراك. ولماذا يجب على من يشاركك في تفسيرك للشجاعة أن يوافق على أن الأسد والغزالة، والثور والأرنب، تتساوى جميعًا في الشجاعة بطبيعتهم!».

يُفند نيسياس هذا الاعتراض بالتفرقة بين الشجاعة العاقلة وبين التهور والجرأة والجسارة. وعلى الرغم من أن الحيوانات كالبشر لا يعلمون متى يكون من الأفضل لها الحياة أو مواجهة الموت أو الشرور الأخرى، فإن نيسياس يستطيع مع ذلك التأكيد على الفرق الواضح في الطباع بين الحيوانات المختلفة. تُعد الغزلان والأرانب جبانة مقارنة بالأسود والثيران الجسورة أو الشجاعة. وعلى الرغم من تناقض ما يقول به نيسياس مع الخبرة الإنسانية العملية في وصفة الحيوانات بالشجاعة والجبن فإنه محق في وضع هذه التفرقة. وسبق أن قلت إن هذا البحث محكوم بالاهتمامات العملية للإنسان وليس بالتصنيفات الأكاديمية التي يتعامل بها معظم الناس. يريد الآباء أن يكتسب أبناؤهم الشجاعة التي تعد من صور الكمال الإنساني وليس باعتبارها مجرد صفة للشخصية مثل صفتي الجرأة والجبن اللتين يمكن أن تكونا صفات حسنة أو سيئة.

يستمر سقراط في طرح سيل من الأسئلة التي تثير حيرة نيسياس، ولم يستطع

الإجابة عنها. يبدأ سقراط بالتأكيد على موافقة نيسياس السابقة على المسلمة الأولى القائلة بأن الشجاعة ليست إلا جزءًا من الكمال الإنساني.

- «أتذكر أننا توصلنا في بداية المناقشة إلى أن «الشجاعة» جزء من الكمال الإنساني».

- «بالتأكيد».

- «وأثبت أنها جزء من مجموعة من الأجزاء الأخرى التي تكوّن في مجموعها ما يسمى بالكمال الإنساني»؟ «الآن أقول إن رجاحة العقل والعدل من بين هذه الأجزاء الأخرى أتسلم معي بذلك؟ بالتأكيد»، احتفظ بهذه الفكرة التي اتفقنا عليها».

أليس الكمال الإنساني إلا كلاً من مجموعة من الأجزاء المختلفة؟ قال سقراط بإجابة مختلفة عن تلك الإجابة في محاورة بروتاجوراس «إن العدل، ورجاحة العقل، والتقوى، والشجاعة والحكمة كلها مسميات لشيء واحد ولنفس الشيء». وأنها بالتحديد «تمثل كلها معرفة» بالسعادة الإنسانية (انظر الفصل الرابع

يدفع سقراط نيسياس للاتفاق معه على أن المخيف ليس إلا الشيء الذي يثير الخوف، ولا يتعلق بطبيعته بالماضي أو الحاضر، وإنما بالشر المتوقع حدوثه في المستقبل.

ويُعد المفزع أي الذي يسبب نقيضًا لما يسبب الخوف أي خير يتوقع حدوثه في المستقبل. فحين اكتشفت جولييت مثلاً وفاة روميو توقعت إما حياة مستقبلية ليس بها روميو أو الانتحار. ولابد أنها قد قارنت بين ما تخشاه وما تتجاسر عليه وعليها أن تختار بينهما. وأعتقد أن الشعور بالخوف أو بالجسارة أمر يتعلق بالأشياء التي نخاف منها وتلك التي نتجاسر على القيام بها في الحالة التي قد تواجهنا. فإن لم تقابل جولييت روميو لن تخيفها الحياة المستقبلية الخالية من وجوده بها. ولا كان ممكنًا لها أن تتجاسر على الانتحار. فقد حكمت فقط في اللحظة التي واجهت فيها موت حبيبها بأن حياتها دونه مسألة مخيفة. وتجاسرت على القيام بالانتحار باعتباره العمل الأفضل نسبيًا في ظل هذه الظروف.

يقبل نيسياس بعد هذا التفسير لمعنى المخيف ونقيضه بإعادة صياغة

تعريفه. فتصبح الشجاعة معرفة بالأشياء الشريرة والخيرة التي يتوقع المرء حدوثها في المستقبل. وكما يبين المثل الخاص بجولييت أن الأشياء الخيرة والشريرة التي قد اتفق عليها سقراط ونيسياس ليست إلا عن طريق المقارنة وموازنة الأشياء ببعضها بعضًا. وليست المعرفة المشار إليها مجرد معرفة بأي من الأشياء الخيرة أو الشريرة وإنما تتعلق بالمقارنة بينها، وتحديد أي من هذه الأشياء أفضل أو أسوأ بالنسبة لتحقيق السعادة الإنسانية.

يُعد سقراط محقًا في بيان أن الفرد إذا ما استطاع في ضوء معرفته وضع أحكام تتعلق بالقيمة النسبية للأشياء الخيرة، فإن هذه المعرفة ذاتها تخوله في أن يصدر أحكامه بالنسبة للأشياء الخيرة الحاضرة والماضية. فقد يُعد من الأمور المتناقضة حين أتأمل في اختيار «جولييت» أن أعرف فقط ما هو الاختيار الأفضل أو الأسوأ طالما أن الخيار يتعلق بالمستقبل ولا أستطيع القيام بذلك حين يتعلق الاختيار بالحاضر والماضي! لذا يجب أن يقبل نيسياس بأن المعنى الحقيقي لتعريفه للعدالة يعني معرفة بالقيمة المقارنة لكل الأشياء السيئة والخيرة (أي كل ما تتعلق بالسعادة الإنسانية أو ترتبط بها) في الماضي والحاضر والمستقبل.

أستطيع أن أتفهم الآن القلق الذي قد يثار من القول: إن الشجاعة ليست قوة واحدة مجسدة وإنما مجموعة من الأجزاء المختلفة. وتتولد حالة القلق من أنه قد يكون هناك جزء معين من الشجاعة يتمثل فقط في معرفة الأفضل والأسوأ في أرض المعركة وليست معرفة الأمور المفيدة والمؤذية في الأسفار البحرية والأمراض أو الفقر. فقد تكون الشجاعة متعلقة بمعرفة الأمور الحسنة والسيئة المتعلقة بوضع سلاح المشاه أو إن شئنا الدفاع عن وجهة نظر لاخيس الأصلية، المتعلقة ببعض عناصر سلاح المشأة (مثلاً لا تتعلق بالتكتيك الإسبرطي في المعركة القائم على (الكر والفر) وإنما بالتكتيك التقليدي لسلاح المشاة الأثيني القائم على الثبات في الموقع. تمثلت مشكلة نيسياس وفق هذا الاعتراض في أنه لم يُعرف بين هذه المواقف المختلفة التي تتطلب أنماطًا مختلفة من المعرفة أو

معارف مختلفة. وقد جعلته هذه المشكلة عاجزًا عن التفرقة بين الشجاعة وباقي جوانب الكمال الإنساني أو أجزائه.

ينهار هذا الاعتراض. إذ يجب أن أختار باعتباري جنديًا عاديًا في سلاح المشاه بين الانسحاب من موقعي أو مواجهة الموت. وقد أختار الموت لإنقاذ المدينة أو أفراد أسرتي أو للدفاع عن عقيدتي أو لاسترداد هلين من الطرواديين، أو بغية الحصول على الشرف والتمتع بمكاسب النصر أو لتجنب مخاطر ركوب البحر أو لتحقيق مكسب مادي. فإذا ما أردت لولدي أن يعرف كيفية القيام بالاختيار الصحيح كما فعل جندي المشاة العادي، لما كانت هناك قيم أتركه جاهلاً بها وبكيفية قيامها. لقد عرضت المسألة من وجهة نظر سلاح المشاة ولكنها تنطبق بصورة عامة. يتطلب أي جانب من جوانب الشجاعة المعرفة العامة بكيفية المقارنة بين كل الأمور الخيرة والشريرة لتقرير القرار الخاص به وتحديد الخير الذي يحققه.

لذا يستطيع سقراط أن يسألنا جميعًا صراحة:

«هل يبدو إنسان الكمال أمامك إنسانًا ينقصه شيء إذا ما كانت لديه المعرفة الكافية بكيفية المقارنة بين كل الأشياء الخيرة الشريرة الماضية والحاضرة والمستقبلية؟ هل تعتقد أن هذا الرجل تنقصه رجاحة العقل، والعدل، والتقوى، هذا الرجل الذي يعرف وحده كيف يكون حريصًا في التعامل مع الآلهة والبشر حتى يحصل على نتيجة طيبة حين يواجه الأمور المثيرة للخوف أو المثيرة للجسارة، ويعرف الطريقة الصحيحة للتعامل معها؟

يجب أن يعترف نيسياس بأن تعريفه للشجاعة لن يجعلها جزءًا من الكمال الإنساني وإنما تعنيه كله، الأمر الذي يتصارع مع النقطة التي بدأ منها هذا البحث. واعتبر الشجاعة جزءًا من الكمال الإنساني.

أشكال تفسيرية

يبدأ «لاخيس» بالقول بأنه قد عرف الشجاعة بأنها ليست صفة شخصية عقلية. مثل المثابرة أو الجسارة أو الثقة. فإن مثل هذا القول قد قاده إلى نهاية مغلقة. وبين سقراط أن أي صفة شخصية غير عقلية تسيء للوجود الإنساني إذا ما ارتبطت بالحمق. كذلك إذا ما وافقنا «بروتاجوراس» نلاحظ أن الحكمة ذاتها تولد المثابرة بنفس الطريقة التي تولد بها الثقة (الفصل الرابع) يجب أن نرغب مثل نيسياس في تعريف الشجاعة بالكمال الإنساني الذي ليس إلا نوعًا من المعرفة.

وقد يعد من الأمور الغريبة أن سقراط لم يؤيد اقتراح نيسياس وفنده. بل وتعد الطريقة التي فنده بها أكثر غرابة. فلقد اقترح سقراط على «نيسياس» كما فعل مع لاخيس أن الشجاعة ليست إلا جزءًا من الكمال الإنساني. ومع ذلك أثبت مناقشته في محاورة بروتاجوراس أن الشجاعة ليست إلا الحكمة، أي أنها كل الكمال الإنساني، والحكمة التي تحقق خلاصنا.

يحتاج الأمر كلمة لمزيد من التفسير، إذا كان سقراط يعتقد أن الشجاعة ليست إلا الكمال الإنساني كله، لماذا لم يصرح بذلك مباشرة لنيسياس ولاخيس وقال بعكس بذلك؟ توجد عدة تفسيرات محتملة لتلك الأشكال. فربما قد غير سقراط آراءه في فترة الثماني سنوات. وربما نخطئ إذا تصورنا أن شخصية سقراط تشير إلى نفس الرجل في كل المحاورات. وربما يكون سقراط إنسانًا يبحث عن التسلية بالجدال مع الآخرين وليس معلمًا أخلاقيًا جادًا، أو أنه كان جادًا في محاورة لاخيس ومخادعًا في محاورة بروتاجوراس. يدفعني اهتمامي بالجانب العملي الواقعي عن البحث عن الحكمة لدى سقراط إلى تفسير مختلف تمامًا.

الفصل السادس

محاورات سقراط

في هذا الفصل نعرض لبعض محاورات سقراط وما تعرضه تلك المحاورات من أفكار فلسفية وآراء.

توصل لسقراط إلى حل لغز الكاهنة في محاورة الدفاع بالتفرقة بين مستويات ثلاثة للحكمة. المستوى الأعلى أي الحكمة الحقيقية». الذي يخص الآلهة وحدها. والمستوى المتوسط «أي الأحكم من الناس» الذي يخص أي فرد مثل سقراط «أي يعرف» أنه لا يعرف الحكمة الحقيقية لأي قيمة. المستوى الأدنى يتصف به «الفرد الذي لا يتصف بالحكمة ويرى نفسه حكيمًا». فإن كانت الكاهنة محقة لا يمكن للبشر الحياة في المستوى الأعلى. وليس أمام البشر إلا المستويان الباقيان. ولا يخلو من الشعور بالذنب من يحيا في المستوى المتوسط.

حدد سقراط بعد معرفته بالقيمة العليا للحكمة وفهمه لمعنى قول الكاهنة بأن مثل هذه الحكمة ليست في متناول البشر نوع النشاط الذي يستطيع أن يمارسه الشخص الذي يحيا في المستوى المتوسط «بأن عليه أن يقوم كل يوم بإجراء المناقشات، والمشاركة في الحوار، ويفكر بعناية في معنى الكمال الإنساني والموضوعات المتعلقة به. ويعتبر ذلك أفضل شيء للكائن الإنساني» فلقد أكدت من قبل أن الحياة الخالية من التفلسف لا تستحق أن يعيشها الإنسان.

قد توجد مشكلة بالنسبة للتفسير الذي اعتبر فيه سقراط فيلسوفًا أخلاقيًا جادًا. يبرهن سقراط في محاورة بروتاجوراس على أن الشجاعة ليست إلا الكمال الإنساني كله. بينما يقول في محاورة لاخيس إنها ليست إلا جزءًا من الكمال الإنساني، واعتمد بوضوح شديد على مثل هذه المقدمة في مناقشته. يقول

سقراط في محاورة بروتاجوراس أيضًا «أقول من جانبي إن العدل شيء مقدس، والمقدس شيء عادل، وأستطيع القول إن هذه الأشياء إما أنها واحدة أو نفس الشيء، أو أن العدل يشبه إلى حد بعيد المقدس». لذا لا يعد المقدس مجرد جزء من العدالة. ومع ذلك استطاع سقراط أن يحصل في محاورة أوطفريون على موافقة أوطفريون على أن كل ما هو مقدس عادل. ثم يسأله سقراط كيف أن التقديس جزء من الخوف، ويقترح بالتالي أن التقوى ليست إلا جزءًا من العدالة. يفهم أوطفريون بالتأكيد أن سقراط يقول بهذه الفكرة لأنه حين أجاب سقراط بأن التقديس ليس إلا جزءًا يقول له «يبدو أنك مصيب يا سقراط في اقتراحك بأنه ليس إلا جزءًا».

لذا يقولون يبدو سقراط إنسانًا مخادعًا أو متناقضًا مع نفسه بسبب سلوكه المضلل والملتوي في محاورات بروتاجوراس، ولاخيس، وأوطفريون. إذا كان سقراط يعتقد فعلاً أن المقدس والعادل شيء واحد فلماذا أضجر أوطفريون بالأسئلة المربكة بدلاً من التحدث مباشرة معه؟ كذلك إذا كان يعتقد أن الشجاعة ليست إلا كل الكمال الإنساني فلماذا لم يصرّح مباشرة بذلك لكل من لاخيس، ونيسياس، وأوطفريون؟ لما يبدو الفيلسوف الأخلاقي الجاد كما لو كان إنسانًا يتسلى على حساب الآخرين؟ لقد قدم الدارسون تفسيرات محددة لموقف سقراط الغريب. واستطعت بسبب اهتمامي العملي والواقعي عند بحث فكر سقراط أن أبين أن سقراط قد اتبع هذا السلوك المضلل باعتباره أفضل الطرق التي يمكن أن ينتقل بها الإنسان من المستوى الأدنى للحكمة إلى مستواها المتوسط.

1- من المستوى الأدنى إلى المتوسط. يعلم سقراط أنه جاهل وليست لديه القدرة على تقديم الحكمة للناس. وكما يفيد الأطباء الأبدان بجعلهم أصحاء، ربما يفيد الحكماء من البشر أي العارفين بالسعادة- إذا ما وجدوا- الناس بإكسابهم الحكمة ورجاحة العقل. يرغب سقراط كما يرغب الحكماء إكساب الناس هذه الحكمة لكنه ليس حكيمًا. وكما لا يستطيع من لا يعمل بالطب علاج الآخرين فإنه

ليس قادرًا أيضًا على شفاء النفوس أو مساعدة الآخرين على اكتساب الكمال الإنساني. قد يستطيع سقراط دفع الناس إلى الاعتراف عن طريق الحوار بأن الكمال الإنساني ليس إلا نوعًا من المعرفة، فإنه من الواضح أن المرء قد يستطيع إدراك ذلك ويظل في نفس الوقت عاجزًا عن تقدير عملية الاختيار التي واجهت أوديسيوس أو أوغسطين أو أي فرد آخر يواجه عملية الاختيار بين الأفضل الأسوأ.

يقدر سقراط الذي يحتل المستوى المتوسط على تعليم الشباب الخير والتقوى والعدالة. وقد صرح بذلك في محاورة الدفاع. فإن تظل في المستوى الأدنى أي جاهلاً وتعتقد أنك حكيم، أمر في منتهى الخطورة. يكفي لأن يدمر الأفكار ويؤدي إلى إنكار أي قيمة قد ترتبط بأي حرفة قد يؤديها الفرد. يحاول سقراط أن ينتقل بمستمعيه من المستوى الأدنى إلى المستوى المتوسط بالمزج بين أسلوب الوعظ والبرهان. أي «توجيه الأسئلة والفحص والاختبار» لكل فرد من الحاضرين حتى يحصل على موافقتهم على الموضوع الذي يتناقش فيه معهم. ولئن كان نشاطه لا يمثل المنفعة الحقيقة والكاملة التي يمكن اكتسابها من الحكماء ومن لديهم المقدرة على تحريك الناس إلى المستوى الأعلى فإن نشاطه يُعد من أعظم ما قد يقدمه سقراط للأثينيين. إذا استطاع أن ينتقل بهم من وضع سيء إلى وضع لا سيئ حين يصلون إلى المستوى المتوسط. ولئن كان هذا السلوك نفسه لا يشكل سلوكًا تقيًا في حد ذاته أي الذي يقوم على معرفة كاملة بكمال الإنسانية وخيرها، ويمكن من نقل البشر إلى المستوى الأعلى فإنه يمثل نوعًا «من الخدمة للآلهة وطاعة لما يأمر الإله به». كذلك ولئن كان هذا السلوك نفسه لا ينم عن العدالة الحقيقية التي تولّد لدينا القدرة على تحقيق العدل إلا أنه يتصف بمعنى من المعاني بالعدل لأنه «يشكل سعيًا حقيقيًا تجاه تحقيق العدالة». يجعلنا نبذل جهلنا الخالي من الشعور بالذنب بجهلنا المستحق اللوم خاصة في سعينا لاكتساب الحكمة. وعلى الرغم من أن نمط التربية الذي قال به سقراط لم يستند على خبرة ومعرفة ولا يتصف بأنه صالح وعادل فإنه لا يدفع إلى الشعور بالذنب.

طريقة سقراط في التعليم

ويقول سقراط في محاورة الدفاع: إن طريقته في التعليم تتكون من عدة أشياء تشكل عملية «الاختيار» أولها. ونلاحظ أن عملية الامتحان التي يمارسها في المحاورات تتخذ ثلاث صور. تتمثل الصورة الأولى ببساطة في عملية السؤال عن تفسير أو شرح. ويصف سقراط هذا النوع من الامتحان في بداية محاورة بروتاجوراس.

«حين أردت معرفة صلابة موقف هيبوكرتيس بدأت اختباره بالسؤال التالي: حدثني ياهيبوكرتيس ما نوع الخدمة التي تتوقع أن تحصل عليها، وما نمط الشخصية الذي تريد أن تكتسبه حين ذهبت إلى بروتاجوراس ودفعت النقود له لتعليمك؟».

يبدو أن الشاب «هيبو كرتيس» يرغب من عملية البحث عن معلم معرفة مواطن جهله. ولا يتباهى بأنه عالم، وكما رأينا هذا التباهي لدى «أيون وبروتاجوراس ولاخيس ونيسياس». بدأ يُعلم نفسه المقصود بمعنى السوفسطائي. يقول «أعتقد أنني أعرف» ولذلك يجد سقراط أن من السهل عليه نسبيًا نقل هيبوكرتيس إلى المستوى المتوسط الذي يكون فيه واعيًا بجهله بمعنى السوفسطائي:

«أنبئني ماذا تعتقد أن يكون السوفسطائي (رجل الحكمة على ما يبدو) أجاب «بالنسبة لي، وكما يفهم من الاسم، أنه الشخص الذي يعرف الأشياء الحكيمة». سألته «حسن، يمكننا التحدث عن الرسامين والنجارين بنفس الطريقة. إذ يعرفون الأشياء الحكيمة. وإذا ما سألنا أحدًا عن هذه الأشياء الحكيمة التي يعلمها الرسامون؟ نقول: إنهم يعلمون أشياءً حكيمة تتعلق بكيف يرسمون اللوحات. ونستطيع أن نجيب بنفس الإجابة بالنسبة للنجارين أيضًا. فإذا ما سألت نفس السؤال عن ما الأشياء الحكيمة التي يعرفها السوفسطائي؟ ماذا تكون الإجابة؟ ما الأشياء التي يعلمنا كيف يصنعها؟». «لا نستطيع القول يا سقراط فإنه يعلمنا كيف يصبح الإنسان متحدثًا لبقًا. قلت «ربما نقول الحقيقة. فإن قولنا ليس كافيًا ويتطلب إجابتنا عن سؤال جديد. يجعل السوفسطائي الفرد متحدثًا لبقًا عن ماذا؟ يجعل عازف الهارب الفرد مثلاً متحدثًا لبقًا عن ما يعرفه، وبالتحديد عن

طريقة عزف الهارب، ألا تتفق معي على ذلك؟ «نعم»، «حسن، فعن أي شيء يجعل السوفسطائي الفرد يتحدث بطلاقة؟

«يتحدث عن الشيء الذي يقدم له السوفسطائي المعلومات عنه؟».

«إن ذلك أمر مكمن، فما هو هذا الشيء الذي يعرفه السوفسطائي وينقل معرفته إلى الطالب؟».

«**قال:** بحق زيوس، ليس لديَّ ما أقوله».

«يبدو أنك لا تعلم شيئًا عن ما السوفسطائي على الرغم من أنك على وشك أن تضع نفسك بين يديه».

«أعتقد ذلك يا سقراط وفقًا لما قلته».

يلاحظ أن سقراط في هذا الحوار لم يكن في حاجة إلى بيان التناقض في معتقدات هيبوكرتيس. وذلك بسبب إسراع هيبوكرتيس في عملية الاعتراف بجهله.

تواجه الصورة الثانية من صور الاختبار الثلاث سقراط نفسه أينما يقابل فردًا تختلف آراؤه اختلافًا جذريًا مع آرائه كما يحدث حين يقابل كاليسليس في محاورة جورجياس. ومحاولته أن يجعل منه شاهدًا على صحة آرائه (وكما قد وعد بأن يفعل نفس الشيء مع «بولس» في المحاورة ذاتها.

إذا أمكن القول بأن هاتين الصورتين من صور الاختيار لم تقدما تفسيرًا للسلوك المضلل الذي انتهجه سقراط في محاورتي لاخيس وأوطفريون، فإن الصورة الثالثة يمكن أن تلقي الضوء على هذا السلوك وتفسره، تتمثل الصورة الثالثة من الاختبار الخاص بالشخص الذي يدعي المعرفة في أن ننقل إليه قولاً زائفًا أو خاطئًا لنرى ما إذا كان في مقدوره كشف هذا الزيف أو الخطأ. وقد ذكر سقراط أمثلة كثيرة على مثل هذه الصورة من الاختبارات. يقول في محاورة الدفاع إن ميلتوس يبدو وكأنه يضع اختبارًا في عملية إدانة لسقراط ولائحة اتهامه. ليرى ما إذا كان سقراط، الرجل الحكيم يستطيع إدراك التناقض». ويقول في محاورة بروتاجوراس إن برودبكوس يختبر بروتاجوراس حين يقول كذبًا (هكذا يرى سقراط) إن «سيمونيدوس» قد

استخدم في قصيدته كلمة «صعب» للإشارة إلى سيء وليس للإشارة إلى شيء صعب. ويقول إن بروديكوس ليرى ما إذا كان بروتاجوراس يؤيد هذا القول». كما يقول في نفس المحاورة إن بروتاجوراس كان يختبر سقراط حين قال بروتاجوراس كذبًا (كما يرى سقراط أيضًا) إن الكمال الإنساني له أجزاء.

يوجد لدى سقراط سبب قوي يدفعه لاستخدام هذا النوع من الاختبار في طريقة تربيته أو تعليمه. نعرف من محاورة الدفاع أن سقراط يؤمن بأن الله وحده الذي لديه المعرفة الكاملة بالكمال الإنساني ومعناه. لذلك حين يدعي كذبًا أن محاوريه لديهم مثل هذه المعرفة، يستطيع أن يحدد ما إذا كانوا يرون أنفسهم من العارفين بها. فإذا ما ادعوا أن لديهم هذه المعرفة فإن هذا الادعاء الكاذب الذي يقولون به يُمكن سقراط من كشف التناقض لهم، الأمر الذي قد يساعدهم على الوعي بجهلهم.

لا أجد طريقة أفضل من هذه الطريقة في التعليم، أي التعليم عن طريق افتراض زائف أو خاطئ لمساعدة الذين لا يعترفون بجهلهم. قد لا يعد هذا الأسلوب في التعليم «خاليًا تمامًا من الأخطاء». فإنه أكثر فائدة من عملية مواجهة المتحاور بأنه إتيان جاهل. إذ يصبح الشخص الذي يخضع لأسلوب مخالف لهذا الأسلوب، وفق خبرتي، واعيًا فقط بافتقار المتحدث للياقة. قد يصاب العديد من القراء حين لا ينتزع سقراط الأفكار الإيجابية مباشرة من المعاونين معه. وأود أن أقول للتهدئة من شعورهم بالإحباط بأن المتحاورين من أصحاب المستوى الأدنى للحكمة يحتاجون إلى الوصول إلى المستوى المتوسط لها أكثر من حاجتهم إلى عدد قليل من المقدمات والنتائج التي قد تزيد من قدر غرورهم من الاعتقاد بأنهم حكماء.

فيما يلي الخطوات التعليمية الأربع التي يستخدمها سقراط مرات متعددة مع المتحاورين معه من أصحاب المستوى المعرفي الأدنى:

1 - السؤال: يطرح سقراط سؤالاً.

2 - افتراض خاطئ: يقدم للمتحاور إذا دعت الضرورة اقتراحًا خاطئًا أو زائفًا فإن فكرته تبدو صحيحة أو حقيقية للجاهل.

3 - القبول: يقبل المتحاور فكرة سقراط.

4 - التفنيد: يفند سقراط إجابة المتحاور معه.

فإذا ما نجح سقراط في إيقاع المتحاور في التناقض، يقوم بتكرار سؤاله الرئيسي وفقًا لما تتطلبه الضرورة حتى يعترف المتحاور بجهله أو ينهي المناقشة.

محاورة مينو

تبين مناقشة سقراط مع العبد في محاورة مينو. هذه الخطوات الأربع، ولا تعد معرفة سقراط بالهندسة في هذه المحاورة أو اهتمامه بمذهب تناسخ الأرواح من الصفات المميزة لشخصية سقراط كما ظهرت في محاورة الدفاع. ويتجه التفسير التقليدي (والذي اتفق معه تمامًا) إلى اعتبار الفقرة الخاصة بالحوار مع العبد تمثل آراء أفلاطون واهتماماته وليست خاصة بصورة شخصية سقراط التاريخية. ولا أعرض هذه الفقر لبيان اهتمام سقراط بالمعرفة الرياضية أو بمذهب التناسخ، وإنما لأبين فقط طريقته في التعليم عن طريق طرح معلومات خاطئة. يبدأ الصبي كما يقول سقراط من المستوى الأدنى للمعرفة، أي يعتقد أنه يعرف بينما هو لا يعلم. ونجد خطوات الاختبار المتوقعة كما يلي:

- «سؤال: إذا كان لديك مربع مساحته أربعة أقدام فكم يكون طول ضلع مربع مساحته ثمانية؟

- افتراض كاذب أو خاطئ: ضلع هذا المربع قدمان، فماذا يكون طول ضلع المربع الذي يضاعف حجمه؟». يقترح «سقراط» النظر إلى ضلع المربع الذي مساحته أربعة بدلاً من النظر إلى طول قطره. ويُعد هذا الاقتراح خاطئًا أو مضللاً مثل اقتراحه بأن ضلع هذا المربع قدمان بالنسبة للمربع الذي يضاعف مساحته.

- القبول: من الواضح يا سقراط أنه ضعف الحجم.

- التفنيد: يستمر سقراط في توجيه الأسئلة للصبي السؤال تلو الآخر حتى يتراجع الصبي عن إجابته.

- سؤال: يكرر سقراط السؤل الأصلي.

- افتراض مضلل: يبين سقراط أن مضاعفة طول ضلع المربع ذي الأربعة أقدام تنتج مربعًا ذا ستة عشر قدمًا، وبالتالي يكون المربع ذو الثمانية أقدام ضعف المربع ذي الأربعة أقدام ونصف القدم والمربع ذي الستة عشر قدمًا، ويكون ضلع المربع ثمانية أقدام أكبر من قدمين وأصغر من أربعة. يستمر سقراط في تضليل الصبي وتوجيه انتباهه إلى أضلاع المربع الذي مساحته أربعة والمربع الذي مساحته ستة عشر. ويفترض أن هناك علاقة معينة بين هذه الأضلاع ترتبط بالحل.

- القبول: يبدو أن الصبي قد تأثر باقتراح سقراط بقوله؛ إن المربع الذي مساحته ثمانية أقدام يكون طول ضلعه ثلاثة أقدام.

- التفنيد: يقوم سقراط مرة أخرى بتوجيه الأسئلة حتى يتراجع الصبي عن إجابته.

- سؤال: يعيد سقراط طرح السؤال الأصلي من جديد.

يصف الصبي نفسه حين يصل إلى هذه النقطة من الحوار بأنه جاهل. يقول «بحق زيوس يا سقراط لا أعرف. فقد وصل إلى المستوى المتوسط وأدرك جهله «ويسعد بالبحث عن المعرفة». يقوم سقراط بعد هذا الاعتراف بسؤال الصبي مجموعة من الأسئلة الإيجابية بدلاً من الأسئلة السلبية مبرهنًا على أن ضلع المربع الذي مساحته أربعة يساوي طوله قطر المربع الذي مساحته قدمان. ويؤكد سقراط أن الصبي حتى هذه اللحظة ليست لديه معرفة وأنه يحيا حالة تشبه الحلم. يقول: «إذا ما طرحت عليه نفس هذه الأسئلة في مناسبات مختلفة وبأسلوب مختلف (من قبل من يعرف الهندسة) فإنه يستطيع أن يحصل على المعرفة التي قد يحصل عليها أي فرد آخر حول نفس الموضوع».

يجب ألا نتوقع الوصول إلى هذه المرحلة- استخلاص الأفكار الإيجابية- في الحوار مع لاخيس ونيسياس وأوطفريون، طالما أن أيًا منهم لم يصل المرحلة

المتوسطة في حواره مع سقراط. فقد كان موضوع محاورتي لاخيس وأوطفريون الكمال الإنساني وليس الهندسة. وربما إذا ما قبلنا بالفرض القائل بأن «التقوى» ليست إلا العدل، وتشكل الشجاعة كل الكمال الإنساني، فإننا نجد أن هناك نوعًا من التوازي بين هاتين المحاورتين والفقرة الخاصة بالصبي في محاورة مينو.

سقراط محاور لاخيس نيسياس

ننتقل لمحاورة لاخيس، حيث يختبر سقراط لاخيس ونيسياس. يقول نيسياس بمجرد سماعة الأسئلة التي يوجهها سقراط «إنه يعلم بأسلوب في الاختيار» ويتنبأ بأن سقراط لن يتركهما إلا بعد اختبارهما جيدًا يتفق الجميع على أن المسألة «تتعلق بكيفية إكساب الكمال الإنساني لأبنائهم وجعل حياتهم أفضل حالاً».

ويستنتج سقراط بالتالي «فإننا في حاجة إلى معرفة معنى الكمال الإنساني، «لأننا إذا لم نعرف معناه لن يكون في مقدورنا تقديم النصح بأفضل الطرق التي يتم اكتسابه بها». يطرح سقراط فكرته الرئيسية بعد موافقة لاخيس على هذا الاستنتاج، ولذلك «نقول بأننا نعرف معنى الكمال الإنساني».

يمكن أن يُفسر الافتراض الخاطئ الذي يضعه سقراط لأسباب تربوية أحيانًا ليختبر به تظاهر مستمعيه بالحكمة وادعائه بأن يعرف وبأنه يقوم باختبار لاخيس ونيسياس، كما قد توقع نيسياس، وكما توقعنا من طريقة حواره مع الصبي في محاورة «مينو» أيضًا. ومن الواضح أن سقراط يقوم بنفس طريقة الاختبار التي يصف الآخرين بأنهم يتبعونها.

ليس من الإنصاف اتهام سقراط بالكذب حين يختبر لاخيس بهذه الصورة يبين سقراط له أن ادعاء المعرفة متضمن في النصيحة. ويوافق لاخيس على وجود مثل هذا التضمن في النصيحة. ولم يُقدم أي تحفظات على النصيحة التي قال بها أو اقترحها. يستنتج سقراط ما يترتب على موافقة لاخيس. إذ (طالما أننا نريد أن نقدم النصيحة) نعترف ضمنيًا (أننا نعلم معنى الكمال الإنساني). ويوافقه لاخيس على ذلك «بالطبع نقول بذلك». ولا يجب أن نعتبر سقراط كاذبًا

حين يقول نحن ويستخدم صيغة الجمع بالنسبة لوعيه بالجهل، وإنما يجب أن نعتبرها أول خطوة يؤكد بها موافقة لاخيس التي يؤكد تناقضها فيما بعد.

يفسر الافتراض الخاطئ المطروح قولاً آخر لسقراط اقترح به اتصاف لاخيس ونيسياس بالحكمة. ولا أستغرب تعلمها الحكمة أو اكتشافها، فهم أكثر ثراءً وربما تعلموها على يد الآخرين. كما أنها أكبر سنًا مني، وبالتالي كانت لديهم فترة أطول لاكتسابها. وإذا لم تكن لديهما ثقة في حكمتهما لما تحدثا دون تردد عن الأمور التي قد تنفع الشباب أو تضرهم». ليس من الإنصاف وصف مثل هذا القول بأنه نوع من السخرية. بل المسألة على خلاف ذلك. وينم عن الأخلاق الحميدة ومبدأ المحبة. إذ يحاول سقراط أن يفترض أفضل ما لدى الناس، وبالتالي يستطيع أن يوضح ادعاءهما المعرفة. ولئن كان اقتراح سقراط بتمتع محاوريه بنصيب وافر من الحكمة يُعد مجاملة إلا أنه يخدم في الموقف نفسه عملية الاختبار. ويعطي الفرصة لمحاوريه لأن يقبلوا أو يرفضوا قوله بأنهم حكماء.

توجد تفسيرات أخرى متعددة لطريقة البدء بالافتراض الخاطئ. فربما كان سقراط متناقضًا مع نفسه وليست لديه أمانة علمية، ويريد أن يتلاعب بالآخرين ولا يخدم الله. نستطيع أن ندحض مثل هذه التفسيرات التي لا تتصف بالإنصاف إذا ما لجأنا للنصوص ذاتها. إذ نلاحظ أن البدء بالافتراض الخاطئ باعتباره أسلوبًا للتربية يفسر نظرية سقراط الأخلاقية. ليست النظرية التي ظهرت في الفترة بين محاورتي لاخيس والدفاع وإنما في محاورة لاخيس ذاتها. ويؤكد سقراط على إنكاره معرفة الكمال الإنساني في ص من المحاورة وفي خاتمتها الأمر الذي يتعارض مع قوله «إننا نعرف معنى الكمال الإنساني».

من الواضح أن لاخيس في المستوى الأدنى للمعرفة بسبب ثقته الزائدة في صحة عباراته. يقول «نعم نعلم معنى الكمال الإنساني». ويقول أيضًا «يسهل معرفة معنى الشجاعة». وبالتالي يناسب حواره مع سقراط تطبيق نمط التربية عن طريق البداية بافتراض خاطئ:

الافتراض خاطئ: دعنا لا نبدأ بالكل. ودعنا نبدأ بجزء (من الكمال الإنساني، ومن (الشجاعة).

القبول: يقول «لاخيس» نعم بالتأكيد».

السؤال: ما معنى الشجاعة؟ لم يجتح لاخيس لأي معاونة من سقراط. ويبدأ بتقديم مثل محدد عن الشجاعة. يقول «بأن الشجاعة تعني الثبات في الموقع».

التفنيد: يبين سقراط له أن إجابته قد فشلت في تعريف الشجاعة.

السؤال: «حاول مرة أخرى تعريف الشجاعة». لم يتلق لاخيس تلقينا أيضًا من سقراط ويقول: إن الشجاعة تعني قوة تحمل النفس.

التفنيد: يطلب سقراط من لاخيس مراجعة تعريفه للشجاعة بأنها القدرة على تحمل النفس.

يناقض «لاخيس» نفسه حين نصل إلى هذه النقطة في المحاورة. ونجد حين نقارن موقف «لاخيس» بموقف الصبي العبد ووعيه الذاتي، أن «لاخيس» يرد الحيرة التي وقع بها أثناء المناقشة إلى شيء آخر غير جهله بموضوع المناقشة. يقول «لم أعتد على هذا النوع من البحث، وأشعر بالحزن الشديد من عدم القدرة على التعبير عن مقصدي بوضوح، وذلك لأنني أعرف طبيعة الشجاعة ومعناها».

ينتقل «سقراط» إلى «نيسياس». ونلاحظ اتباعه لنفس خطوات عملية الاختبار: سؤال: حدثنا يا «نيسياس» ماذا تعني الشجاعة.

افتراض باطل: يستمر «لاخيس» في توجيه الأسئلة إلى نيسياس إلى أن يأتي دور سقراط. فإذا به يسأل نيسياس أو يبدأ معه بوضع افتراض باطل. يقول سقراط «لقد سبق أن قلت إن الشجاعة جزء، وتوجد هناك أجزاء أخرى إذا ما جمعت كلها شكلت الكمال الإنساني. أتقول في هذه الحالة بنفس ما أقول به؟ إذ أرى أن أشياء مثل رجاحة العقل والعدالة، وما يشابهها تشكل الكمال الإنساني ألا تقول بنفس ما أقول؟

القبول: «بالتأكيد».

التفنيد: يفند سقراط تعريف نيسياس.

لم يجد سقراط الفرصة لتكرار عملية طرح الأسئلة على نيسياس بسبب بعض ملاحظات الفاحشة. وينهي نيسياس عملية الاختبار بقوله «لقد قيل ما يكفي في هذا الموضوع». ولم يعترف نيسياس بجهله.

محاورة أوطيفرون

ننتقل أخيرًا لدراسة محاورة «أوطيفرون». يحيا أوطيفرون كما يحيا لاخيس ونيسياس ويظن أنه يعرف طبيعة التقوى (التقديس). ونلاحظ مرة أخرى وجود نفس طريقة التعليم التي يمارسها سقراط:

- سؤال: «ما معنى التقوى (التقديس)؟» لم يحتج أوطيفرون إلى تلقين من سقراط، ويقدم مجموعة من الأمثلة المحددة بدلاً من تقديم تعريف عام للتقوى.

- تفنيد: «يبين سقراط له أن الأمثلة التي يطرحها لا تقدم تعريفًا عامًا للتقوى.

- سؤال: «علمني ما معنى التقوى؟ يجيب أوطيفرون مرة ثانية دون معونة من سقراط» بأن التقوى (التقديس) ما يسعد الآلهة.

- تفنيد: يطلب سقراط من أوطيفرون أن يراجع تعريفه للتقوى بأنها ما يُسعد الآلهة. ثم يطالبه بالاعتراف بأن التعريف السابق الذي وضعه غير صحيح.

- سؤال: قل لنا مرة أخرى ما معنى التقوى؟

لم يستطع أوطيفرون حين وصل إلى هذه النقطة في النقاش الإجابة. ولم يصل إلى المستوى المتوسط كما وصل الصبي وأدرك جهله. ويقوم بدلاً من ذلك بتوجيه اللوم إلى سقراط على فشله في الإجابة. يقول: لست قادرًا يا سقراط على نقل ما يجول في خاطري. وإنك لعبقري وتستطيع تفنيد الأحكام. يظل سقراط وفق منهجه التعليمي الذي نتصوره، يقدم الافتراضات الخاطئة حتى يصل أوطيفرون إلى المستوى المتوسط. وهذا ما نلاحظه جميعًا يلي:

- افتراض وبداية خاطئة: يسأل سقراط أوطيفرون بعد الحصول على موافقته على أن «التقوى هي العدالة» وهل كل ما هو عادل يكون تقيًا (مقدسًا) أيضًا؟ ثم ينتقل سقراط إلى المقارنة بين علاقة الخوف بالتقوى. ويرى أن علاقة العدالة

بالتقوى تشبه علاقة الخوف بالتقوى، أي علاقة «كل بجزء».

- القبول: يوافق أوطيفرون على قول سقراط ووجهة نظره. ويقول «يبدو الأمر هكذا يا سقراط وما تقول صحيح».

- التفنيد: يحاول سقراط ولكنه لم يكمل عملية التفنيد.

يصاب ،سقراط بالإحباط من إجابة أوطيفرون المراوغة، والتي لا معنى لها حين يسأله عن «ما الفائدة الكبرى التي تعود على الآلهة حين يطلبون من البشر خدمتهم؟ يميل أوطيفرون للمطابقة بين التقوى والعدالة وإلى تعارض حياة التقوى مع حياة الظالمين من الناس. وتبدو أن عملية المشابهة كانت أمرًا طبيعيًا لدى اليونانيين. وقد اعتمد عليها سقراط في محاورة بروتاجوراس وتأكيده على التوحيد بين التقوى والعدل يتوقع سقراط وفق هذا الاتجاه العام أن يجيب أوطيفرون عن سؤاله عن كيفية خدمة الآلهة بالقول: «لا تتم خدمتها ببناء السفن أو بالانتصار في الحروب أو بفلاحة الأرض وإنما تتم بالأفعال العادلة أو إعمال العدالة». ربما إذا أجاب أوطفريون بمثل هذه الإجابة لتمكن سقراط من الاستمرار في محاولته لكشف التناقض مع افتراضه السابق الزائف بأن التقوى ليست إلا جزءًا من العدل. فإن أوطيفرون يفتقر إلى إجابة جديدة مختلفة تمامًا يقول فيها «بأن التقوى تعني كيفية الصلاة وتقديم القرابين».

- افتراض خاطئ (البداية المضللة): «أيتمثل عطاؤنا الحقيقي للآلهة في أن نقدم لها تلك الأشياء التي قد تحتاجها معًا؟». اعتبر أن مثل هذا السؤال الافتراضي بداية مضللة وذلك بسبب اتفاقهما المسبق على أن الآلهة تستفيد شيئًا منا.

- القبول: «حقًا يا سقراط».

- تفنيد: يرفض أوطيفرون أن تصبح التقوى صفقة تجارية يُقدم البشر بها العطايا للآلهة. ويقول لسقراط: «ماذا، يا سقراط، أتفرض أن الآلهة تربح شيئًا مما يحصلون عليه من البشر؟».

قد يستطيع سقراط الآن السؤال «عن ما العطايا التي نقدمها للآلهة»؟ والذي

نتوقع أن يجيب عليه يوناني مثل أوطيفرون بأن أفضل عطية يمكن أن يقدمها البشر للآلهة تتمثل في تحقيق العدل في أفعالنا ومعاملة بعضنا بعضًا بصورة عادلة». ربما كانت مثل هذه الإجابة قد سمحت لسقراط باستخدام افتراضه المضلل السابق «بأن التقوى ليست إلا جزءًا من العدالة» لدحض قول أوطيفرون والسعي إلى نقله إلى المرحلة المتوسطة. فإن أوطيفرون لم يقل بهذه الإجابة. وذهب في اتجاه مخالف تمامًا في إجابته وإلى عملية تفنيد مختلفة أيضًا. يبدأ سقراط سلسلة أخرى من الأسئلة. يقول «يجب أن نعود ونبدأ من جديد في البحث عن معنى التقوى». فإن أوطيفرون ينهي المناقشة ويهرول مسرعًا إلى الخارج غير معترف بجهله على الرغم من الجهود التي بذلها سقراط، وبالتالي لم يتمكن من الانتقال إلى المستوى المتوسط.

الشك في التفسير

تبين عملية البدء بافتراض باطل طريقة سقراط في التعليم ومساعدة الآخرين على الانتقال من المستوى الأدنى إلى المستوى المتوسط للخير الإنساني أو للحكمة. إذ يعتقد من يحيون في المستوى الأدنى أنهم عالمون بينما هم في الحقيقة جهلة. يصف سقراط طريقته في اختيار الناس ووعيه بأسلوبهم بأنه يضع بداية مضللة بافتراض زائف، ويرى ما إذا كانت الآخر قادرًا على كشف زيف هذا الافتراض. تفسر هذه البداية المضللة بافتراض زائف غرابة سلوك سقراط وعدم اتزانه. ويفسر هذا الافتراض أيضًا لماذا يقترح سقراط على الرغم من معرفته بأن التقوى ليست إلا العدالة، والشجاعة ليست إلا الكمال الإنساني كله، بأنهما على خلاف ذلك لكل من أوطيفرون ولاخيس ونيسياس. ونستطيع أن نعتبر سقراط منفذًا لأوامر الآلهة ومحاولاً كشف جهلهم وحثهم على الاعتراف بذلك بدلاً من النظر إلى مناقشاته على أنها نوع من التسلية والتلاعب بالآخرين. ونستطيع إذا ما اعترفنا بنظامه التعليمي وأسلوبه أن ندرك آراءه في الكمال الإنساني. ونقبل في الوقت نفسه دعواه بأنه مخلص نفوس البشر من جهلها.

دعنا ننتقل إلى اعتراض أخير. يقول بأن هذا الفرض بالبداية المضللة يهدم نفسه بنفسه. إذ يبدو أن الاستنتاج الوحيد الذي يبدو معقولاً من مثل هذا الفرض بالبداية المضللة تقتضي الشك الكامل في آراء سقراط التي وردت في هذه المحاورات أي رفض أي افتراض لتفسيرها.

أعترف في الرد على هذا الاعراض بأنه ليست هناك فكرة واحدة محددة في هذه المحاورات يمكن استخدامها باعتبارها دليلاً أو برهانًا. فإن ما قد يمكننا من مواجهة هذا الشك في التفسير لا يكون بالعبارات والأقوال المنفصلة الواضحة والمحددة وإنما بما نستنتجه من مسارات النقاش. إذ يقدم سقراط لنا في هذه المسارات، وكما قد بينت مجموعة من النتائج الجديدة وغير التقليدية. وطالما أن هذه المسارات الحوارية وأسلوبها معقولة من وجهة نظري، فإن التفسير المنصف لسقراط ولآرائه لابد أن يؤكد على قبول سقراط لها ولمعقوليتها وعلى الأقل للنتائج التي تنتهي إليها.

تتمثل مهمتنا إذن في تجنب الشك في نظرية سقراط الخلقية. ويجب أن نستمر في فحص حججه وبراهينه لمعرفة ما إذا كانت مدعاة للسخرية والضحك كما تبدو في ظاهرها، أم أنها تبدو مقنعة ومعقولة حين يتم تناولها بدقة وفحصها الواحدة تلو الأخرى. يترتب على اتباع هذا المدخل أن عملية معرفة كيفية تفسير أقوال سقراط ومحاوراته تشبه عملية معرفة الحقيقة المتعلقة بالكمال الإنساني، المذهب الذي دافع عنه سقراط نفسه.

الفصل السابع

الحب عند سقراط

هل كان رأي سقراط في الحب صادم للعشاق والمحبين؟!

رأى العامة سقراط معلمًا تلاميذه المعجبين به والسائرين على خطاه بأن الإرادة الطيبة للمحبين ليست كافية لرد الجميل. ويجب على الناس أن تستبدل محبة من لديهم القدرة على تقديم الفوائد العملية بمحبة الروابط العاطفية الحميمة للأسرة. كانت مثل هذه الآراء والأفكار تبدو جافة وسطحية في زمن سقراط كما تبدو في زمننا الآن. استخدم اليونانيون في ذلك الوقت كلمات عديدة للتعبير عن الحب. ونجد في الأدب اليوناني والفلسفة العديد من النماذج التي تشير إلى العلاقات الإنسانية والحب، والتي تشبه إلى حد كبير الكلمات التي نستخدمها اليوم للتعبير عن نماذج المحبة. فنجد كلمات مثل الحب المحتاج (مثلاً في الحب الرومانسي والجنس) والحب المانح (الحب الأبوي للأبناء) والحب المتكافئ (الذي يوجد بين الأصدقاء).

ليس مستغربًا أن يسخر الأثينيون من آراء سقراط وأفكاره. ولقد سخر «أرسطوفان» في مسرحية الشعبية «السحب» من آراء سقراط لأسباب متعددة. فإن قمة السخرية منه قد بلغت ذروتها حين تظهر أحد تلاميذه «يضرب والده» عدة مرات مبررًا فعلته بأن «الضرب يعني المحبة». كان تقليد أسلوب سقراط بقصد السخرية منه وإثارة الضحك عليه أمرًا منصفًا؟ يقول سقراط لثيديموس بأنه يرغب إيذاء المحبين، إذا كان في ذلك فائدة أو نفع. وليست هناك غرابة أن تؤدي مثل هذه العبارات التي قال بها سقراط إلى اتهامه ومحاكمته. إذ اتهم بأنه يتوقع أن يكون الأبناء أكثر حكمة من الآباء. وبالتالي يمكن أن يسيئوا لآبائهم. لقد

باتت آراء سقراط القاسية تهدد سلطة الآباء على أبنائهم وهي سلطة تأسست على التقاليد والأعراف وليس على المعرفة والحكمة.

جميع آراء «سقراط» عن الحب من أحد الأسباب التي دفعت لاتهامه والحكم عليه بعقوبة الإعدام بسبب إفساده الشباب. وجاءت التهمة الثانية التي وجهت له أثناء المحاكمة أشبه بالتهم التي وجهت إلى/ علماء الطبيعة الجدد عن الاستخفاف بالآلهة والحط من شأنها. ولئن رأي كل من أفلاطون في محاورة الدفاع. وإكنوفون في المذكرات أن هذه التهمة من السهل دحضها فإنهما لم ينكرا أن سقراط قد دفع تلاميذه إلى الإيمان بمجموعة من الأفكار المشينة حول الحب. يعترف إكسنوفون بلغة باردة وثقة شديدة بأنه يعلم أن سقراط قد قال مثل هذه الأشياء عن الآباء والأسرة ومن يحبهم. ولئن لفت سقراط النظر في محاورة الدفاع أن اتهامه بهذه التهمة جاء بسبب الأقوال التي نشرها «أرسطوفان» وغيره عنه، وليس بسبب إدانته في المحكمة. فإنه لم يذكر في محاولة دفاعه عن نفسه أيًا من آرائه المشينة عن الحب.

سقراط ومحاورة لسيس

ينسب «أفلاطون» في محاورة لسيس، نفس المعنى الذي نسبه كل من إكسنوفون وأرستوفانيس» لسقراط عن الحب، ويوضح هذا المعنى من الناحية التاريخية نمط الحب اللذين امتلأت بهما حياة سقراط أي حب المحتاج وحب المانح. تمثل حب المحتاج العظيم في رغبته في الحصول على الحكمة العملية التي تمكن الإنسان من الحياة الطيبة التي يعتبرها سقراط ذات أهمية قصوى غير محدودة:

«قد يكون من الأفضل لمن لا يعرف كيف يرتقي بنفسه أن يموت بدلاً من أن يحيا وفق أهوائه. أما إذا قدّر له أن يحيا فإن من الأفضل له أن يحيا عبدًا وليس إنسانًا حرًا.

يمثل حبه المانح، أي تعاطفه الديني تجاه البشر النمط الثاني من الحب إلى جانب نمط حبه الأول، أي حبه المحتاج للحكمة- الفلسفة- فوق قوله «يؤكد أن الإله الذي تحدث معه في معبد دلفي قد أمره» بتحويل الجهلة بالفلسفة إلى حياة

التفلسف. ويعتقد سقراط أن عملية التحويل هذه تُعد من أهم أوجه الخير التي يمكن أن يقدمها إنسان لأخيه الإنسان.

تقدم لنا محاورة ليسس صورة عن سقراط في عامه الستين يدافع عن الآراء المشينة والفاضحة التي أدين سقراط التاريخي بسببها. ويوجد بعض المحاورات الأفلاطونية الأخرى التي تحدث فيها سقراط باستفاضة مثل محاورتي المأدبة وفيداروس. تصف «المأدبة» الموضوع النهائي للحب بأنه غامض وتجربة صوفية خالصة، ومجال مجرد خالص. بينما تقدم محاورة فيداروس صورة رمزية للعاشق تشبه بمركبة خالدة لتناسخ الأرواح. ولئن كانت مثل هذه المعاني تتسق إلى حد ما مع بعض الآراء التي وردت في محاورة ليسيس فإنها لا تعد دفاعات مباشرة تتسق مع الآراء والأفكار التي قال بها سقراط التاريخي. وربما كان الدراسون على حق في اعتبار محاورتي المأدبة وفيداروس تعبر عن آراء أفلاطون وليس سقراط.

ربما يتساءل المرء إذا ما تركنا جانبًا التفسيرات الصوفية والخرافية للحب الذي تناولت موضوعه محاورتا المأدبة وفيداروس عن لماذا يجب أن ندرس آراء سقراط الشاذة والغريبة التي وردت في محاورة ليسيس؟ لن أقدم إجابة أكاديمية وإنما كما جبلت عند تفسير آرائه على أن أقدم إجابة عملية وواقعية. ولقد لاحظت أن سقراط يقدم لنا تفسيرًا واحدًا للحب يفرضه علينا مهما وصفنا حججه بالشذوذ والغرابة. بينت في بداية هذا الفصل أن سقراط يعرف مذهبه عن «الحب» في محاورة ليسيس بصورة واضحة تمامًا. ولا يعني بالحب إلا الرغبة الملحة في الحكمة العملية، ثم بينت أيضًا بأن هذا المذهب يتسق بل يكاد يتطابق مع فكرة أخرى ضمنية عن الحب قدمها سقراط في محاورة ليسيس أيضًا. واعتبرتها فكرة مطمورة لأن سقراط لم يصرح بها بشكل واضح وصريح وإنما تضع حججه بعض المقدمات التي تؤدي إلى استنتاجها. وتؤيد فكرة عملية تطابق مذهبه الواضح الذي صرح مع هذه الفكرة الضمنية المطمورة التفسير الذي أقدمه لمحاورة ليسيس. وأقدم أيضًا فيما بعد بعض الحجج والآراء التي قال

بها سقراط وتؤيد هذا التفسير الذي أقدمه، بل والذي قد يتسق مع العديد من النقاط المهمة التي وردت في كتابات أفلاطون واكسنوفون عن آرائه في الحب.

لقد دافعت عن معنى الحب عن سقراط على الرغم من غرابته ببيان مدى قوة منطقه وبالرد على أهم الاعتراضات التي قد وجهت إليه. يتمثل الاعتراض الرئيسي في أن سقراط قد قدم لنا فقط معنى محبة المحتاج وتجاهل المحبة المانحة الأمر الذي يجعل المعنى ناقصًا وتفسيره غير كامل. يتأسس هذا الاعتراض الذي أناقشه عن فهم خاطئ لمحاورة ليسيس التي تقدم لنا تفسيرًا لمعنى محبة المنح ومحبة الاحتياج أيضًا. يُعد الاعتراض الذي قدمه أرسطو لمحاورة ليسيس من أقوى الاعتراضات ويدور حول إهمال سقراط لنمط مهم من أنماط المحبة يتعلق بالمحبة المتكافئة بين الأصدقاء. إذ يبدو أن هذا النمط لا يقبل الرد إلى المحبة المحتاجة والمحبة المانحة. لا يشبه هذا الاعتراض الذي قدمه أرسطو الاعتراض الرئيسي، لأنه يتأسس على قراءة دقيقة للنص. وأحاول أن أبين في الرد الذي أقدمه على هذا الاعتراض كيف فسر سقراط هذا النمط في ضوء مجموعة من الحاجات المتبادلة الأساسية.

ويواصل سقراط آرائه وأفكاره حول الحب

ويتحدث سقراط مع هيبولتاليس الشاب المحب للشاب ليسيس. ويدّعي سقراط أنه قد تعلم من الإله القدرة على «التوحيد أو الجمع بين العاشق والمعشوق». ويتحدث سقراط عن معلم واضح «بالأمور المتعلقة بهذا الحب». وحين يُسال عن كيفية «اكتسابه محبة الأولاد». يعترف بأن «لديه القدرة على الحديث». بصورة «تجعله يكتسب محبة الولد». يقدم سقراط في حواره مع الشاب ليسيس مذهبًا غير تقليدي في الحب، وتفسيرًا لما يسبب هذا الحب وكيف تنميه الحكمة.

يجب أن ننظر لهذا العرض بصورته الحرفية حتى نتمكن من الإلمام بآراء سقراط عن الحب ومعناه، وذلك للأسباب التالية: أولاً: توجد مجموعة كبيرة من

الكتابات تؤكد أن سقراط قد اكتسب السمعة بسبب هذا المعنى الذي قدمه للحب.
ثانيًا: يوجد دليل واضح على هذا المعنى ذاته في محاورة ليسيس نفسها. فقد تحدث سقراط عن الحب بثقة شديدة وباعتباره صاحب خبرة ذاتية. كذلك لوحظ أن ليسيس قد أخذ الموضوع باهتمام شديد رغبة منه في الإلمام بكل جوانبه حتى يستطيع مناقشته مع صديقه مينكسينس فيما بعد. يسأل سقراط عن الجزء الذي ربما قد ينساه من الموضوع كذلك نلاحظ أن سقراط من جانبه قد نظر للموضوع بجدية، وطلب من ليسيس أن يستوعبه قدر الإمكان حتى يستطيع نقله كاملاً وبصورة واضحة إلى مينكسنس، ولا ينسى أي جزء منه. كما تتمثل أهمية هذا الحوار في أن ليسيس لم يكن مؤيدًا لسقراط في عرضه للموضوع إلا في تلك النتائج والآراء التي تتفق مع خبرته الخاصة ذاتها، فلم يتفق مثلاً مع سقراط في استنتاجه بأن والديه لم يمنعاه عن فعل ما يحلو له. وتُعد موافقة ليسيس على العرض بالتالي دليلاً واضحًا على اهتمامه بحديث سقراط وأخذه على محمل الجد، وعلى أن سقراط من جانبه كان جادًا في عرض الموضوع ونتائجه.

يبدأ سقراط عرضه باستدلال قوي ومقدمة واضحة. يتمثل هذا الاستدلال القوي في أنه طالما أن والدي لسيس «يحبانه حبًا شديدًا. فإنهما يرغبان أن يتمتع بأكبر قدر من السعادة». من الواضح أن هذا الاستدلال يستخدم كلمة الحب بمعنى «الحب المانح». يخلط سقراط في محاورة ليسيس بين الحب المانح والحب المحتاج ويستخدم كلمة يونانية واحدة للتعبير عنها كما لو كان النمطان جزءين للحب أو جانبين له أو طرفين في علاقة واحدة. وأبين فيما بعد أن سقراط يعتبر هذا التبادل بين الجانبين أو النمطين أمرًا ضروريًا. فالحب علاقة متبادلة.

يتفق الاثنان بعد ذلك على هذه المقدمة الواضحة بأن السعادة تتطلب «أن يكون المرء حرًا وقادرًا على فعل ما يريد». يؤدي افتراض صحة هذه المقدمة وذلك الاستدلال القوي إلى ضرورة تفسير سلوك الوالدين تجاه ليسيس. إذ لم يتركاه يفعل ما يريد، وجعلاه يخضع في سلوكه لرقابة الآخرين في كل تصرفاته

وحتى فيما يخصه وما يتعلق بجسده. لم يصلح التفسير الأول الذي قال به ليسيس لأسباب سلوك والديه بأنه لم يكن ناضجًا لدرجة كافية تجعله حرًا فيما يفعله إذا كان حرًا على الأقل في القيام ببعض الأفعال كالقراءة والكتابة والعزف. وأخيرًا تمكنا من أن يجسدا تفسيرًا ناجحًا لسماح والديه له بالقيام ببعض الأفعال بحرية مطلقة وعدم السماح له بهذه الحرية للقيام بأفعال أخرى. فلقد سمح له والداه بالحرية طالما كانت «لديه معرفة» بالأمر.

إذا كان الوالدان يرغبان في تمتعه بالحرية والسعادة وليس في تعليمه القيادة أو في أن يكون نساجًا أو عازفًا للموسيقى وإنما كائن إنساني، فإنهما لابد أن يعلماه الحكمة وليس مهارة القيادة أو النسج أو العزف. يجب أن يعلماه مهارة الحياة باعتباره بشرًا. يؤيد حوار سقراط مثل هذا الاستدلال على الرغم من عدم إشارته إليه بوضوح في هذه المحاورة، وإنما أشار إليه في محاورة إتيديموس. تُعد مسألة اهتمام الوالدين بتقديم مثل هذه المعرفة بطرق السعادة للأطفال أمرًا مألوفًا في محاورات سقراط. فقد أشار لها في الدفاع. وفي محاولة لاخيس، بل جاءت هذه المسألة واضحة في تشبيه سقراط للشعراء في ختام محاورة ليسيس بأنهم مثل الآباء طالما يهتمون بالحكمة. وتوضح حقيقة أن ليسيس تنقصه المعرفة بطرق السعادة الإنسانية، السبب الذي يجعل والديه يرغبان في تأمين سعادته» ويمنعاه في الوقت نفسه من التصرف بحرية باعتباره إنسانًا. ليست وظيفة الآباء أي حين يمنحون أبناءهم المحبة أن يعلموا أولادهم القيادة والنسج أو العزف بمهارة، وإنما تعليمهم أمور السعادة الإنسانية والمعرفة بأحوالها.

قد يتفق الفكر التقليدي مع التفسير الذي قدمه للحب وافتراضه بأن الحب الأبوي يبين السبب الذي يجعل الآباء يمنحون الحرية للطفل المتعلم والأكثر حكمة. فإن الأمثلة التي ضربها سقراط تتجاوز هذا الفكر التقليدي. فلا يُمنح الوالدان الحرية للعاقل والحكيم وحدهما وإنما يمنحها له الجيران والغرباء. بل والأعداء التقليديون وأصحاب السلطة. حين يرى الأب أن ليسيس ابنه بات صاحب خبرة

ومعرفة تفوقه شخصيًا، فإنه يأتمنه على كل ممتلكاته بل وقد يأتمنه الجيران أيضًا على ممتلكاتهم. كما يجب أن نعترف أيضًا بأن أرباب الأسر يختارون من يأتمنون على إدارة استثماراتهم المالية. كذلك يأتمن الأثينيون. ليسيس على ممتلكاتهم حين يرون أنه يتمتع بالحكمة والذكاء الكافيين. ولقد ظل إلى يومنا هذا يمثل هذا الوضع هدف كل النظم السياسية الديمقراطية. وقد يأتمن ملك فارس العظيم ليسيس بدلاً من ابنه الوريث الشرعي للحكم على كل مدن آسيا في أمور الطبخ وأمور العلاج إذا ما اعتقد الملك أن ليسيس لديه خبرة ومعرفة فائقتان بهذه الأمور. قد تصل ثقته في ليسيس إلى المدى الذي يجعله يضع الملح في طعامه أو الرماد في عيني أحد أبنائه، بينما لا يسمح لوريثه بوضع أي شيء في طعامه أو لمس عينيه. تعد طريقة الطبخ بالملح من الطرق الصحيحة ولا يمكن أن يتصورها الجاهل بطرق الطبخ (فقد كان الملح القديم نوعًا من الحصى الصخري كريه الرائحة ومصابًا بالعفن). كذلك كان العلاج برماد الخشب بسبب صفاته المطهرة علاجًا نموذجيًا في العصور القديمة للعين المصابة بالالتهاب. الأمر الذي قد يندهش له الجاهل بأمور الطب. ويمكن القول إذا أردنا مثلاً من عصرنا الحديث بأن الملك قد لا يسمح لابنه وإنما يسمح لليسيس- إن كان طبيبًا للأسنان- بأن يعالج ألم أسنانه بوضع مثقاب عالي السرعة في فمه.

يوجد شرط ما حول فكرة «سقراط» يتعلق بالأسباب التي تجعل الناس تأتمن الآخرين على ممتلكاتهم. لا يأتمن أي إنسان فردًا آخر على ممتلكاته وإنما الإنسان الجاهل فقط- أي الذي يعرف أنه جاهل- يأتمن دائمًا من لديه معرفة أفضل منه على ممتلكاته. كذلك توجد بعض الاعتراضات على الفكرة. فقد لا أتجه إلى ائتمانك على ممتلكاتي ولا أثق بك إن لم تكن صاحب إرادة طيبة أو نية حسنة أثناء التعامل معي. وإن كنت تنفر مني أو تتصف بالأنانية، لن أثق بك مهما كانت درجة علمك ومعرفتك. ويُسمى هذا الاعتراض باسم اعتراض الإرادة الطيبة. كذلك يوجد أيضًا اعتراض ما يسمى بالمعرفة غير الفاعلة (المعطلة أو

العاجزة). فلا تستحق الثقة إذا كانت عواطفك تمنعك من التصرف بحكمة. وإذا حدّ انفعال الخوف أو الغضب أو الشهوة من قدرتك المعرفية أو قلل منها، لن أستطيع الثقة بك أو ائتمانك على الأشياء التي أقدرها مهما كان قدر معرفتك وعلمك (انظر الفصل الخامس للإجابة عن هذا الاعتراض). توجد عمومًا مشكلة تتعلق بالمحبة غير المتكافئة. ويبدو أن معرفتك في بعض المجالات والأمور لا تحقق الثقة المطلوبة والكافية التي تمكنك من تلبية حاجة الجاهل المحتاج للمحبة، أو تسلك بصورة تحقق المحبة المتبادلة.

قد يجيب سقراط مندهشًا في جزء لاحق من محاورة ليسيس بأنه إذا ما وجدا معرفة بأمور الإنسانية لدى إنسان لدى إنسان آخر فإن هذه المعرفة تدفع لحدوث نوع من التبادل بين حبي المحتاج ومحبته المانحة، أي تستبدل روحي محبة المانح بحبها المحتاج. فإن ليسيس لم يعترض أو يعلل من الأمثلة التي ضربها سقراط عن ثروة أرباب البيوت أو الأمور المدنية أو عملية الطبخ أو طريقة العلاج. يتفق ليسيس مع التعميم الذي قال به سقراط. ويتفق الاثنان وفق هذه الأمثلة وعلى أساسها على أن الحكمة تؤدي إلى ثقة الناس بنا. ويستبدل هؤلاء الناس محبتنا المانحة بحبهم المحتاج، الأمر الذي يدفعنا للشعور بالحرية والقوة. ويمثل ما يلي مذهب سقراط المعلن عن المحبة:

«قد يُوكل إلينا كل فرد يونيًا كان أو بربريًا رجلاً أو امرأة أمر الأشياء التي نكون على دراية ومعرفة بها. نستطيع أن نفعل ما يحلو لنا بتلك الأشياء. ولن يحول أي إنسان عاقل أو يرغب في منعنا من القيام بذلك. ونستطيع أن نفعل ما نشاء وبحرية كاملة كل ما يتعلق بهذه الأشياء. وأن نتحكم في الآخرين أو نحكمهم عن طريقها أو في الأمور والمسائل المتعلقة بها. أما بالنسبة للأشياء التي لا دراية لنا بها؛ أن نجهلها لن يعهد أي إنسان لنا الاقتراب منها أو يثق في قدرتنا على الاستفادة منها. يستطيع أي فرد- ليس فقط الغريب عنا أو ليس بيننا وبينه علاقات تربطنا- وإنما آباؤنا وأمهاتنا وأي شخص عزيز علينا أو أقرب إلينا من

والدينا، إن وجد مثل هذا الشخص، أن يمنعنا من التصرف في مثل هذه الأشياء التي نجهلها بقدر الإمكان. نجد أنفسنا نستمع للآخرين حين يتعلق الأمر بهذه الأشياء. لا نستطيع امتلاكها لعدم معرفتنا بكيفية استخدامها والاستفادة منها. اتفق معي على هذا الأمر بالنسبة للأشياء؟

- «أتفق معك».
- أيكنُّ أي فرد لنا محبة عن شيء لا نُفيد فيه؟
- قال «بالطبع لا».
- لن يُحبك إنسان ما، حتى والدك، أو يأتمنك على شيء لا نفيد نفعًا به».
- قال لن يكون ذلك مناسبًا».
- «يحبك الناس ويتقربون منك إن كنت حكيمًا لطيبتك وللاستفادة منك.

ويبتعد الناس عنك حتى أباك وأمك وباقي أفراد أسرتك وكل إنسان آخر إذا كنت جاهلاً».

توضح الأمثلة التي ضربها سقراط هذا المذهب. فإننا يجب ألا نسلم به ونعتبره غير مبرهن عليه إلا بعد أن يقدم لنا سقراط حلاً لمشكلة المحبة غير المتبادلة. فإذا كنت عارفًا وفق هذا المذهب ببعض الأمور المهمة وعلى دراية بها، فإن حكمتك تدفع بالكل- وإن شيء التحديد، أي كل الذين ليس لها دراية بهذه الأمور ويعترفون بنقص معرفتهم بها- بأن يصبحوا من المحتاجين لك، أي من أصحاب الحب المحتاج. يسعون إلى جعلك مسئولاً عن مثل هذه الأمور مهما كلفهم ذلك الأمر. ويقدمون لك مطلق الحرية في التصرف في مثل هذه الأمور وكل ما يتعلق بها.

ويطلب ليسيس بعد هذه المناقشة من سقراط بأن يتحدث مع مينكس أعز أصدقائه. يوافق سقراط على الحديث معه فإنه يطلب من ليسيس المشاركة في المناقشة إذا ما احتاج سقراط للمساعدة. تضم المناقشة مع مينكس مذهبًا مستقلاً عن المحبة ومعناها، فإنها تنتهي بأشكال بدلاً من تقديمها مذهبًا واضحًا

للمحبة. وأعتقد أن سقراط المدرك تمامًا لوحدة العاشق والمعشوق لم يعاني هو نفسه هذا الأشكال وإنما قد وضعه أمام مستمعيه باعتباره نوعًا من الاختبار لهم لأسباب تربوية. واقترح حلاً لهذا الأشكال عن طريق نوع من الاستنتاج الضمني لبعض الأفكار المتعلقة بمذهبه في الحب. يعتبر الحل الذي اقترحه أن التفسير الثاني مكمل للتفسير الأول. وبينما تقترح الأمثلة التي وردت في المناقشة الأولى بعض الأفكار المتعلقة بالمذهب ولا تقدم المذهب ذاته واضحًا. تؤدي الاعتبارات النظرية للمناقشة الثانية إلى نفس المذهب ذاته، وتحل في نفس الوقت مشكلة الحب غير المتبادل.

يبدأ سقراط المناقشة الثانية بالتساؤل عن «كيفية أن يصبح فرد ما صديقًا لفرد آخر؟»

يبدأ سقراط المناقشة الثانية بالتساؤل عن «كيفية أن يصبح فرد ما صديقًا لفرد آخر؟». بمعنى آخر ما علة الصداقة؟ تستبعد المناقشة أربع مسائل. الأولى: يؤدي الحب- أي محبة فرد لآخر- إلى أن يكون طرف من الطرفين أو كلاهما صديقًا للآخر على أساس أن حب الحاجة ليس متبادلاً، «ومن المستحيل وغير معقول» «أن يكون الشخص صديقًا لعدوه أو لمن لا يصادقه». الثانية: لا يكون التشابه هو السبب، وذلك على أن الفرد إذا كان شبيهًا بالآخر فإنه لا يستطيع إفادة الآخر. الثالثة: لا يكون الخيّر صديقًا لإنسان خير آخر. ليس بسبب أنهما يشبهان بعضهما بعضًا وإنما بسبب طيبتهما واكتسابهما للخيرية. وذلك على أساس أن الفرد إذا كان خيرًا بطبعه فإنه ليست لديه حاجة، وبالتالي لا يحب إنسانًا آخر الرابعة: لا يسبب الصراع أو التناقض المحبة، وذلك على نفس الأساس السابق أي من المستحيل أن يصادق عدوًا أو من لا يصادقه.

تحضر هذه الحجج الأربع المحبة في حالات الاحتياج للمنافع أو منحها بمعنى في نمطي محبة المحتاج ومحبة المانح. وفق ذلك يشرع سقراط في وضع نمط يضم النمطين معًا. يبدأ بمقدمة تقول بأن هناك ثلاثة أنواع من الأشياء: الخيرة،

والسيئة، والتي ليست خيرة أو شريرة. وتعد هذه التفرقة بين الأنواع الثلاثة في منتهى الأهمية لمهمة سقراط في الحياة. ويستدل سقراط انطلاقًا من هذه المقدمة والنتائج الأربع السابقة وعن طريق عملية الحذف (الاستبعاد) على أنه «لا يستطيع أن يكون صديقًا إلا الشخص الذي ليس خيرًا أو شريرًا. ولن يكون صديقًا إلا للإنسان الخيّر وحده» لم يقدم سقراط هذا النمط أو النموذج كما قدم النماذج أو الأنماط الأربعة السابقة المرفوضة باعتبارها سببًا للحب، وإنما قدمه عن طريق الاستدلال، أي باعتباره نتيجة لعملية الحذف النظري. لا يمكن تفنيد هذا الحل أو الاعتراض عليه. ويمثل مرجعية نظرية لكل محاولات سقراط لتطوير هذا التفسير العلّي للمحبة طوال الجزء المتبقي من المحاورة. كذلك يُعد هذا النموذج أو النمط بالإضافة لإمكانية بنية حوار سقراط ومناقشته مسبقًا مع مذهب سقراط في المحاورات الأخرى والقائل بأن كل الرغبات ليست إلا رغبة في الخير. ويمكن القول: إن بنية المناقشة في محاورة ليسيس واتساق المقدمة والنتائج مع محاورات سقراط الأخرى تؤكد أن هذا النموذج للمحبة من وضع سقراط نفسه ومن صنعه.

يقترح سقراط تفسير سببي لنموذجه أن السيء يدفع الذي لا يكون خيرًا أو شريرًا لمحبة الخيّر. يقول مثلاً «يحب الجسد بسبب مرضه المعرفة الطبية» «ويُعد هنا المرض هو السيئ، والطب المفيد هو الخيّر، والجسد باعتباره جسدًا لا يتصف بأنه شر أو خير». ويستمر سقراط في التفرقة بين حالة وأخرى. فحينما يصيب مرض جسدًا. وبالتالي يصبح الجسد محتاجًا، فإنه يحافظ على وضعه باعتباره لا يتصف بالخير أو الشر بينما في حالة أخرى حين يفسد المرض جسدًا لدرجة تجعله لا يستفيد من العلاج فإن وضعه يتغير. ويصبح مسيئًا أي يفقد وضعه باعتباره ليس خيرًا أو شريرًا.

يلاحظ أن سقراط في عرضه لنموذجه لم يفرّق بين ما يسمى بالموضوعات المحبوبة بصورة جوهرية وتلك المحبوبة بصفة عرضية. ويعطي نماذج ثلاثة

للموضوعات المحبوبة بصفة عرضية. الأول: «يحب المريض الطبيب المعالج طلبًا للشفاء». الثاني: يحب الأب الترياق والعربة التي تحمله لعلاج ابنه الذي تجرع السم. الثالث: تتم محبة الذهب والفضة بسبب ما يمكن شراؤه بهما». ولئن كان سقراط لم يصرح مباشرة بأن هذه التفرقة تنطبق على نمط المحبة المحتاجة والمانحة فإن الأمثلة التي ضربها إلى انطباقها على النمطين. يستنتج سقراط من وجود سلسلة من الموضوعات المحبوبة بصورة عرضية ضرورة انتهاء هذه السلسلة إلى موضوع محبوب بصورة جوهرية أي بداية. أو «صديق أول». يعترف بأننا نطلق في اللغة العادية على كلا النمطين أو الموضوعات المحبوبة بصورة عرضية والمحبوبة بصورة جوهرية اسم الموضوعات المحبوبة. ويستنتج سقراط على الرغم من هذا التشابه الظاهري في اللغة، أن الصديق الحق هو المحبوب بصفة جوهرية. (يخلص سقراط في محاورة «جورجياس» إلى القول بأننا لا نرغب إلا الخير في ذاته. أو (الجوهري). إنما نعتقد أن الأشياء القيّمة بصورة جوهرية تدفعنا للمحبة والصداقة للموضوعات القيّمة بصورة جوهرية فقط، ويجعلنا سقراط نقول بمثل هذا التفسير حين ينكر أن الموضوعات المحبوبة بصورة عرضة تكون محبوبة على الإطلاق. لم يراجع سقراط نموذجه حتى يقول بأن «من لا يتصف بأنه طيب أو سيئ يُحب الخيّر بصورة جوهرية (أو لذاته) على أساس وجود شيء ما سيئ فإن مناقشته تبرر مثل هذا التفسير.

توجد مشكلة بالنسبة للسبب الأول الذي اقترحه سقراط لنموذجه، والقائل بأن الأشياء السيئة تجعل أو تدفع الأشياء التي لا تتصف بالخيرية أو بالسوء لحب الخير. يرفض سقراط ببساطة ووضوح مثل هذا التفسير العلّي على أساس:

(1) توجد بعض الرغبات التي ليست طيبة أو شريرة حتى إن لم توجد أشياء سيئة.

(2) ما يرغبه المرء يحبه.

(3) إذا ما كانت الأشياء السيئة سببًا في المحبة فإن لم توجد هذه الأشياء السيئة لا وجود للمحبة. تعرض رقم (2) في هذه المناقشة، لاقتراح سقراط

الجديد القائل بأن «الرغبة سبب المحبة». ولذلك أنسب لسقراط نموذجًا معدلاً جديدًا للمحبة بأن الأشياء التي ليست سيئة أو طيبة تحب الخير لأنها ترغبه (ترغب الخير).

تظل هناك أيضًا مشكلة يمكن أن تواجه هذا النموذج المعدل للحب- يستبعد سقراط باستمرار النماذج السببية الأخرى وبالأخص الأول «المحب» والرابع «المعارض» كما قد ظهر من قبل- أينما يترتب عليهما وجود محبة بين الصديق وغير الصديق والتي يعتبرها سقراط نتيجة مستحيلة. ويلاحظ أنه طبقًا للنموذج المعدل أن الذي لا يتصف بأنه طيب أو شرير يكون صديقًا لغير الصديق. الأمر الذي يهدم النموذج المعدل للمحبة.

لم يثر سقراط هذه المشكلة التي تواجه نموذجه المعدل، وإنما كان يعرضه بصورة مؤقتة أو باعتبارها نوعًا من المحاولة. يحتاج سقراط إلى اعتبار المحبة متبادلة وفقًا لهذا النموذج حتى لا تتعارض الفكرة مع فروضه المسبقة التي وردت في المناقشة. لذلك وفق تفسيري لا توجد غرابة أن يصل سقراط إلى نفس هذه النتيجة فيما بعد. كذلك يوجد اهتمام بهذه النتيجة على المستوى الدرامي. إذ يُعد الصبي ليسيس وفق ما جاء في النص أو حسب السياق ملزمًا بتبادل المحبة مع عشاقه بمن فيهم كما يبدو هيبو تاليس المحبوب. ويعكس هذا الاهتمام على المستوى الدرامي الجانب النظري للبحث أو المناقشة.

كانت الخطة العامة التي اتبعها سقراط لإثبات المحبة المتبادلة كما يلي: لا تُعد الرغبة قائمة على علاقة التماثل. إذ يستطيع «أ» أن يرغب «ب» بينما قد لا يرغب «ب» في «أ». ولما كانت علاقة الانتماء تماثلية فإن «أ» قد ينتمي إلى «ب» إلى «أ». ينطلق سقراط من مقدمته القائلة بأن الرغبة بسبب وجود الصداقة بأنه أينما توجد رغبة وبالتالي محبة وصداقة يكون سبب هذه الرغبة نقصًا أو شعورًا بالحرمان. وكما يمكن أن تخلو طاولة الشطرنج من القطع التي تنتمي لها فقط (أي الملكة البيضاء وليست ملكة القلوب) ويمكن أن تحرم الأسرة

من أعضائها وليس من أي إنسان غير أعضائها فإن «أ» يمكن أن تحرم «ب»ب فقط إذا كانت «ب» تنتمي إلى «أ» أي ينتميان لبعضهما بعضًا. وهكذا يستنتج سقراط من منظومة الانتماء النتيجة التالية التي يحتاج إليها: إذا كان «أ» يحب «ب» فإن «ب» يحب «أ». كان المثل الخاص بطاولة الشطرنج الذي وُضع للتوضيح من تحليلي الشخصي، أما المثل الخاص بأفراد الأسرة فإنه متضمن في اللغة اليونانية ذاتها. فاسم الأسرة أو العائلة من جذر صفة الانتماء. كذلك يُعد اسم الأسرة في اللغة الإنجليزية مشتقًا من صفة مشابهة في التعبير الشعبي. فتعني عبارة «إنه أسرى» أنه ينتمي لنا أو نعامله كما لو كان أحد أقراننا.

تقضي حجة الحب المتبادل إذا ما صحت على المشكلة العويصة التي تواجه نموذج سقراط المعدل. وتبرر في الوقت نفسه العبارة التي يُمكن أن أصفها وفقًا لهذا النموذج. فإذا كان «أ» ليس طيبًا أو شريرًا يرغب في «ب» وبالتالي يحبه فإن «ب» تستجيب بالمحبة المانحة ويهتم بالفرد «أ». وإذا ما طبقنا هذا النموذج على النفوس البشرية، وتفسير «سقراط» للخير باعتباره معرفة بسعادة الإنسان فإننا نحصل على نفس المعادلة القائمة في مذهب المحبة عند سقراط. فحين تكون (خيّرًا) يُحبك غير الحكماء (ليسوا أخيارًا أو أشرارًا) بسبب نفعك لهم والخير الذي يعم عليهم من محبتك (تستبدل المحبة المانحة والمنفعة المفيدة بالمحبة المحتاجة).

تضعف حجة الحب المتبادل أمام معارضة الفكر التقليدي. لنفترض أن المحتاجين أي الذين ليسوا أخيارًا أو أشرارًا يعانون النقص وبالتالي ينتمون بمعنى من المعاني إلى الخير الذي يحبونه. السؤال الآن: لماذا يجب على الأخيار أن يقابلوا المحبة المحتاجة لمن ليسوا أخيارًا أو أشرارًا لمجرد انتمائهم إليهم. ربما لدى الأخيار أشياء أخرى يودون القيام بها أفضل من مجرد إشباع حاجة المحتاج.

لم يقدم «سقراط» إجابة صريحة ومباشرة على هذا الاعتراض. وإنما قد وجدت إجابة غير مباشرة له في مناقشته الأولى مع ليسيس. يتفق سقراط وليس على كيفية مقابلة الأخيار لمحبة المحتاج التي يُعبر عنها الذين ليسوا أخيارًا أو أشرارًا. إذ يقابلون محبتهم بتحول المسئولية عن حياتهم. وبالتالي تتمثل إجابة

السؤال في أن تحمل المسئولية يُعتبر من أفضل الأشياء التي يقوم الأخيار بفعلها. يُحقق تحمّل المسئولية السعادة للأخيار لعدة أسباب: أولها تعني السعادة حريتنا في فعل ما نشاء. وثانيها: يُمكننا الشعور بالسعادة من اختيار أفعالنا. نفعل ما نشاء ولا نخضع لإرادة أحد. ويدفعنا الشعور بالحرية إلى السيطرة على الآخرين.

ندرس نموذجين من النماذج التي صور بها سقراط محبة المحتاج لاختبار صحة هذه الإجابة، وهما حالة المريض والجاهل. يُنظر لكل من الطبيب والمعلم على أنهما يقعان في دائرة الانتماء إلى المريض والجاهل. فإنهما في العالم الواقعي لا يقومان بإشباع حاجة المريض أو الجاهل ويعملان مقابل أجر مادي. لا يقابلان حاجة المريض أو الجاهل بالإحسان لهما أو بالمحبة والصداقة وإنما بنوع من الحسابات المادية وحساب المكسب والخسارة. ويحتاج سقراط لتفسير مثل هذه الحالات لمعرفة ما إذا كان الأخيار محسنين وعطوفين وأحرارًا.

يختتم سقراط المحاورة بعد تطوير تفسيره للمحبة باختبار لمدى فهم الصبية لما هو منتميًا وما هو منتسب (قريب ومن أصل واحد). وأخذت هذه الصورة المنطقية صورة عمليات ثلاث للحذف القائم على الفصل الذي يقوم على الاختيار بين البدائل إما (أ) أو (ب). ويتم حذف (استبعاد) أحد البدائل في عملية الفصل بالحذف، ويُستدل على صحة الطرف الآخر المتبقي.

3 - عملية الفصل الأولى

إما أن يوجد فرق (أ 1) أو لا يوجد (ب1) بين ما هو منتسب وما هو متماثل يستبعد سقراط البديل (ب1) على أساس أنه إذا صح يصبح المنتسب متماثلاً. ويحدث نوع من التناقض. ويُعد نموذجًا فاشلاً ولا قيمة له بالنسبة للصداقة.

4 - عملية الفصل الثانية

إما أن يكون الخيّر منتسبًا للكل والشرير غير منتسب لأحد (أ2) أو يكون الخيّر منتسبًا للخيّرين فقط والشرير للأشرار فقط، وينتسب من ليس خيرًا أو شريرًا فقط إلى من ليس خيرًا أو شريرًا.

يستبعد سقراط البديل (ب2) لأنه إذا ما صح نقع مرة أخرى في التناقض «ونقبل نموذج الصداقة الذي سبق أن رفضناه» ونجعل الشرير يصادق الشرير.

5 - عملية الفصل الثالثة

يترتب على المقدمة السابقة (أ2)- أن الخير ينتسب للكل ولا ينتسب الشرير لأحد- أن الخير لا يكون صديقًا إلا للخير (أ3) أو يكون (ب3).

فنّد سقراط البديل (ب3) الذي اختاره الصبية وذكرهم بالنموذج الذي سبق رفضه من قبل، واستحالة القول بأن «الخيّر» لا يصادق إلا الأخيار فقط.

لم يستنتج سقراط أي نتيجة من هذه المقدمات الثلاث لعمليات الفصل والاستبعاد وإنما سأل الصبية فقط «ما الذي نستفيده من هذه المناقشة؟». لم يستطع الصبية الإجابة وانتهى الأمر بالوقوع في الحيرة. ومع ذلك كانت هذه المناقشة مجرد خطوة بسيطة لبداية ملاحظة النتائج المترتبة على هذه العمليات الثلاث:

- (أ 1)- يوجد فرق بين الانتساب والتماثل.
- (أ 2)- ينتسب «الخير» للكل.
- (أ 3)- لا يترتب على واقعة أن الخير يصادق الكل، أن الخير لا يصادق إلا الخير فقط.

ونجد ما يؤكد أن سقراط قد قبل بالنتائج (أ1) و(أ2) و(أ3) في مذهبه عن المحبة:

«إذا كنت حكيمًا يصادقك الكل وينتسبون لك، لأنك تفيدهم وتعاملهم معاملة طيبة. أما إذا كنت غير عاقل لن يصادقك أحد حتى أبيك وأمك أو أي قريب لك لأنهم لا يستفيدون منك شيئًا» 210d14.

وفق ذلك، ينتسب الكل للإنسان الحكيم. الأمر الذي يترتب عليه أن (أ2) الخير ينتسب للكل. ولذلك يختلف (أ1) النسب عن المماثلة (طالما أن الخير لا يماثل الكل، ولا يشبه على وجه التحديد الشرير أو الذي ليس خيرًا أو شريرًا). كذلك يكون كل من تنقصه الحكمة، ويدرك هذا النقص صديقًا للإنسان الحكيم. ولذا قد يكون غير الأخيار أصدقاء للإنسان الخير. وبالتالي تكون النتيجة (أ3) صحيحة وصادقة.

6 - اعتراضات:

هناك اعتراضين على التفسير الذي قدمه سقراط للمحبة في فلسفته. الأول الاعتراض المسمى بالنموذجي بالمعاصر على تفسير سقراط، والذي قال به أصحاب النظرة السطحية والحرفية لفلسفته. يرون أصحاب هذا الاعتراض أن سقراط قد قدم تفسيرًا ناقصًا للمحبة ورد كل أنماط المحبة والصداقة إلى نمط الحب المحتاج وتجاهل تمامًا محبة العطاء. يتصف هذا الاعتراض بالتسرع وقام على فهم خاطئ للنصوص. فقد قدم سقراط تفسيرًا لنمط الحب المانح مثلما قدم تفسيرًا لمحبة المحتاج. الثاني: يؤكد أن تفسيره ناقص لأنه «لم يقدم تفسيرًا للحب المتكافئ» باعتباره نمطًا ثالثًا من أنماط المحبة إلى جانب نمطي الحب المحتاج والحب المانح. ويتميز هذا النمط الثالث عنهما بأنه يتكون في العلاقات غير المتكافئة، أو التي بين أصحابها نوع من التفاوت في المراتب. أعتقد أن أرسطو صاحب هذا الاعتراض الثاني على الرغم من عدم التصريح مباشرة به. ويرى معظم الدارسين أن أرسطو قد كتب تفسيره للحب والصداقة في كتاب الأخلاق النيقوماخية. والذي أكد فيه على الحب المتكافئ باعتباره النمط الوحيد للمحبة والصداقة الحقيقية. وأشار إلى نفس المعنى حين كان يفسر محاورة ليسيس أو على الأقل حين كان يفكر بها.

يعني الحب المتكافئ الذي نعرفه المحبة التي لا تكون مدفوعة بالحاجة أو بالمنح أي لا تكون المحبة بين الأصدقاء مدفوعة بالحاجة للأشياء الخيرة أو بمحاولة منح مجموعة من هذه الأشياء الخيرة. تكون المشاركة بين الأصدقاء متكافئة، وليست قائمة على الحاجة لشيء معين أو منح شيء معين من جانب أي طرف منهما. إذ تتطلب الحياة المشاركة تكافؤ الشخصية بين الصديقين. اشتبك كريتوس مع سقراط مثلًا في محاورة «أثيديموس». ليس لكي يعلم أحدهما الآخر عن طريق المناقشة وإنما ليتعلما معًا. فبات التشارك بينهما يشكل جزءًا من حياتهما المشتركة باعتبارهما صديقين متكافئين.

توجد بعض الحالات التي تشبه فيها الصداقة المتكافئة نمط المحبة المانحة مثل المدرس أو الطبيب المعالج أو نمط المحبة المحتاجة مثل نمط الطالب أو المريض. فلقد سعى «كريتو» مثلًا في وقت ما لتأنيب سقراط على حماقته أو عدم صوابه. محاولًا منح سقراط بعضًا من علمه وبعضًا من صفاته الشخصية. تبين مثل هذه مثال أن البشر يدخلون في علاقات مركبة مع بعضهم بعضًا تتكون من المحبة المتكافئة وغير المتكافئة. فإن تلك العلاقات تجعل الحب المتكافئ متميزًا عن الأنماط الأخرى باعتباره نمطًا ثالثًا من أنماطه. إذا ما فسدت شخصية المحبوب أو المعشوق ينتهي الحب المتكافئ (كما يقول أرسطو في أخلاقه: وقد يبدأ بالحب المانح. ربما تنهي الخيانة والخداع مثلًا الحب المتكافئ بين صديقين فإنها قد تمثل بداية للمحبة المانحة مثل محبة المعالج الذي يسعى لعلاج المريض. وقد يعد المعالج والصديق في هذه الحالة شخصًا واحدًا. وطالما أن الحب المتكافئ لا يمنح إلا لشخص واحد يكون المنح في موضوع واحد خير فإنه يعد انتقائيًا، وبالتالي يختلف عن المحبة المانحة التي تقدم للكل وتفيد الكل. ولما كانت المحبة المتكافئة لا تحاول للسيطرة على شخصية الآخر فإنها تعد انتقائية وتختلف عن محبة المحتاج.

لم يحاول «سقراط» تحليل محبة «كريتو» المتكافئة له فإنه أكد قبل تطوير نظريته في المحبة في محاورة ليسيس على المساواة بين صداقة ليسيس ومينكسيتس، حيث لا يقبل أي منهما أن يكون الآخر أنضج منه أو أكثر جمالًا أو ثراءً أو نبلًا. وعلى الرغم من اعترافه النظري المسبق في المساواة أو التكافؤ تدفع للمحبة وإنما الرغبة في إشباع المرء ما ينتقصه. لم يناقش سقراط في أي موضع في محاورة ليسيس مسألة الحاجة باعتبارها دافعًا للصداقة المتكافئة، وإن كان قد اقترح في محاورة بروتاجوراس الصداقة المتكافئة.

لا تعتقد يا بروتاجوراس أن لدي رغبة أخرى غير مجرد المناقشة معك لدراسة الأشياء التي تثير حيرتي كلما فكرت بها. لقد وجدت فكرة مهمة في شعر هومر. إذ

يقول «حين يفكر فردان معًا فإن كلًا منهما قد يرى قبل الآخر». نستطيع نحن معشر البشر إذا ما فكرنا معًا أن نحل المشكلات التي تثير حيرتنا بصورة أفضل سواء كانت المشكلات تتعلق بفكرة أم فعل أو قول. وإذا ما صادفت فكرة أو رأيت شيئًا فإنك سريعًا ما تبحث عن من تستطيع أن تنقلها إليه ويستطيع تأكيد صحة هذه الفكرة أو الشيء الذي رأيته. وأشعر بسعادة غامرة من التحاور معك أنت بالتحديد. إذ أعتبرك أفضل من يفهم في مثل تلك المسائل العامة التي تثير حيرتي وحيرة أي إنسان عاقل. ويحاول البحث عن حل لها وخاصة المسألة المتعلقة بالكمال الإنساني.

يعب الاقتراح الذي اقترحه سقراط عن محبة المحتاج. إذ يحتاج إلى فهم معنى الكمال الإنساني يقترح سقراط أن يصبح بروتاجوراس زميله في البحث. وذلك على أسلس أن اثنين أفضل من واحد. يستطيع أحدهما أن يصحح ما قد يدركه قبل الآخر، أي يدرك الفكرة أولًا ثم يعرضها على الآخر حتى يتأكد من صحتها. لذلك لا تعني محاولة سقراط واختياره بروتاجوراس للمشاركة في البحث أن يقترح أن يكون تلميذًا لـ«بروتاجوراس» يتلقى المعرفة والعلم منه. وتؤكد هذه الحاجة للشراكة على المعيار الانتقائي للصداقة التي سبقت الإشارة إليها.

تعد الصداقة التي تتأسي على الحاجات المتبادلة والمعاملات المالية والألعاب صداقة سطحية وليست حقيقية على الإطلاق. يجب أن تتجاوز الصداقة الحقيقية بين الأصدقاء مسألة إشباع الحاجات المتبادلة والفقر والألعاب. توجد أنماط من الصداقة تحل مشكلات أكثر عمقًا تتعلق بالشخصية الأخلاقية والسلوك بالزيجات، ومناقشة الموضوعات الأكثر أهمية. وربما تعد الصداقة بين كريتو وسقراط، كما صورها أفلاطون أفضل مثل على هذا النمط. ليس من الواضح أن هناك شيئًا أساسيًا للصداقة المتكافئة لم يرتبط بمثل هذه الصداقات الأخلاقية. ومع ذلك لا تعد مثل هذه الصداقات منفصلة عن الحاجة، وإن كانت حاجة عميقة وضرورية لمعرفة الإنسان بالحياة الطيبة السعيدة. لذلك تعد عملية رد سقراط الصداقة إلى الحاجة متسقة مع الخبرة الإنسانية بالمحبة المتكافئة.

القدر والحب

تقدم لنا محاورة ليسيس مذهبًا واضحًا وفكرة كاملة عن محبة المحتاج ومحبة المانح. ويعد كل حب محتاج وفق هذا التفسير ليس إلا رغبة تجاه الخير في ذاته الذي يكمن في المعرفة بالسعادة الإنسانية. يشكل النشاط المكون لهذه الحكمة سعادة الحكيم التي ليست إلا مبادلة محبة المحتاج للآخرين بالمحبة المانحة. ويتمتع الفلاسفة بهذه المحبة المحتاجة للحكمة.

وفق ما جاء محاورة الدفاع قدر على الفلاسفة بوصفهم بشرًا وليسوا آلهة الا تتوقف رغبتهم أو تشبع أو يشعرون بالحب المانح أو يحصلون على الحكمة الإلهية. ومع ذلك يوجد نمط من المحبة المانحة يناسب الفلاسفة ومفروض عليهم باعتباره واجبًا دينيًا وفقًا لنتائج الحكمة السقراطية. إذ يحيط بالفلاسفة جمع غفير من الناس الذين لا يعرفون الفلسفة ويعدون من الأشرار نظرًا لاعتقادهم بأن لديهم معرفة بالسعادة الإنسانية والحياة الطيبة. ويتمثل واجب الفيلسوف في تحويل مثل هؤلاء الناس إلى حالة محايدة أي حالة الذين ليسوا أشرارًا أو أخيارًا والتي تعد أقل أدنى حالات الجهل التي يدرك الإنسان فيها على الأقل أنه ليست لديه معرفة بالسعادة الإنسانية يحاول سقراط في محاورة ليسيس تحويل الولدين ليسيس ومينكسيتس، مستخدمًا هذه الطريقة. ويعد نشاطه تعبيرًا عن واجبه الديني المتمثل في خدمة الآخرين، ويعتبر في الوقت نفسه كبيرًا عن «مفهوم الأكبر للسعادة»، ومع ذلك لم ينته على الرغم من هذا الدور البطولي وعملية تحويل الأشرار إلى وضع محايد أي حالة الذين ليسوا أشرارًا أو أخيارًا بحثه عن الصداقة. إذ يظل من هم في هذه الحالة المحايدة يعانون من الحاجة. ويقترح سقراط كما فعل في محاورة بروتاجوراس وجود نوع من الشراكة من مجموعة من الأصدقاء لحل المشكلات. يشتركون معًا في البحث عن طبيعة الكمال الإنساني.

الفصل الثامن

الحظ والحكمة عند سقراط

يحكي سقراط الذي كان يبلغ من العمر نحو الاثنين والستين عامًا، لصديقه «كريتو» في محاورة «إيثيديموس» عن محادثة كان قد أجراها مع اثنين من السوفسطائيين أمام حشد كبير يبين «سقراط» كيف دفعه الإله إلى مناقشة غريبة أثبت فيها أن «الحكمة والحظ شيء واحد». «شاء إله ما أن أكون جالسًا هناك وحدي.

في غرفة خلع الملابس في «الليقيوم» حيث جرت هذه المناقشة. يستمر سقراط في الحديث: «أنه كان قد انتوى المغادرة ولكن أثناء قيامه جاءت الإشارة الإلهية المعتادة». فجلس في مكانه مرة أخرى. دخل سوفسطائيان بعد فترة وجيزة برفقة عدد كبير من الطلبة إلى الفناء.

وبدئوا جميعًا في السير في شكل دائري.كان سقراط قد ظل جالسًا مطيعًا لأمر الإشارة الإلهية الغريبة. دخل «كلينسياس» بعد أن قام الطلبة بدورتين أو ثلاث. يلاحقه نفر من الطلبة المهووسين جنسيًا به إلى غرفة الملابس. جلس «كلينسياس» على يمين «سقراط» كما لو كان يحتمي به.

ومع ذلك لم يكن وجود الطلبة الرومانسيين الأمر الذي يثير قلقه وإنما شيء آخر، يُرى السوفسطائيان «كليناس» جالسًا بجوار سقراط ويحيطان بهما. «جلس أحدهما بجانب الصبي وجلس الآخر على يساري».

كان (الليقيوم) عبارة عن مكان للألعاب الرياضية «جمانزيوم». وتمت تسميته باسم معبد قريب منه يسمى لميقيوم «أبوللو» أي أبوللو الذئب. وعلى الرغم من عدم معرفة أصل صفة الذئب وغموض معناها عرف الأثينيون «أبوللو» باعتباره

إله الموسيقى والطب والحكمة. وربما كانوا يبحثون عن الحماية في «الليقيوم» من أخطار الذئاب باعتباره راعيًا طيبًا.

يسعى «سقراط» باعتباره عابدًا لأبوللو إلى حماية «كلينسياس» من الفساد. وعبر سقراط للسوفسطائيين عن مقصده. قال لهما «أنه يشبه كل المحبين للصبي ولديه رغبة شديدة في أن يصبح إنسانًا طيبًا. وأخشى عليه بسبب صغر سنه من الفساد».

وافق السوفسطائيان على مطلب سقراط. وحاولا عرض مقدرتها على علاج الإنسان الفاسد «وتعلم الكمال الإنساني أمرًا ممكنًا». ويمكن تحويل الإنسان وتعليمه الحكمة واكتسابه والكمال.

واتخذ من الشاب «سلينياس» مثالاً. فإنهما حين حاولا محاورة الشاب لم يسعيا إلى تعليمه وإنما إلى الهجوم عليه، حتى إن «سقراط» قد وصف المحاورة بأنها معركة حربية. بين «سقراط» للصبي أن الحوار نظري وليس إلا عرضًا هزليًا يشبه من يحاول إعاقة حركة فرد آخر أو جذب الكرسي من أسفل فرد يحاول الجلوس عليه.

هاجم السوفسطائيان سقراط بعد محاولة دفاعه عن الصبي واستمرت المعركة حتى نهاية المحاورة التي حاول السوفسطائيان خلالها تشويه صورة سقراط وتجريحه أمام جمع غفير من أصحاب النفوذ في المدينة.

يشعر سقراط كما أفهم من الموقف أن الله قد نبهه عن طريق الإشارة الإلهية ألا يغادر «الليقيوم» حتى ينقذ «كلينسياس» من السوفسطائيين اللذيين هددا بإفساده وتحطيمه عن طريق إرباكه.

كانا يحاولان إشعاره بأنه غير قادر على التعلم عن طريق الحوار العقلي وبالتالي يفقد الثقة في نفسه (انظر الفصل السادس عشر عن مأساة الارتباط والفهم الخاطئ).

التحول إلى الحكمة:

أعرض في هذه السطور لجانب من المناقشة التي كرر سقراط فيها طلبه من السوفسطائيين «أن يساعدا الصبي على اكتساب الحكمة والكمال». يصف لـ«كريتوس» في اليوم التالي كيف جعل «كلينسياس» يوافق على مبدأين واضحين لا تحتاج الموافقة إلى عملية تفكير.

الأول: أن كل فرد يريد أن يحيا حياة طيبة. والثاني يحقق الفرد السعادة لنفسه إذا حصل على العديد من الأشياء الطيبة. يعرض الصبي لسقراط مجموعة من الأشياء التقليدية التي قدر يراها كل فرد سببًا للحياة الطيبة والسعادة كالثروة والصحة والنسب الطيب والأناقة.

وحين انتهى الصبي من عرض هذه القائمة حكى سقراط لكريتوس أنه قد اقترح إضافة موضوع آخر لهذه القائمة:

- «وأن نضع الحكمة في هذه المجموعة؟ بين الأشياء الطيبة أم أين؟».
- «بين الأشياء الطيبة».
- «يجب أن نتأكد من عدم تركنا لشيء من الأشياء الطيبة نكون قد غفلنا عن ذكره».
- لا أعتقد أننا قد أغفلنا شيئًا.

ثم يتذكر سقراط شيئًا لم يضفه للقائمة.

- يقول سقراط «بحق، زيوس، لقد أغفلنا أعظم شيء من الأشياء الطيبة بل وأهمها».
- يسأله «ما هذا الشيء؟».
- يجيب «الحظ، إنه شيء يعتبره كل الناس حتى الحمقى منهم من أعظم الأشياء الطيبة».
- يقول «أصبت».

يبد. سقراط حين وصل إلى هذه النقطة من الحوار الحديث عن «معنى الحظ أفضل الخيرات».

- لقد تداركت الأمر وقلت: «لقد كدنا أن نجعل من أنفسنا أضحوكة أمام الأجانب!».

- قال «لماذا هذا؟».

- «لأننا حين نضع «الحظ» ضمن موضوعات القائمة الأولى نكرر ما سبق أن قلناه «ونناقش نفس الشيء مرة أخرى».

- قال: ولماذا لذلك؟ «أي ماذا تعني؟».

- «أعني أليس من السخف أن نعتمد ما نراه أمامنا مرة أخرى ونعيد نفس الشيء في القائمة مرتين؟».

- «ما الأساس الذي تستند عليه لقول مثل هذا القول؟».

- أجبت: «من المؤكد أن الحكمة هي الحظ حتى الطفل يستطيع أن يدرك ذلك».

يضيف سقراط بعد سرد هذه الواقعة «لكريتوس» أنه قد لاحظ تشكك «كلينسياس» في الموافقة على هذه الفكرة. فما زال صغيرًا وفهمه محدود». أعجبت بهذه الملاحظة الرائعة.

إذ قد يتشكك أي فرد بغض النظر عن عمره ومستواه العلمي كما تشكك «كلينسياس» حين يستمع للوهلة الأولى لمقولة إن «الحظ ليس إلا الحكمة». اعتبرت هذه الملاحظة الرائعة تعبيرًا عن تواضع سقراط في قدرته على تفسير هذه المقولة.

فليست معرفته بالشيء الذي يستحق الحديث عنه كما وضح في محاورة «الدفاع». لا تحتاج عملية تفسير سقراط لمعنى تطابق الحكمة أو الحظ إلى معرفة خاصة متميزة لأنها معرفة يستطيع المراهق إدراكها.

يوجد على الأقل معنيان في اللغتين الإنجليزية واليونانية لمعنى «الحظ السعيد». الأول بمعنى عام حيث تعني العبارة النتائج الناجحة والطيبة بصفة عامة.

والثاني بمعنى ضيق، حيث تعني النتائج الناجحة التي لم يتوقعها من الناحية المنطقية. ويعد عدم الخلط بين المعنيين من الأمور الضرورية لفهم حجة سقراط أو معنى عبارته فهمًا صحيحًا.

ويعني موضوع «الحظ» الذي نناقشه عنده المعنى الذس يوجد سقراط ببينه وبين ما يسميه «أفضل الموضوعات الخيرة» في الفقرة السابقة. ومن الواضح أن هذا الخير الأعظم يؤدي إلى تحقيق النتائج الناجحة والطيبة بصفة عامة، ولا يؤدي إلى النجاحات غير المتوقعة.

وبالتالي يعني «الحظ» القوة –مهما كانت– التي تسبب الحاجات الجيدة. ولا يقصد بالحظ في هذه المناقشة إلا هذه القوة.

يوجد في قصة «رولنج» «هاري بوتر» الأمير المهجن نوع من الدواء السحري يسمى «فيلكس فيلس». تشبه قوة هذا الدواء ومفعوله القوة التي اعتبرها كل من سقراط وكالينسياس تحقق الخير الأعظم.

ويعد هذا الدواء عبارة عن سائل الحظ. إذ ما شربته أصبحت محظوظًا، وتكلل كل مساعيك بالنجاح. ويحدث ذلك على الأقل حتى يزول مفعوله.

يشعر «رون وايسلي» بطل الرواية أنه كان محظوظًا جدًا أثناء لعب المباراة. فإنه لم يتناول دواء الحظ في الحقيقة. وإنما كان اعتقاده أنه قد تناوله السبب في شعوره بالثقة التي تسببت في نجاحه في الميدان. كان «سقراط» و«كالينسياس» يتناقشان حول مسألة «الحظ» باعتباره القوة التي تكلل كل أعمالك بالنجاح. ووفق حجة سقراط ليست هذه القوة نوعًا من الدواء السحري أو ثقة بالنفس وإنما قوة معرفية.

– يبدأ سقراط حواره ببيان صلة الحكمة بالنتائج الميمونة:

– «سألته بعد شعوري بارتيابه: ألا يعني العزف الجيد أن عازف القيثارة محظوظًا؟»

– أوافق على ذلك.

– قلت: «ألا يكون من يعرف القراء الكتابة محظوظًا أيضًا».

– «بالتأكيد».

- «حسن، هل تعتبر الريان حين يواجه مخاطر في البحر يكون أكثر حظًا من الحكيم؟».

- «بالطبع لا».

يعترض العديد من القراء على موافقة «كالينسياس» بسرعة على مثل هذه الأمور. يرون أن سوء الحظ كالإصابة بالزائدة الدودية مثلًا أو سقوط نيزك قد يؤثر على عازف القيثارة أو القارئ أو الريان مهما كانت درجة مهارته أو حكمته. وبذلك قد يكون غير العارف أو المتمرس أكثر حظًا ويحصل على نتائج أفضل في عمله من الشخص الحكيم أو العارف.

يخلط هذا الاعتراض الأداء الجيد في الموسيقى بالأداء الجيد لحركة الأمعاء أو في علم الفلك. كان سقراط واضحًا في تحديده بأن العارف بالعزف يكون أداؤه الموسيقي أفضل. ويتوجب علينا تفسير ربط سقراط بين «الحظ» والحكمة على هذا النحو. حيث تتلازم النتائج الجيدة في مجال معين قدر المعرفة بهذا المجال ذاته. ونجد التلازم واضحًا إذا ما نجحنا في تحديد المجال نفسه.

ونستطيع أن نلاحظ أن العارف بحركة الأمعاء وعلم الفلك يكون أكثر حظًا. وأفترض أنه إذا شئنا ربط الأداء الجيد في المجالات الثلاثة، فإن العارف بالمجالات الثلاثة أي العزف، والصحة، والفلك، يكون الأوفر حظًا. وأجد من الإنصاف أن نفترض أن «كالينسياس» قد فسر مقولة سقراط بهذه الطريقة. وبالتالي كان محقًا في موافقته عليها.

تفسر مقولة «التلازم» كل التفضيلات التي قد اتفق عليها سقراط وكالينسياس فيما بعد.

«لنفترض أنك تشارك في حملة عسكرية مع أحد القادة، وتشعر بالسعادة من مشاركة هذا القائد المخاطر والانتصارات والهزائم. أيكون هذا القائد حكيمًا أم جاهلًا؟

- «حكيم بالتأكيد».

- حسن لنفترض أنك تعاني المرض مع أي من الأطباء تفضل تلقي العلاج، الحكيم أم الجاهل؟

- «مع الطبيب الماهر».

- قلت له: أليس السبب في ذلك أنك حين تعمل مع الشخص العارف تحصل على نتائج جيدة، وأفضل من تلك التي تحصل عليها حين تعمل مع فرد جاهل؟».

- فوافق على ذلك.

ينطبق ذلك على جميع المجالات والحالات. ويفضل من يريد الحصول على نتائج ميمونة في مجال معين أن يجازف بالعمل مع عارف بهذا المجال وليس مع الجاهل به. ونقوم بعملية التفضيل بسبب إدراكنا للتلازم.

السؤال الآن: بماذا نفسر التلازم بين الحكمة والنتائج المحظوظة أو الطيبة؟ يستنتج سقراط أن هناك ارتباطًا عليًا: «تجعل الحكمة أينما وجدت صاحبها محظوظًا». وقدم التفسير التالي لمثل هذا الاستنتاج:

لا تخطئ الحكمة بالتأكيد. وإنما تكون دائمًا على صواب في اختيارها للنتائج (المحظوظة بشكل عام) وإلا لن تكون حكمة على الإطلاق. إذ تقوم الحكمة بحكم طبيعتها باستبعاد الأمور الخاطئة والشاذة بعد الدراسة والحساب وتبحث عن أفضل النتائج. وبالتالي تفسر طبيعة الحكمة ذاتها عملية ملازمتها للنتائج الجيدة أو المحظوظة.

يشبه تصريح «سقراط» بأن الحكمة لا تخطئ أبدًا، وتكون نتائجها مصيبة دائمًا تصريحه في عرضه لمذهبه في المحبة بأنه «إذا كنت حكيمًا فإنك تكون مفيدًا وطيبًا». ويتوقع سقراط أن نوافق على أن الحكمة لا تخطئ ونتائجها صحيحة دائمًا على أساس الأمثلة التي ضربها مثل الموسيقى، والقراء والكتابة، والرحلات البحرية، والحملات العسكرية، والأمراض.

ليست مثل هذه الأمور بالطبع تشكل محور اهتمامنا باعتبارنا بشرًا. وإنما تشغل دائمًا بالبحث عن سعادتنا التي تكمن في نجاحنا في كل أعمالنا أي نكون محظوظين بالمعنى العام.

ينهي سقراط حديثه إلى كريتوس عن كيفية البرهنة على تطابق الحكمة والحظ عند هذه النقطة. يقول «لقد توصلنا إلى اتفاق نهائي –لا أعلم كيف– على

أن الحقيقة في مجملها تتمثل في أن الحكمة حين تكون حاضرة تجلب الحظ لحاملها، ويكون الحظ حليفه». لاا يمكن وفقًا لهذه النتيجة أن توجد الحكمة وحدها. وأينما توجد يكون الحظ ملازمًا لها.

يعني ذلك أنه قد ترك مسألة وجود الحظ وحده دون الحكمة دون حسم. ويرى المناطقة أن هذه النتيجة تعد ضعيفة إلى حد ما مقارنة بتلك التي انتهى إليها سقراط في مناقشته مع «بروتاجوراس» حين صرح بأن الشجاعة والحكمة ل تنفصلان. ولا تظهر أي منهما وحدها في أي وقت أو مكان.

لقد بين سقراط للصبي كالينسياس أن الحكمة تحقق النتائج الناجحة. ولا يمكن أن تظهر وحدها في أي مكان دون «الحظ» لأن الصبي كان متشككًا في مقولة سقراط بأن الحكمة والحظ شيء واحد أو نفس الشيء.

كان «كالينسياس لا يزال صغيرًا وساذجًا». ولا يعرف أن الحكمة والحظ شيء واحد ولا يمكن أن نفصل بينها في أي قائمة نضعها. «ويستطيع الطفل أن يدرك تطابقهما».

السؤال الأول: ما حجة سقراط في إثبات هذا التطابق؟ نستطيع أن نتصورها كما يلي:

1 - يوجد الحظ أينما توجد الحكمة.

2 - والحكمة سبب وجود الحظ.

3 - لذلك الحكمة هي الحظ.

لا تعد الحجة قوية بصورة كافية. فإذا كانت الحكمة والحظ تظهران معًا ولا تنفصلان عن بعضهما. ويكون كل محظوظ حكيمًا فليس بالضرورة استنتاج أن الحكمة والحظ شيء واحد.

ويبين سقراط في محاورة أوطفريون ضعف هذا الاستنتاج، إذ يؤكد أن وجود الأشياء السلبية إلى جانب الأشياء الإيجابية معًا لا يترتب عليه أنهما شيء واحد أو نفس الشيء.

بل يختلفان اختلاف السبب عن المسبب. ويستخدم سقراط هذا الفرق بين العلة والمعلول ليبين اختلاف المعشوق من الآلهة عن الإنسان التقي وإن كانا دائمًا ما يوجدان معًا. وكالما أن حجة الانتقال من التزامن في الوجود إلى التطابق خاطئة. وطالما أن سقراط يعلم بزيفها فإن من الإنصاف ألا ننسبها إليه.

- المسلمة الضمنية (غير الملحوظة أو لم يتم ذكرها).

يوجد حل بسيط لهذه المشكلة. فقد أضفت في العبارة رقم اثنين من القياس السابق مقدمة ضمنية في هذا القياس فيكون على الشكل التالي:

1 - الحكمة سبب الحظ.

2 - حسن الطالع سبب الحظ.

3 - الحكمة هي الحظ.

فإذا سلم أحد بوجود مثل هذا الشيء (حسن الطالع) كما فعل كالينسياس، فإن مقولة حسن الطالع -أي السبب في وجود الحظ- من السهل على طفل أن يعرفها.

يستخدم سقراط في الفصل الرابع مسلمة لم يشر إليها تقول: إن الشجاعة سبب ثقة الشجعان في أنفسهم حجة «بروتاجوراس».

ويعد مثل هذا الاستدلال من وجود العلة إلى تطابق الهوية صحيحًا تمامًا مثل المثل الذي ورد في الفصل الرابع عما يمكن أن يستنتج التحقيق من مكان الجريمة.

ويعتبر سقراط مصيبًا في القول إنه بمجرد وضع الحكمة في قائمة معينة ليست هناك حاجة لإضافة حسن الطالع أو السعد لهذه القائمة. إذ تعد عملية كلمتين بمعنى واحد أو تكرار نفس لشيء مرتين أمرًا سخيفًا.

يوجد سؤال أخير:

لماذا لم أستخدم في إعادة صياغتي لاستدلال سقراط المقدمة القائلة بأنه أينما توجد الحكمة لدينا يكون الحظ حاضرًا أيضًا؟ أجيب بأن هذا القول ليس

مقدمة أو مسلمة وإنما نتيجة مستقبلية.

فحين تعرف أن تطابق هوية سوبرمان مع الممثل كلارك كنت، ربما نستطيع أن نستدل أنه أينما يوجد كلارك كنت يكون سوبرمان حاضرًا أيضًا. ونستطيع أن نقول وفقًا لذلك أن تطابق هوية الحكمة والسعد أو حسن الطالع قد يؤدي بنا كما يقول سقراط «أينما تكون الحكمة حاضرة لا يتخلى الحظ عن صاحبها». وبينما لا يمكن الاستدلال من التزامن على وجود الهوية فإن الاستدلال من تطابق الهوية التي تتزامن في الحضور أمر صحيح.

الفصل التاسع

الرغبة عند سقراط
(محاورته مع مينو)

كان سقراط في محاورة مينو قد بلغ من العمر عامه السابع والستين، أي نحو ثلاث سنوات قبل وفاته. يقدم سقراط في المحاورة للأجنبي مينو فكرة عامة عن وعي الاثنين الذاتي بالجهل.

يعاني اليونانيون من فقر في الحكمة، فإذا ما سألت أحدهم «أيمكن تعلم الكمال الإنساني؟» ربما يسخر منك. ويقول:

«عزيزي الزائر هل تعتقد أني على درجة عالية من التوفيق حتى أعرف ما إذا كان الكمال الإنساني أمرًا يمكن تعلمه أو اكتسابه، ولا أعرف في الحقيقة معنى الكمال الإنساني ذاته حتى أعرف ما إذا كان من الممكن اكتسابه أم لا».

«وأستطيع أن أجزم لك يا مينو أني أمثلهم. وأقتسم معهم الفقر في معرفة هذا الشيء وألوم نفسي على عدم معرفتي لأي شيء عن الكمال الإنساني».

إذا ما صح قول سقراط أعتبر أن مهمته تجاه الاثنين لا نتيجة مفيدة لها. ويستحق اللوم لمحاولة إرشاد سكان المدينة لتحقيق الحكمة الإلهية حول الجهل الإنساني. كذلك ومن جهة أخرى يُلقي رد الفعل العدائي من أنيتوس تجاه سقراط الشك حول مدى تقييم سقراط للوعي الذاتي لمدينته.

1 - **الرغبة السيئة:**

يصاب مينو بالدهشة حين يسمع سقراط يؤكد جهله بمعنى الكمال الإنساني. يعتقد أن من السهل معرفة معناه. ويستطيع أن يُعرف مينو الكمال الإنساني بعد محاولتين فاشلتين بأنه «مزيج من الرغبة والمقدرة» أي رغبة في شيء قيم والقدرة على تحقيقه.

يبدو لي أن المزج الذي قال به مينو يحظى بموافقة العديد من الناس بالنسبة لمسألة الأخلاق. نميل للاعتقاد دائمًا بأن من يتحلون بالكمال الخلقي يجب أن تكون لديهم المقدرة أو الرغبة بشكل عام للقيام بفعل الأشياء الخيرة. بل يمكن القول أيضًا إننا نتوقع دائمًا منهم ليس مجرد النيات الطيبة.

وذلك طالما نجد بينهم من يتوقف عند حد النية ويهمل القيام بواجبه. كما نطلب منهم أيضًا التمتع بقدر من المهارة والكفاءة.

يكشف سقراط بعد سماعه هذا التعريف للكمال عن افتراض كامن وراءه يقول بأن هناك أناسًا يرغبون في أشياء سيئة أو شريرة.

مينو: «يبدو لي يا سقراط أن الكمال الإنساني كما يقول الشعراء: انشراح الصدر للأشياء الجديرة بالثناء والقدرة على فعل هذه الأشياء».

وأقول بأن هذا الكمال الذي أقصده، أي الرغبة في الأشياء الطيبة والقدرة على تحقيقها».

سقراط: أتقول بذلك على افتراض أن هناك أناسًا يرغبون أشياءً سيئة. بينما هناك من يرغبون أشياءً خيرة؟

أيها الرجل الطيب، ألا يبدو لك أن كل إنسان يرغب الأشياء الخيرة؟

مينو: لا أرى ذلك.

سقراط: إذًا ترى أن هناك أناسًا يرغبون أشياءً سيئة؟

مينو: نعم.

يتفق بعض الناس بل معظمهم على رغبة الإنسان في الأشياء الخيرة. ومع ذلك كان من المأثورات اليونانية، وكما نجد في تراثنا الآن أن هناك أناسًا يرغبون في أشياء شريرة. ويلاحظ أن سقراط يُظهر دهشته من افتراض مينو على الرغم من أنه افتراض يتسق مع التراث التقليدي اليوناني.

ويسأل مينو ما إذا كانت الرغبة في الأشياء السيئة يظهر في حالتي المعرفة

والجهل على السواء..

سقراط: «أتقول بأن الناس يرغبون الأشياء السيئة اعتقادًا منهم بأنها أشياء خيرة أم أنهم يعرفون عن يقين أنها سيئة ومع ذلك يرغبونها»؟

مينو: يبدو لي أن الأمرين قائمان.

سقراط: أيبدو لك حقًا يا مينو أن هناك من يعرف أن الأشياء السيئة سيئة حقًا ومع ذلك يرغب بها؟

مينو: بالتأكيد.

يوضح سقراط الموضوع الذي يتناقشان حوله بقوله: تعني الرغبة السعي للحصول على شيء ما.

سقراط: ماذا تعني بالرغبة أليست رغبة الحصول على شيء ما؟

مينو: ماذا تكون غير ذلك؟ إنها الرغبة في الحصول.

تبين إجابة مينو «ماذا تكون غير ذلك» اعتقاده أن الفكرة التي أضافها سقراط واضحة بذاتها. قد يوصف مينو بالغباء إذ قد نسي أن هناك رغبات عديدة لا تبحث عن شيء، أي رغبة في الحصول وإنما رغبة في الفعل فقط.

ومع ذلك وحتى لا نتهم مينو بالغباء نجد من الإنصاف أن نبين أن هذه الفكرة المضافة صحيحة إذا ما فرضنا أن الرغبة في القيام بفعل ما تعني أيضًا الرغبة في الحصول على شيء فتكون الرغبة مثلًا في إيذاء الآخر رغبة في الحصول على الانتقام.

نستطيع تجنب هذا الموقف إذا فرضنا أن أي رغبة في القيام بفعل ليست إلا رغبة في الحصول على الرضا من القيام بالفعل. ويعد هذا الافتراض مأمونًا، لأن الرغبة بطبيعتها تكون ملازمة لموضوع أي بالرضا والإشباع. (ويلاحظ أصحاب الفروق الدقيقة اختلاف الرغبة عن النية (القصد). إذ أستطيع أن أنتوي شيئًا دون الحصول على الرضا من فعله.

السؤال الآن: هل من الممكن أن يقوم الفرد بعمل ضار للحصول على شيء يسعده، كأن يؤذي فردًا آخر يثأر منه؟ يعد هذا سؤالًا جيدًا. ويرتبط مباشرة بحجة سقراط.

فإن كان من الممكن القيام بأفعال مؤذية للحصول على أشياء طيبة، فإنه من الجائز وجود أناس يرغبون في أشياء سيئة، ويعلمون أنها شريرة ويحصلون على إحساس بالرضا عند القيام بها.

يبين سقراط في موضع آخر أنه لا يمكن القيام بفعل سيء للحصول على شيء طيب. ولذلك يحذف إمكانية معرفة الرغبة في الأشياء السيئة. فإن المناقشة التي نحللها الآن لا تستبعد إمكانية وجود هؤلاء الناس.

يبين توضيح سقراط للمسألة أنه حين كان يتحدث مع مينو عن من يرغبون الأشياء السيئة أنهما كانا يقصدان من يريدون الحصول على أشياء سيئة. لذا يسأل سقراط مينو سؤالًا محددًا عما إذا كان الناس يرغبون هذه الأشياء السيئة في حالتي الجهل والمعرفة على السواء. ويجيب مينو عن هذا السؤال بأن ذلك ممكن في الحالتين.

«يوجد من يرغبون في الأشياء السيئة لاعتقادهم بأنها نافعة لهم، ومن يرغبون في هذه الأشياء مع علمهم بأنها مؤذية وضارة».

يؤكد سقراط حين يستمر في المناقشة أن المسألة مستحيلة في الحالتين، أي حالتي الجهل والمعرفة.

2 - الجهل بالرغبة:

يبدأ سقراط بالحالة الأولى أي أن هناك من يرغبون الحصول على أشياء ظنًا منهم أنها مفيدة.

يوافق سقراط ومينو ونحن أيضًا أن هناك من يحصلون على أشياء سيئة لأنفسهم -بلغة مينو يحققون أي يختارون الحصول على هذه الأشياء السيئة.

ويفسر مينو هذه الاختيارات السيئة بأنهم يرغبون في هذه الأشياء السيئة.

ونلاحظ أن «مينو» يرفض تفسيره في حالة الاختيار عن جهل بعد أن يقدم سقراط له تفسيرًا أفضل.

قد يعاني بعض الدارسين من مسألة السبب الذي دفع مينو لاستبعاد الحالة الأولى في الفقرة التالية:

سقراط: «أيبدو لك أن من يعتقدون أن الأشياء السيئة مفيدة يعرفون أنها سيئة؟».

مينو: يبدو لي أنهم لا يدركون ذلك على الإطلاق.

سقراط: لذلك، أليس واضحًا أن هؤلاء الناس لا يرغبون في الأشياء السيئة. وإنما في الأشياء التي يعتقدون أنها خيرة رغم أنها سيئة. ولذا يرغب من يجهلون طبيعة هذه الأشياء ويفترضون أنها خيرة في الأشياء الخيرة.

مينو: ربما كذلك...

يحتار الباحثون تجاه موقفين في حديث سقراط الثاني يبدو فيهما أنه يناقض نفسه.

الأول: يظهر فيه أنه يثبت وينفي أن الناس قد ترغب في أشياء سيئة تعتقد أنها خيرة. يقول من جهة «إنهم لا يرغبون أشياءً سيئة».

ثم يقول في العبارة التي تليها «إنهم يرغبون تلك الأشياء التي يفترضون أنها خيرة على الرغم من أنها سيئة في حقيقتها». الثاني: يستنتج سقراط مباشرة وبعد إثباته أن الجهلة من الناس قد يرغبون تلك الأشياء التي يعتقدون أنها خيرة أو تبدو خيرة لهم» أنهم يرغبون في أشياء خيرة أي خيرة حقيقة.

اتجه إلى تجنب تلك المشكلة بتفسير حجة سقراط على أنها نوع من قياس الخلف. يفترض مينو أن هناك من يرغب في الحصول على أشياء سيئة حين يعتقد الناس أنها نافعة. تبين مناقشة سقراط أن افتراض «مينو» في تلك الحالة الأولى يؤدي إلى الوقوع في التناقض.

ولا يعد التناقض مجرد ثرثرة لا معنى لها وإنما هي جزء من مهارة الحوار. أقدم شرحًا لهذا الحوار ولمعناه ثم أبين كيف أن برهان الخلف يقدم فهمًا أوضح وقراءة أمينة لهذه الفقرة.

يتفق سقراط ومينو على أن الجهلة يختارون أحيانًا أشياءً سيئة ويحصلون عليها. يفسر «مينو» مثل هذه الاختيارات بأنهم يرغبون لحصول على هذه الأشياء السيئة. بينما يقدم سقراط تفسيرًا يبين أنهم يختارون هذه الأشياء بسبب رغبتهم في الحصول على أشياء طيبة وجهلهم بحقيقتها أي يفترضون أنها خيرة.

لا يحتاج التفسير الأفضل لعملية الاختيار الإنساني إلى افتراض سوء الرغبة. إذ يكفي مجرد وجود الرغبة في الحصول على الأشياء الخيرة ولا يحدث الخطأ في اختيارها إلا بسبب الجهل.

يقول سقراط حتى يقدم تفسيرًا أفضل لمينو «إن هؤلاء الناس الجهلة الذي يتحدث عنهم «مينو» يرغبون في الحصول على الأشياء السيئة ظنًا منهم بأنها خيرة».

سقراط: «أيبدو لك أن مثل هؤلاء الناس الذين يرون أن الأشياء السيئة ناقصة يعرفون أنها سيئة؟».

مينو: «يبدو لي أنهم لا يدركون ذلك إطلاقًا».

لابد أن يكون هناك سبب لماذا يختار الناس الأشياء التي تبدو خيرة طالما أنهم لا يدركون أنهم يختارون أشياءً سيئة، ويظنون عن جهل بأنهم يختارون أشياءً خيرة. يقول **سقراط:** إن السبب واضح.

يجهل الذين يختارون الأشياء السيئة أنها سيئة ويفترضون أنها خيرة». ونحتاج كي نفسر عمومًا لماذا يسلك الماس هكذا إلى الإشارة إلى أفكارهم ورغباتهم. وليس أمامنا حين يخلط الفكر بين الشر والخير، واختيار شيء سيء إلا بأنه الرغبة في الحصول على شيء خير.

وعندما سمع «مينو» بهذا التفسير تخلى عن تفسيره السابق عن الاختيارات السيئة عن طريق الخطأ.

سقراط: «لذلك، أليس واضحًا أن هؤلاء الناس لا يرغبون في الأشياء السيئة؟».

مينو: ربما كذلك.

يقر مينو عند تفسير سبب قيام هؤلاء الناس بهذا الفعل بأنه ليس هناك أي

دور للرغبة في الحصول على أشياء سيئة.

يتبع تفسيري بأمانة شديدة الاستدلالين اللذين وردا في النص. ويميز سقراط هذين الاستدلالين بكلمتي لذلك ولذا أو هكذا اللتين أكتبهما باللون الأسود في العبارات التالية وفي الخطوتين الثالثة والرابعة في الاستدلال التالي:

1 - حالة مينو الأولى: «يوجد أناس يرغبون أشياءً سيئة «ظنًا منهم بأنها مفيدة».

2 - الاتفاق على أن مثل هؤلاء الناس الذين يعتقدون أن الأشياء السيئة نافعة يجهلون أنها سيئة.

3 - لذلك لا يرغب هؤلاء الناس (الذين يفترض مينو رغبتهم في أشياء سيئة) الجهلة بأن هذه الأشياء سيئة في هذه الأشياء، وإنما في أشياء يعتقدون أنها خيرة بينما في الحقيقة سيئة.

ينجح سقراط في الخطوة الثالثة في إظهار تناقض مقولة مينو: إذ لا يرغب الناس الذين يفترض مينو أنهم يرغبون في أشياء سيئة هذه الأشياء. وعلى الرغم من أن الأشياء التي يرغبونها سيئة، فإن القول بأنهم يرغبونها لا يفسر عملية الاختيار طالما أنهم يعتقدون أنها خيرة.

يقوم سقراط بعد بيان التناقض في الخطوة الثالثة بحذف (كما يقول المناطقة) أو إبطال الفرض الذي ينتج عنه التناقض ويضع استنتاجه الخاص:

4 - وهكذا: طالما أدت المقدمة الأولى إلى حدوث التناقض في الخطوة الثالثة، فإن من يجهلون أن الأشياء التي يختارونها سيئة، ويفترضون في الوقت نفسه أنها مفيدة لا يرغبون حقيقة إلا في أشياء خيرة.

باتت حالة مينو الأولى مستحيلة وزائفة بسبب التناقض المترتب عليها. وينجح سقراط في استبعاد القول بأن الناس ترغب في الأشياء السيئة في هذه الحالة الأولى من حالات الجهل. ويثبت في الوقت نفسه أن اختيار الأشياء السيئة عن جهل ليس إلا نتيجة للرغبة في أشياء طيبة.

3 - **الرغبة عن علم:**

يبقى أمام سقراط أن يبين استحالة الحالة الثانية (التي ذكرها مينو) «أي حالة من يرغبون في الحصول على أشياء سيئة مع علمهم بأن الأشياء الضارة تسبب الأذى».

يثبت سقراط استحالة هذه الحالة الثانية على مرحلتين: يبين في الأولى منهما أنمن يرغب في معرفة في الحصول على أشياء قد تصيبه بالأذى لابد أن يكون عارفًا أنه يرغب التعاسة والبؤس.

سقراط: حسن، هل يعلم الناس الذين يرغبون أشياء سيئة -كما تقول- ويدركون أن هذه الأشياء تؤذي من يحصل عليها كما أنها تؤذيهم وتضرهم.

مينو: يجب أن يعلموا.

سقراط: ألا يرمن هؤلاء الناس أن من يقع الضرر عليهم يتأذون؟

مينو: هذا أيضًا يجب أن يؤمنوا به.

سقراط: وألا يؤمن هؤلاء الناس أن من يعانون يشعرون بالبؤس (طالما أنهم يعانون)؟

مينو: يقينًا أعتقد ذلك.

يعد «مينو» وفقًا لطبيعة المنطق الإنساني محقًا في موافقته على هذه العبارات السابقة أو تلك الأحكام. فإذا ما أدركت أن الأشياء الضارة تؤذي الشخص الذي تقع عليه، فمن اليقين أن أدرك أنها قد تؤذيني إذا حدثت لي.

كذلك لا يجوز أن تصفني بأني أدرك أن الأشياء السيئة تضرني إلا إذا كانت كجانب من هذا الإدراك، على وعي بأني قد أعاني حين يتم إيذائي، وأقع في حالة من البؤس طالما كنت أشعر لهذه المعاناة.

ربما قد يتم الاعتراض بأن الحماس الشديد للرغبة قد يدفع إلى نسيان ما يتم إدراكه. وبالتالي لا يصبح المرء واعيًا بالصلة التي يبين الضرر والمعاناة والبؤس قد يوافق سقراط ومينو على مثل هذا الاعتراض.

فإن النسيان يعني أن الفرد لا يعرف رغبته أو يجهلها. ولقد سبق شرح الرغبة عن جهل (انظر الفصل الخامس حول بعض الاعتراضات الأخرى والرد عليها).

ينتقل «سقراط» للخطوة الثانية التي تتمثل في أنه لا يوجد من يرغب البؤس عن دراية.

سقراط: هل هناك من يريد لنفسه البؤس والمعاناة؟

مينو: لا أعتقد ذلك يا سقراط.

فإذا وضعنا في اعتبارنا هاتين المرحلتين أو الخطوتين من المناقشة يجب أن نقبل النتيجة التي انتهى إليها سقراط وأقر بها مينو.

سقراط: إذن، ليس هناك من يرغب (في المعاناة والبؤس). وما الذي يمكن أن نعاني منه غير رغبتنا في الأشياء السيئة والحصول عليها؟

مينو: أعتقد أنك مصيب في ذلك يا يقراط. لا يرغب أحد في الأشياء السيئة.

يوجد اعتراض على هذه الخطوة الثانية لسقراط. إذ يبدو أن هناك أناسًا يرغبون المعاناة والشعور بالبؤس.

يستخدم «يوربيدوس» في مأساته «ميديا» أسطورة «جيسون» و«ميديا» ليضرب بها مثلًا متطرفًا جدًا على مثل هذه الحالة. تختار «الأم» ميديا أن تقتل أطفالها مع علمها بأن ذلك يؤدي إلى بؤسها. عرض «يوربيدوس» هذه المسرحية في عام 431 ق. م، أي بعد عامين من تاريخ اللقاء الدرامي بين «سقراط» وبروتاجوراس والمناقشة بينهما.

حيث حاج سقراط بأن الناس يجب أن يبحثوا عما يرونه وفقًا لمصلحتهم. ولا توجد لدينا وسيلة لمعرفة ما إذا كان هناك تطابق بين تاريخ الدراما والحدث التاريخي.. فإن بنية طريقة مفاجأة «ميديا» لنفسها قد تعتبر إجابة أو ردًا على ما طرحه سقراط في المناقشة أو ربما تكون مجرد مصادفة.

وقعت «ميديا» أميرة مدينة «كولشيس» الآسيوية في حب «جيسون» الذي جاء من اليونان للحصول على شيء معين. خانت الأميرة أهلها ومدينتها وساعدت

جيسون على سرقة الجرة الذهبية المقدسة حتى يستطيع العودة إلى مدينة كورنثة ويستعيد عرشه من المغتصب «ببلاس»، وقد ساعدته ميديا مرة أخرى وصارعت بيلاس وقتلته حين رفض التنازل عن العرش ل«جيسون».

ومع ذلك، وبدلًا من رد الجميل إلى «ميديا» قام «جيسون» بتطليقها في النهاية حتى يستطيع الصعود في الحياة العامة بالزواج من امرأة صغيرة من أفراد عشيرته. شعرت ميديا برغبة قوية في الانتقام عن طريق خطة كان تنفيذها يقتضي قتل طفليها الذين أنجبتهما من «جيسون» قبل مغادرة البلاد.

أفضل ضرب هذا المثل عن «ميديا» للكاتب «يوربيدوس» لأنها تبين بالتفصيل مسألة المداولة العاطفية التي دفعتها لاختيار القيام بهذا العمل البشع. وإذا كنت على ثقة بأن القراء لا ينظرون للعاطفة باعتبارها شيئًا دمويًا كما فعلت فإنني أدرك أن الاحساس بالكرامة المهانة والفعل الانفعالي الخاطئ والرغبة في الانتقام أمرًا معروفًا لنا جميعًا. وأعتقد أن موقف «ميديا» المتطرف يلقي الضوء على مجموعة الرغبات المظلمة التي قد يرغبها الإنسان.

لم تشعر «ميديا» بأي اعتراض أو صراع مع رغبتها في إيذاء «جيسون» الخائن. (وكما سبق أن وضحت من قبل لم يستبعد سقراط في هذه المحاورة إمكانية الرغبة في إيذاء الآخرين). ومع ذلك يلاحظ أنه على الرغم من تأثرها بمحبة طفليها وتصورها للألم الذي قد تشعر به في المستقبل لم تكن ترغب في إيذاء «جيسون» أكثر من إيذاء نفسها بل كان الضرر الذي يقع عليها ضعف ما قد يعاني جيسون منه.

«ينفرط قلبي حزنًا حين أنظر في عيون طفلي. لا أستطيع فعل ذلك. لم أستسلم لعواطفي السابقة التي أحسست بها تجاهمها. وأرحل بهما بعيدًا عن هذه الأرض- ولماذا أجرح مشاعر والدهما بإيذائهما إذا كان الأذى الذي قد يعاني منه «جيسون» أقل بكثير مما قد أعانيه. كلا لن أفعل ذلك. ووداعًا لكل الأماني التي رغبت بها.

يحتقر الجانب الآخر من روحها في الحال مثل هذه العواطف. ويطالب هذا الجانب الآخر أي «القلب الغاضب» بالانتقام. ويشعر بضرورة فعل أي شيء ولا يتم التلاعب به والسخرية منه.

«ما الذي يحدث لي؟

هل أرغب في ترك عدوي دون عقاب وأصبح أضحوكة أمام الناس؟ يجب القيام بهذا الفعل. ويعد السماح بكلمات العاطفة الناعمة أسوأ الشرور التي قد تصيبني.

تخاطب «ميديا» في هذه الإجابة عواطفها. وتحسب كل أنواع السعادة التي قد تتخلى عنها في المستقبل.

«آه، لا تفعل ذلك أيها القلب القاسي!

دع الأطفال لحالهم أيها الشرير. دعهم يحيون. ويحققون لك البهجة حين نرحل جميعًا منها ونذهب بعيدًا.

لم يبال قلبها الغاضب بهذا الاستعطاف وقابلته بثلاث حجج غير منطقية. الأولى: لا يمكن احتمال السخرية من أطفالها أو اللعب بهم. ولن توجد إمكانية لوجود مثل هذه السخرية إلا إذا استمرا في الحياة. الثانية: لن يستطيع الأطفال الهروب من الموت لأنهم من الفنانين.

وقد يكون من المناسب أن من وهبهم الحياة يكون السبب في خروجهما منها. الثالثة: حين ينتوي القلب الغاضب القيام بفعل ما لا يستطيع الامتناع عنه القيام به. وينتج عن هذه الحجج الثلاث ضرورة قتل أطفالها.

«كلا وباسم كل ربات الثأر التي تحيا في الجحيم. لن أدرع أطفالي يتعرضون للسخرية من أعدائي أو للإهانة.

وإذا كان موتهم ضروريًا ولابد من حدوثه، فإنني أحق بتحقيقه والقضاء عليهم، لقد صممت على الأمر وليس هناك مجال للتراجع».

تقبل «ميديا» رغبة قلبها الغضب التي تغلبت على كل عواطفها الأخرى

ورغباتها. وقد وافقت عليها مع علمها التام بأن نتيجتها السيئة قد تؤدي إلى عذابها ومعاناتها للبؤس.

«أعلم أنني قد اخترت طريق البؤس والمعاناة واخترت لهما أسوأ مصير. وأدرك جيدًا الأشياء السيئة التي قد أواجهها. فإن قلبي الغاضب- سبب مصائب كل البشر- رغباته أقوى من كل رغباتي».

لقد دفعها القلب الغاضب إلى الإقدام على قتل طفليهما، مع علمها التام بأن ذلك يدمي قلبها ويصيبها بالتعاسة. ومع ذلك كان «مينو» محقًا في الموافقة على مقولة سقراط: «

بأنه لا يوجد إنسان يرغب في البؤس والتعاسة عن علم». لم يكن موضوع رغبة «ميديا» في القتل سببًا في البؤس. وإنما كانت رغبتها في الانتقام وعدم التعرض للسخرية من الناس.

لم تكن ترغب التعاسة لنفسها على الرغم من قبولها هذه الرغبة. بل قبلتها لأنها لم تر في حالة الغضب التي تعاني منها إلا الانتقام مهما كانت نتائجه، وتجنب السخرية مهما كلفها ذلك الأمر. تصورت أن الحياة دون الثأر والتعرض من السخرية أسوأ من الحياة دون أطفال وأسوأ تعاسة من الإحساس بالذنب والمعاناة من ارتكاب الجرم.

ترغب «ميديا» في تقليل الضرر كما يرغب التاجر المستغل في تقليل حجم خسائره. لذلك، ليست حالة «ميديا» استثناء للقاعدة التي قال بها سقراط وإنما تعد برهانًا على صحتها وصوابها.

تبرهن رغبة «ميديا» الغاضبة على مقولة «سقراط» لا يرغب أحد في الأشياء الضارة». ومه ذلك لا تكفي حالة واحدة للبرهنة على صحة المقولة. لا تزال هناك حالات عديدة تتطلب فحصنا.

يعامل علماء النفس الرغبة في الأشياء السيئة كالرغبة في الموت أو الألم على أنها مرض. ويفسرون هذا المرض على أنه نوع من الصدمة النفسية التي قد

تصيب المريض، وتسبب له الإحساس بمشاعر الخوف، والقلق، والحزن، والتفاهة، والنقص، والفشل. وتفسر هذه المشاعر بدورها سبب الرغبة في الحصول على الأشياء السيئة.

كما يلاحظ في بعض الحالات تتم الرغبة في الأشياء السيئة هربًا من أشياء أخرى أكثر ضررًا أو باعتبارها عقابًا مستحقًا.

ولا تزال هناك حالات أخرى كثيرة تسيطر فيها هذه الرغبة، ويتمثل الافتراضي العام لمثل هذه التفسيرات النفسية في أن الموضوع الضار أو السيئ يبدو مفيدًا وأمـرًا طيبا للشخص المصاب بالمرض. فإذا ما صح هذا الافتراضي أو هذا التفسير يكون سقراط محقًا في افتراضه بأنه لا يوجد إنسان يرغب البؤس عن علم ومصيبًا في استنتاجه بأن لا يوجد إنسان يرغب البؤس عم علم ومصيبًا في استنتاجه بأنه لا يوجد إنسان يرغب في الأشياء السيئة.

وينهي الحوار بعد تفنيد افتراض «مينو» إلى نتيجة مؤداها؛ أن الكمال الإنساني باعتباره الرغبة في الحصول على أشياء طيبة مسألة تتعلق فقط بمعرفة كيف يتم تحقيق ذلك.

سقراط: ألم تقل من قبل أن الكمال الإنساني يعني الرغبة في الأشياء الخيرة والقدرة على تحقيقها؟

مينو: نعم قلت.

سقراط: وطالما أثبتنا أن الرغبة (في الحصول على الأشياء الخيرة) أمر يتوفر لدى كل فرد ألا يعني ذلك أن الكل متساوون وليس هناك من هو أفضل من الآخر في مثل هذه الأمور.

مينو: من الواضح ذلك.

سقراط: إذن من الواضح أيضًا أنه إذا كان هناك إنسان أفضل من آخر ألا تتمثل أفضليته في أنه قادر على الحصول على هذه الأشياء الطيبة؟

مينو: لا شك في ذلك.

أثارت النتيجة التي انتهى إليها «سقراط» العديد من الأسئلة. أيرغب أصحاب الكمال في الحصول على الأشياء الطيبة لأنفسهم فقط؟ وماذا عن الآخرين؟ ماذا لو سئل «سقراط» من قبل من يعتقد أن أصحاب الكمال الإنساني بينما يحققون الخير لأنفسهم ولمحبيهم يضرون أعداءهم؟ أقدم إجابة سقراط على مثل هذه الأسئلة في الفصلين التاليين.

الفصل العاشر

سقراط والبحث عن السعادة

(محاورة ليسيس)

تطرح مناقشة سقراط في محاورة «ليسيس» مسئولية أصحاب المعرفة عن سعادة الآخرين ومدى التزامهم بالسلوك لتحقيقها. وتثير مناقشته في محاورة «مينو» عما إذا كان هناك أناس يرغبون في الحصول على أشياء خيرة بعمل أشياء مضرة للآخرين.

وتجيب مناقشته مع «ثراسيماخوس» في محاورة الجمهورية عن كل هذه الأسئلة. ويؤكد سقراط في إجابته أن الأفعال التي تنتج عن معرفة وحرية تعمل على اختلافها من أجل تحقيق الخير للآخرين.

وتعد هذه الإجابة في منتهى الأهمية. وتكمن هذه الأهمية في أن سقراط لم يصرح بهذه الإجابة بصورة مباشرة وإنما استخلصها من فرد يقول بنقيضها.

مهارة الاستفادة من الآخرين

يعتقد «ثراسيماخوس» أن أصحاب الكمال الإنساني يسعون دائمًا لتحقيق الخير لأنفسهم وكلما زاد قدر الأشياء الخيرة كان أفضل. ويقترح مقولة «إن العدالة مصلحة الأقوى» يوضح «ثراسيماخوس» مقصده بأن من يتمتعون بالقوة السياسية في أي حكومة طاغية أو ديمقراطية أو أرستقراطية يسنون القوانين التي تحقق مصالحهم.

لذلك تعد طاعة قوانين الحاكم عدالة. وتحقق هذه الطاعة الفائدة والمصلحة

للأقوى سياسيًا.

ينجح سقراط في الحصول على اعتراف «ثراسيماخوس» بأن هؤلاء الحكام يخطئون أحيانًا في القوانين التي يضعونها. وقد يسنون قانونًا ظنًا منهم بأنه يحقق صالحهم بينما لا يجلب هذا القانون لهم إلا الضرر بدلا من نفعهم. ويتفق كلاهما على أن هذا الخطأ التشريعي قد يحدث في كل مجال كأمن الدولة أو الاقتصاد أو البيئة أو التعليم أو في وسائل النقل.

وقد يضر هذا الخطأ التشريعي ويقضي أحيانًا على كل المنافع المرجوة منه. كذلك يهدد وجود مثل هذه الأخطاء التشريعية مقولة «ثراسيماخوس» إن العدالة تعني مصلحة الأقوى. وذلك لأن الطاعة مثل هذه القوانين الخاطئة عدلًا، كما قال «ثراسيماخوس».

ولا تحقق هذه الطاعة مصلحة الأقوى سياسيًا. لذا لا يعد «العدل» في «تحقيق مصلحة الأقوى» كما قد عرفه ثراسيماخوس بقدر ما يعد مضرًا له.

يقوم «ثراسيماخوس» بإعادة صياغة تعريفه «للعدالة» تجنبًا لنقد سقراط. ويؤكد أن تعريفه يتعلق بالحاكم بوصفه حاكمًا بالمعنى الدقيق.

«أتسمى من يخطئ في تشخيص مرض طبيبًا بسبب خطئه أومن يخطئ في عملية حسابية محاسبًا حين يخطئ وبخصوص هذا الخطأ؟

أعرف أن وفق طريقتنا في التعبير قد نقول إن الطبيب يخطئ، والمحاسب أو النحوي يخطئ، لكن أعتقد أيضًا أننا نعتبر أن أيًا من هؤلاء طالما وصفناه بما وصفناه لا يخطئ أبدًا. بالتالي وما دمت من المحبين للدقة لوجب أن تقول:

إن ما من محترف في فنه (صنعته) يرتكب خطأ. ولن يخطئ صاحب مهنة إلا إذا أهمل معرفتها وبات ليس خبيرًا بها أو عارفًا بأصولها. لذلك لا يمكن أن يرتكب صانع أو إنسان عاقل، أو حكيم أو حاكم خطأ طالما ظل حاكمًا على الرغم من أن أي فرد يستطيع القول بأن الطبيب قد أخطأ والحاكم قد أخطأ.

يؤدي هذا الشرط الذي وضعه «ثراسيماخوس» به إلى أن يعيد صياغته دعواه بأن الأقوى أي لا يكون أصحاب الكمال من الناس يتصفون بالأريحية «فلا يمكن للحاكم، طالما أنه حاكم، أن يرتكب الأخطاء أو لا يصدر الأحكام التي تحقق مصالحه». يستمر سقراط في فحص مدى صحة هذا القول بدقة، ويبحث في المعنى المحدد لكلمة الحاكم.

حجة الحاكم بوصفه حاكمًا

يسمى الفنان (صاحب الحرفة) بالمعنى الدقيق لهذا الاسم بسبب فنه. ولا يسعى الفنان لتحقيق كماله بل إلى كمال موضوعه. وبالتالي لا نستطيع الهرب من القول بأن الفنان باعتباره فنانًا -إذ شئنا الدقة- لا يبحث عن خيره الخاص وإنما خير موضوع فنه. فلا يسعى الطبيب مثلًا بالمعنى المحدد للكلمة إلى خيره الخاص بل إلى خير الجسد وصالحه، وكذلك يسعى الخيال لتحقيق صالح الفرس. علاوة على ذلك هناك صلة قوية بين الحكم والفن (المعرفة) إذ يتحكم الفنان في موضوع فنه ويكون أقوى منه (أي يتحكم العارف في موضوع معرفته) ويعد حاكم «ثراسيماخوس» باعتباره حاكما حسب الفرض فردًا لا يخطئ. وبالتالي فنانًا (عارفًا).

يترتب على ذلك «أن أي فرد يشغل منصب الحاكم أو في وضع الحكم لا يمكن أن يبحث عن مصالحه وإنما عن صالح الرعية التي يحكمها». وتنطبق النتيجة التي انتهى إليها سقراط على فن السعادة الإنسانية. ومع ذلك يثير «ثراسيماخوس» اعتراضًا جديدًا.

يتجاهل «سقراط» في مناقشته للفن أن الفنون في الحياة العملية تخدم أهدافًا أخرى للفرد الذي يمارسها. يرفض الأطباء مثلًا علاج الناس دون مقابل. ويستخدم «ثراسيماخوس» مثل هذه الحالات ليعترض على حجة سقراط بأنه يتجاهل الحقائق الواضحة في العالم الواقعي والعملي.

«يهتم الرعاة والمربون بتسمين الماعز والماشية من أجل صالح أنفسهم وأسيادهم وكذلك يعتبر الحكام في مدننا الذين يحكمون بالفعل، المواطنين ورعاياهم مصدرًا لمنفعتهم.

لم يستطيع «ثراسيماخوس» أن ينكر النتيجة التي انتهى إليها «سقراط» بأن الحاكم بالمعنى الصحيح يسعى لخير رعاياه. وإنما ينكر «ثراسيماخوس» أن هذه النتيجة يمكن أن تنطبق على الحكام الفعليين.

جعلت مثل هذه الوقائع النتيجة التي توصل إليها سقراط تبدو غير متسقة مع العالم الواقعي. وبالتالي يبدأ سقراط إلى البحث في أمر الحكام الفعليين في مدننا.

حجة الحكام في مدننا:

يخص اعتراض «ثراسيماخوس» نوعين مختلفين من الحكام في عالمنا الواقعي. نمط خاص كالرعاة ومربوا الأبقار. ونمط سياسي كهؤلاء الحكام في مدننا. ويقر الاعتراض بأن هناك فنًا محددًا ومنفعة ترتبط بكل نمط منهما. وطالما يهتم الرعاة والمربون بصحة الماشية والقطيع ويغذونهم. فإنهم يستخدمون حرفة الرعي وفن التغذية لتنميتهم وتغذيتهم.

كذلك يهتم الحكام في مدننا مثلهم بالمواطنين وصالحهم. يشبه الحكام في مدننا الحكام بوصفهم حكامًا أو الحكام الحقيقيين في مسألة استخدام المعرفة (الفن) لصالح رعاياهم. فإن الاعتراض يؤكد أن الفرق بين حكامنا والحكام الحقيقيين أن حكامنا يستخدمون المعرفة لتحقيق مصالحهم.

وإذا كان الرعاة والمربون يربون الماشية مقابل أجر يتقاضونه لتيسير أمور معيشتهم، فإن الحكام السياسيين في مدننا يحكمون رعاياهم لتحقيق المكسب المادي والربح.

يعتمد «سقراط» في الرد على ه ذا الاعتراض على التفرقة بين معرفة الرعاة

والمربين والحكام في المدن والمعرفة بفن اكتناز المال وتحقيق الربح. ويصبح من السهل على سقراط بعد توضيحه لهذا الفرق أن يبين أن الربح من الحكم في المدن الفعلية لا يدخل جيوب الحاكم بل جيوب الرعية.

نلاحظ حين نتتبع إجابة سقراط خطوة خطوة، أنه قد حصل أولًا على موافقة «ثراسيماخوس» عن اختلاف الفنون (المعارف) باختلاف متطلباتها ومنفعتها. ويضرب سقراط الأمثلة عن فن الطلب الطب الذي يهتم بالصحة، ومن الملاحة التي تحقق الأمان أثناء عملية الإبحار وفن التجارة الذي يحقق الربح.

ويعد «ثراسيماخوس» محقًا في الموافقة على هذا الشرط الخاص بطبيعة الحرفة (الفن) أي بشرط الهوية.

يبين سقراط أن الفروق الخاصة بكل حرفة (فن) وقوتها ومنفعتها تنطبق على المهن الفعلية في مدننا التي نجعل فيها حرفة ما في خدمة مهنة أخرى. فإذا حدث مثلًا أن عملية الإبحار وفرت الصحة لريان السفينة فإن حرفة الريان تظل مختلفة عن مهنة الطب أو تختلف معرفته عن معرفة الطبيب.

كذلك إذا كان الأطباء يتقاضون في مدننا الأجر مقابل العلاج، فإننا يجب أن نفرق بين تقاضيهم للأجر ومعرفتهم الطبية أو مهنتهم. لا تلقي مثل هذه الحالات بظلال الشك على شرط الهوية. ويعد «ثراسيماخوس» محقا في موافقته على أن الشخص في العالم الواقعي ربما يمارس أكثر من حرفة. وربما يمارس «معرفة» خدمة لتحقيق حرفة أخرى أو يمارس فنًا تحقيقًا لفن آخر .

يطبق «سقراط» هذا الفرق على الذين يعملون في مدننا في أكثر من حرفة والفنون المختلفة لتحقيق الرابح المشترك». يكسب أصحاب المهن الذين يكسبون المال من ممارسة المهن المختلفة مثل هذا المكسب من ممارسة مهنة جلب المال بالإضافة للمهنة الرئيسية التي يمارسونها».

نلاحظ في حالة الأطباء مثلًا في العالم الواقعي» أنه بينما تحقق معرفتهم

الطبية الصحة للناس فإن مهنة جلب المال توفر لهم الأجر. كذلك نلاحظ في حالة البنائين في العالم الواقعي «أنه بينما تشيد معرفتهم وحرفتهم المنزل فإن ممارستهم لحرفة جمع المال توفر لهم الأجر» ويمكن القول بشكل عام «إن المنفعة التي تنتج عن فن معين تفيد أو تخص موضوع ذلك الفن».

كان ثراسيماخوس قد اعترض على عدم معرفة سقراط بما يجري في العالم الواقعي لقوله بأن الحكام في مدننا يحكمون لصالحهم. وكانت الإجابة بأن الحكام في مدننا يعلمون لصالح رعاياهم كما يفعل الحكام الحقيقيون أو من بالحكم.

وكما يهتم الرعاة والعارفون بعض الرعاية والتربية بصحة الماشية والأغنام وتغذيتها يهتم الفن السياسي للحكام في مدننا بمصلحة المواطنين. يؤكد سقراط على مقولة أن فن الحكم السياسي حتى في العالم الواقعي يعمل على تحقيق الخير للمواطنين وليس للحاكم فقط.

ويجيب سقراط عن السؤال الذي طرحته حول محاورة (ليسيس) بأن من يعملون بفن معين ملزمون على تحقيق سعادة الآخرين، كما يجيب أيضًا عن السؤال الذي طرحته بالنسبة لمحاورة «مينو» بأن من يعملون بحرفة معينة لا يرغبون في الحصول على الأشياء الخيرة والإساءة في نفس الوقت للآخرين.

تظل مع ذلك وجهة نظر«ثراسيماخوس» حول الحكام في العالم الواقعي صحيحة. إذ يضع الحكام في عالمنا الواقعي فنهم السياسي في خدمة مصالحهم الخاصة. تمامًا كما يهتم «الرعاة والمربون بصحة القطيع من أجل تحقيق مصلحتهم الخاصة» لم يبين «سقراط» حتى الآن أن أبطال «ثراسيماخوس» يعيشون في بؤس ويعانون من العبودية. ويحتاج لحجج أخرى لتوضيح مدى بؤسهم وعبوديتهم.

البحث عن السعادة

يتفق «ثراسيماخوس» بعد حواره مع سقراط على أن الفن في الحكم السياسي

في المعالم الواقعي، وحتى إن كان الحاكم مستغلًا لرعاياه يحقق النفع لموضوعاته أي للمواطنين ولا يكون فنًا من أجل الفن أو حكمًا من أجل الحكم.

يتصف الحكام المستغلون بأنهم يستخدمون رعاياهم باعتبارهم أدوات لتحقيق مكاسب شخصية. وقد وضح سقراط (في الفصل الحادي عشر) أن هؤلاء الحكام لا يمارسون الحكم من أجل الاستمتاع بالحكم وإنما من أجل تحقيق الربح، يعترف «ثراسيماخوس) بعد تفكير عميق بذلك فانه يرى أن ذلك الأمر لا يقارن بالمنافع التي قد يحققها هؤلاء الحكام.

نلاحظ إذا ما عبر الناس عن رأيهم بصراحة أن «ثراسيماخوس» يمجد «الظلم» ويراه شرطًا لتحقيق القوة والحرية والسيارة. ويمكن الناس من الحصول على القوة السياسية واستخدامها لتحقيق المكاسب الشخصية على حساب الحكم والرعاية. كما يلاحظ أنه يقلل بالمقارنة مع ذلك من شأن «العدالة» ويراها صفة للعبيد الضعفاء من الناس الذين ينخدمون الأقوى. ويبدو الظلم من خلال هذه الوجهة من النظر محققًا للمكاسب المادية ومكسبًا للحياة الإنسانية.

ينتهي ثراسيماخوس على قناعة بأن الظلم يحقق «الكمال الإنساني». ويقول إنه يحقق القوة والحرية والسيطرة ويجعل الحياة السياسية أفضل.

ويؤكد أنه من الحكمة أن نعتبره محققا للكمال الإنساني، ويرفع قدر الذكاء لدى الناس ويحقق لهم حياة سعيدة ويعتبر «ثراسيماخوس» العدالة إن لم يكن عيبا في الطبيعة الإنسانية فإنها نوع من الجنون الفطري أو الموروث وليس لها دور في الكمال الإنساني أو في تحقيق الحكمة.

يعترف «سقراط» بأن موقف ثراسيماخوس متسق تمامًا وليس به أي تناقض واضح. ويحذر من أن مسألة الدفاع عن العدالة ليست مسألة سهلة على الإطلاق. يبدأ سقراط في تفنيد، مقولة (ثراسيماخوس) بأن الظلم حكمة ويحقق الخير. ثم ينتقل إلى تفنيد عبارته بأن الظالمين حياتهم أفضل من العادلين وأكثر ثراء منه.

وبينما يشعر الظالم بالتعاسة يشعر العادل بالسعادة.

يشقى الظالم ويسعد العادل. وأتناول عرض الحجتين اللتين يفند بهما سقراط ذلك على التوالي:

1 - العادلون حكماء وأخيار

تشكل الحجة الأولى المحور الأساسي في المناقشة. ويجد سقراط أنه بعد إثباته أن العدل حكمة وشيء خير من السهل عليه إثبات أن العادلين سعداء. يلتقط سقراط كعادته مقدماته من أقوال محدثيه، يتم تقييم الظالم بأن صفته الأساسية أن يكون أفضل من غيره في كل شيء بل ويحاول تحقيق ذلك. وينظر «ثراسيماخوس» لهذا التقييم الأناني أو الذاتي على أنه علامة على حكمة وفكر أعمق من حكمة العادل التقليدي وتفكيره.

وتعد الحكمة نافعة لأنه علامة على حكمة وفكر أعمق من حكمة العادل التقليدي وتفكيره وتعد الحكمة نافعة لأنها تحقق للظالم حياة رغدة وطيبة.

استطاع «سقراط» أن يفند القول بأن الظالم يكون حكيما وطيبا بسبب مشاركته في الاتصاف بأنه «يحاول الحصول على الأكثر» مع الجاهل وليس مع العارف أو الفنان. يعتمد سقراط في تفنيده على تحليل هذه الفكرة بالتفصيل.

يتمثل الجزء الصعب من هذه الحجة في إيجاد ما يؤيد الأمور التي يشترك فيها العارف وغير العارف (الفنان وغير الفنان) والتي تضم صفة الحصول على الأكثر التي يتصف بها الظالم، وتعد سببا رئيسيا لاتصاف الفنانين بالحكمة والمهارة فيما يفعلون.

يجب أن نلاحظ إذا أردنا فهما أوضح لحجة «سقراط» أن الظلم والعدل مثل المعرفة والجهل متضادان، تفترض الحجة بأن كل ظالم يشبه- طالما كان ظالما- الظالمين جميعا ولا يشبه العادلين أو أي فرد عادل تمامًا مثل الفنان في فن معين يشبه «طالما كان فنانا» كل الفنانين والعاملين بهذا الفن، ولا يمكن أن

يشبه أي جاهل بهذا الفن.

يوجد نوع من التفرقة بين الجهل الحذر والجهل الأحمق. يعي بعض الجهلة بمهارة معينة جهلهم. ويسعون بنوع من التواضع والحرص لطلب النصيحة أو في ممارسة هذا الفن أو تلك الحرفة.

ويوجد لفيف آخر من الجهلة الذين يتصفون بالحماقة يجهلون أنهم جهلة ولا يعترفون بجهلهم. لا يسعون لطلب المعرفة أو النصح ويسلكون دون دراية أو توخي الحيطة والحذر.

أعود لعرض هذه التفرقة هنا بسبب كما يبين سقراط، تشابه العلاقة بين العادل والظالم مع العلاقة بين العارف والجاهل الأحمق. وكما لا يشعر العارف والجاهل الأحمق بالحاجة لطلب المشورة أو النصح من بعضها بعضا كذلك يفعل العادل والظالم. ولا يوجد مثل هذا التشابه في حالة الجاهل الحذر أو الحريص الذي يطلب المشورة والمعرفة. وعلى الرغم من أن «سقراط وثراسيماخوس» لم يختصا بالحديث عن الجاهل الأحمق في هذه المناقشة، فغن التشابه يكون قويا وواضحا إذا كان بين الظالم كما يدركه «ثراسيماخوس» والعارف من جهة وبين الظالم والجاهل الأحمق من جهة أخرى.

لا يزال هناك المزيد من جوانب التشابه.

أولًا: إذا كانت المعرفة (بالطب مثلًا) تجعل الفرد حكيمًا في أمور الطب مثلًا ومفيدا في عملية تنمية الصحة، بينما يجعل الجهل بفن الطب الشخص أحمقًا وضارا، فإن «العدل» والظلم عن طريق المشابهة يؤديان إلى أن يصبح الشخص حكيمًا وخيرًا أو أحمقًا وشريرًا في الحياة الإنسانية (لم يختلف سقراط مع ثراسيماخوس حول هذا التشبيه. وإنما اختلفا عن أي منهما يمكن أن يجعل الفرد (العدل والظلم) حكيما وخيرا.

ثانيا: تشبه المعرفة حالة الظلم (كما يتصورها ثراسيماخوس) في أن كليهما

منتجان. وكما يهدف الظلم إلى تحقيق المكاسب الشخصية في الحياة الإنسانية، تهدف المعرفة أيضًا أو الفن لإنتاج شيء أو آخر. تحقق الموسيقى مثلًا التوافق بين الألحان، ويفيد الطب في تحقيق الصحة ووصف الوجبات المناسبة للمريض.

السؤال الآن: ألا تعد هذه المماثلة سطحية إلى حد كبير؟

يقال دائما إن هناك بونًا شاسعًا بين (المعرفة) و(السعادة). المعرفة معرفة الحقيقة. وقد نقترب نحن معشر البشر من الحقيقة أكثر وأكثر، فإن معرفتنا لا تتجاوز الحقيقة دون أن تقع في الخطأ.

وبالتالي تقيد «الحقيقة» حدود معرفتنا الإنسانية. بينما نعتقد في عدم وجود أي حدود أو قيود على السعادة التي قد نحاول الحصول عليها. يعني ذلك أن الإنسان يستطيع دائمًا الحصول على مزيد من السعادة.

فإذا كانت هناك حدود لمعرفتنا لا نستطيع تجاوزها فليس هناك مثل هذه الحدود لسعادتنا ونستطيع الحصول على المزيد منها. وذلك تستحيل المماثلة بين «المعرفة» و«السعادة» ويبطل التشابه بينهما.

يفترض الاعتراض أن هناك دائما المزيد من السعادة التي يمكن الحصول عليها. وبينما يعتقد «ثراسيماخوس» أن هذه الفكرة جزء من الحكمة، يراها «سقراط» معبرة عن الحماقة.

يتعلق الموضوع الرئيسي هنا بالحياة الإنسانية المثالية: أيجب أن تكون منقوصة ونحتاج دائمًا لما هو أفضل كما يتصور «ثراسيماخوس» أم أنها حياة مكتملة الكمال؟

يجب علينا ألا نستبق الحكم على هذا الموضوع وأن نتبع النقاش ونرى ما انتهى إليه .

على الرغم من عدم اتفاق كل من «سقراط» و«ثراسيماخوس» حول ما إذا كان أي منهما (العدل أو الظلم) يشبه الحكمة فإنهما اتفقنا على استخدام ما يسمى

باختبار البط، لحسم الموضوع. فإذا أن يكون «بطة». فوضح كل من «سقراط» و«ثراسيماخوس» المسألة كما يلى:

إذا ما شابه أي منهما (العدل أو الظلم) المعرفة فإنه يتصف بمثل ما تتصف به أي يتحقق الحكمة والخير في الحياة الإنسانية.

يضع سقراط الأساس الصلب للمناقشة منطلقًا من مقدمتين عن الحكماء والجهلة وأخريين متوازيتين معهما عن الظالمين والعادلين. تبين المقدمة الأولى كيف يحاول الفنان (العارف) الحصول على المزيد.

«يحاول الحكماء الحصول على المزيد أو ما يفوق من يتناقضون معهم أو الجهلة وليس مع من يتشابهون معهم، أي لا يسعون للتفوق على بعضهم بعضا أو من مثلهم».

يضرب سقراط مثلًا بحالة الموسيقى، حين «يحاول الموسيقي ضبط الأوتار» يسعى عن طريق ما لديه من معرفة نحو تحقيق الاتساق بين الأنغام بصورة أفضل من غير المعارف بالموسيقى، وليس بصورة أفضل من موسيقى آخر مثله، كذالك الطيب حين يصف طعامًا أو شرابًا معينًا يحاول أن يفيد الصحة أفضل مما قد يفيدها غير العارف بفن الطب ولا يسعى للتفوق على طبيب آخر مثله، وأعتقد أن الأطباء يحاولون التفوق على الجاهل بأمور الطب وليس على بعضهم بعضًا حين يتعلق الأمر بطرق تحسين الصحة أو على العارفين بمثل هذه الطرق.

يسعى الأطباء للتفوق على الجهلة والحمقى، وليس على زملائهم من الأطباء طالما أن الكل يعرف طرق العلاج الصحيحة.وعلى الرغم من صحة القول بأن الأطباء يتنافسون مع بعضهم بعضًا، فإن أيًا منهم لا يتفوق على الآخر إلا في تلك النقاط التي يكون هذا الطبيب الآخر جاهلًا بها.

تبين المتقدمة الثانية كيف يحاول الجاهل الأحمق الحصول على الأكثر: يحاول من لا يمارس المعرفة، والذي يتصف بالجهل والحمق للحصول أكثر مما

لدى خصمه، الحكيم، وأكثر مما من هم في مستواه.

تكون العلاقة بين هؤلاء الناس وبعضهم بعضا وخصومهم نفس الشيء. ووفق خبرتي يرغم معظم الناس أمثال «ثراسيماخوس» أن يتفقوا مع سقراط حول هذه المقدمة الخاصة بالجهل الأحمق دون فحص أو دراسة او تفكير.

وأعتقد أنهم يفعلون مثلي بسبب ما لديهم من ذكريات حول المواقف التي يبالغون فيها في ردود الفعل أو الحصول على الأكثر حين نقوم بشد السلك حتى ينقطع أو ربط المسمار حتى ينكسر.

على الرغم من عدم تقديم أي من سقراط أو ثراسيماخوس أن السبب في حصولنا على المعرفة الطبية أن الجسم الإنساني حين يتعرض للإصابة لا يستطيع علاج نفسه.

لذا حاول إنتاج المعرفة الطبية للحصول على علاج أفضل وأعتقد أن الجهلة بفن معين يرغبون أيضًا في تحقيق الإصلاح مثلهم مثل العارفين بأمور هذا الفن (المجال) فإن الفرق بين الجاهل والعارف يمكن في أن هناك شيئا لا يعلمه الجاهل يتعلق بالهدف الذي يسعى إليه، إما بالنسبة للوسيلة المثلى لكيفية تحقيقه أو لطريقة الوصول إليه.

لنفرض مثلًا أن فنانا يرغب ضبط نغمة معينة، ويمكن تحقيق هذا الضبط عن طريق شد كل وتر من الأوتار. يعلم الفنان العارف بالموسيقى كيفية عملية ربط الوتر ومتى يتوقف عن عملية الشد.

ويكتفي بمجرد إدراكه أنه قد شد الوتر لوضعه الصحيح. ولا يرغب في الحصول على المزيد من عملية الشد.

أما من يجهلون طريقة الشد الصحيح لا يعرفون متى تتحقق النغمة المطلوبة ولا تتوقف عملية إشباع رغبتهم في الشد حد معين. وإذا كان الفرد جاهلا وأحمق فإنه يعتقد في داخله أنه يعرف كيف يحقق المزيد من الإشباع.

ولما كانت الأوتار قابلة لمزيد من الشد فليس هناك حد لعملية التوقف عن الشد، واعتقد أ ن الجاهل يطبق نفس الطريقة، إذ يحاول الحصول على المزيد وتجاوز من هم فى مقامه أو من كان أكثر علما منه. (مع مثليه أو ضده).

يثبت هذا التفسير الذي قدمته أن صحة المقدمتين اللتين قدمها سقراط لم تكن مصادفة. يحاول الجاهل التفرق على أي إنسان آخر بينما يحاول الحكيم (العارف) التفوق على غير العالم أو الجاهل.

ولما كان البحث المعرفي أو الجهل من حماقة نتيجة لعيوب ونقص من الخبرة الإنسانية. وينتج من رغبة في الإصلاح والتغلب على هذه العيوب، فإن سعي الحكماء للحصول على المزيد يكون بسبب معرفتهم ومحاولة الجهلة للحصول على المزيد نتيجة لجهلهم وحماقتهم.

يستنتج (سقراط) من هاتين المقدمتين السابقتين عن كيفية محاولة (العارف) و(الجاهل) الحصول على المزيد مقدمتين أخريين متوازيتين معهما أو مماثلتين لهما , يشبه الظالمون الجهلة ويشبه العادلون العارفين.

يشبه الظالم الجاهل بسبب تعريف (ثراسيماخوس) للظالم بأن قيمته تتمثل في أنه يجب أن يحصل على المزيد من المكاسب في الحياة الإنسانية. ويسعى لأن يكون ما لديه أكثر مما لدى أي فرد آخر ويفوقه.

تقول المسلمة الثانية المماثلة بتشابه العادل مع العارف. فهل تعد مسلمة صحيحة؟

أيحاول (العادل) تحقيق المزيد من المكاسب في الحياة الإنسانية تفوق ما يحققه (الظالم) في هذه الحياة ولا يسعى لتحقيق مكاسب أكثر مما يحققها العالون مثله؟

أعتقد حجة سقراط تنهار إذا كانت المسألة تتعلق بالأهداف القصدية .

يقدم المثل الذي ضربه سقراط نفسه نموذجا للحسابات التي يقوم بها الشخص العادل.

يناقش (سقراط) في محاورة (كريتو) مسألة الهروب أو عدم الهروب من السجن. يقول سقراط لـ(كريتو) الشيء الوحيد الذي يجب أن نهتم به يتعلق بالسؤال عما إذا كنا نفعل الصواب.

كما يقول أيضًا إنه (يستبعد من كل مداولاته مسألة خسارة المال والسمعة بين أصدقائه أو مسألة الحرمان من فرصة تربية أولاده). نستنتج مما ورد في مداولاته أن هدفه القصدي ليس إلا فعل الصواب. ويلاحظ بصفة عامة أن هدف الإنسان العادل ليس إلا القيام بالفعل الصائب.

ليس هدف العادلين الحصول على أكثر مما لدى الجاهل أو مما لدى العادلين مثله. لذا يمكن القول:

إن مقدمة سقراط تعد باطلة إذا كانت المسألة تتعلق بالأهداف القصدية أي تنهار المقدمة إذا كانت (المحاولة) تعني (الهدف القصدي).

نلاحظ من جبة أخرى، أنه إذا كانت (المحاولة) تعني نتيجة طبيعية تصح مقدمة (سقراط) ويختفي زيفها. وأضرب هنا مثلًا عما يقصده الناس بالنتيجة الطبيعية حين يقولون (بالمحاولة):

يميل الناس لنصيحتي حين أتشاور معهم حول بعض المشروعات التي أفكر فيها بأن ما أحاول فعله يعد مستحيلًا. ولا يعدون حين يقولون ذلك: إن الهدف المقصود القيام به مستحيل. وإنما يتحدثون عن النتيجة الطبيعية لفعلي. لندرس المسألة التي يتناولها سقراط بهذه الطريقة:

(أيتم تقييم الإنسان العادل بأنه لابد أن يحصل على الأكثر ويفوق الظلم (بالنسبة للمكاسب في الحياة الإنسانية) وهل يرى أنه من الأفضل له أن يحصل على المزيد والتفوق؟

أتساءل حول ما إذا كان يرى أنه من الصواب أن يحصل على المزيد وأنه يجب أن يرغب في التفوق على الظالم في حصوله على هذه الزيادة .

أيتم تقييم الإنسان العادل على أنه من الطبيعي أي النتيجة الطبيعية أن يحقق لنفسه نفعا أكثر مما يحققه الظالم لنفسه في الحياة الإنسانية؟

وهل يفترض العادل أن من الصواب أن تكون لأفعاله مثل هذه النتيجة الطبيعية لفعله العادل أن يحصل على المزيد من الأرباح في الحياة الإنسانية، ولابد أن يرغب في ذلك بوصفه أمرا طبيعيا ونتيجة مسلما بها لأفعاله العادلة؟

السؤال الآن: ما الإجابات الصحيحة لتلك الأسئلة؟

أتصور وجود فريقين من الناس يجيب كل فريق منهما بإجابات مختلفة عن الآخر. وقد يجيب الفريق الأول بلا (النفي).

ويتفق أعضاؤه مع (ثراسيماخوس) على أن العدالة تتطلب دائما التضحية الشخصية. يقول أفراد هذا الفريق إذا ما استخدمنا المثل الذي ضربه بأننا إذا ما قارنا بين حياة العدل وحياة الظلم نجد أن الأولى أشبه بممر ضيق ينتهي بباب ضيق ،ويطلب منا الدخول منه، ويبدو لنا هذا الباب ضيقا لدرجة استحالة المرور منه.بينما نجد حياة الظلم طريقا واسعا ورحبا ومنحدرا .

نجد أن حياة الكذب والسرقة والخداع تفيدنا في تحقيق المكاسب والسعادة الشخصية إذا ما قورنت بحياة العدل.

ولعل ذلك السبب في تسمية الناس لهذه الأفعال باسم (المغريات) أو (أفعال الغواية).

وفق آراء أصحاب هذا الفريق أن مثل هذه الخيارات تحدد شخصيتنا الأخلاقية. فالطريق الضيق سليم أخلاقيا بينما الطريق الواسع مغريًا لأنه يمدنا بالحياة الأكثر سعادة ومتعة.

ونستطيع القول إن من يختارون هذا الطريق الضيق تعد اختياراتهم عادلة. فإن متعتهم أقل.

ولا تتصف حياتهم بالسعادة وإنما بالمعاناة الشديدة والبؤس. وإذا ما سأل سقراط عن عدالة المعاناة الشديدة. وتكون الإجابة بالمعنى فإن مقدمه تبطل وتنهار حجته. فإن العادل السعيد يجيب بنعم. لا يتفق أفراد الفريق الثاني مع تقييم (ثراسيماخوس) ويصفون الطريق الواسع كما وصفه (المسيح) بأنه الطريق الأفضل بأي عنى ولن يؤدي إلا للدمار.

ويعير مسائل العدل واعتباراته من الأمور الأساسية التي يمكن الإنسان من تحقيق مكاسبه الشخصية.

ماذا يكسب الإنسان أذا ما كسب العالم وخسر نفسه؟ يعد سقراط أيضًا كما ظهر في محاورة (كريتو) نموذجا فريدا لأعضاء هذا الفريق الثاني. ذلك حين يقول:

(تعتبر الحياة السعيدة حياة العادل من السعادة ولا يفقد لحظة من لحظاتها. لا ينظر أفراد هذا الفريق للعدالة على أن المعاناة الشديدة من طبيعتها، وإنما على أنها السبب الرئيسي للسعادة الإنسانية. ويجيب أعضاء هذا الفريق بنعم عن سؤال سقراط عن النتيجة الطبيعية لحياة العدل .

إذا ما فسرنا (المحاولة باعتبارها نتيجة طبيعية، و(العادل) بوصفه العادل السعيد تعد مقدمة (سقراط) صحيحة. وذلك هو المعنى الذي استخدم به كلمتي (المحاولة) و(العادل) في هذه المقدمة وأثناء تحليل المحاورة كلها.

حين بدأت المحاورة وصف (ثراسيماخوس) محاولات هؤلاء الناس -العادلين السعداء- وتقييماتهم على أنهم دليل على غبائهم في الحياة الإنسانية. فإن سقراط لا يزال يجمع حتى الآن المقدمات التي تم الاتفاق عليها:

- (بالنسبة للعارف. وغير (العارف) يرغب في أن يفوق أي (عارف) مثله في الفعل والقول أن يتساوي بمن يماثله في نفس ما يعرفه؟).

تُعد الفكرة الرئيسية في الحوار، بسيطة، حيث يتشارك «الظالم» مع «الجاهل»

في الرغبة في الحصول على المزيد في الحياة الإنسانية، ولا يتشارك «العارف» في هذه الصفة معهما. ولئن كانت الفكرة الرئيسية بسيطة لكنها معقدة التفاصيل والتركيب وتستعصي على الفهم من قبل معظم القراء، إذ يعد من الأمور الصعبة الحكم على سلوك العارف وغير العارف بأنه يتصف (البحث عن المزيد) التي يتصف بها الظالم والتي تعد صفة أساسية أيضًا لا تصف العارفين أو أصحاب الفن بأنهم حكماء وخيرون في أفعالهم.

تتعرض الحجة التي وردت في النص للعديد من الاعتراضات. وكانت هذه الاعتراضات سببا في وصف العديد من المفسرين لهذه الحجة بأنها باطلة ولا قيمة لها. لقد عرضت بعض هذه الاعتراضات وحاولت تفنيدها. وحاولت تجاوز النص والذهاب لما وراءه للرد عليها.

وفرقت بين الحمق والجهل الحذر، وبين سعادة العادل والمعاناة الشديدة، والنتائج الطبيعية والأهداف التعددية. وتجاوزت النص أيضًا وبذلت جهدا كبيرا لأبين أن الطرق المختلفة التي يحاول العارفون والجهلة بها الحصول على المزيد والتفرق ليست مجرد مصادفة ،وإنما نتيجة لمعرفتهم وقدرها.

لقد بات من السهل بسبب الجهد الذي بذلته في تحليل هذا الحوار الميل لتصديق «سقراط» حين يقول «لقد وافق «ثراسيماخوس» على كل هذه الأمور بصعوبة، وليس بالصور السهلة والبسيطة التي أعترضها بها الآن وإنما وافق عن كره منه. كانت نتيجة النقاش رائعة ومستحقة لهذا الجهد ولا غرابة في الحاجة إلى مثل هذه الحجة القوية الصعبة. لم يثبت سقراط حتى الآن أن العادل أكثر سعادة من الظالم.

وإنما اثبت فقط أن العادل أكثر حكمة في أمور الحياة الإنسانية وأفضل في تحقيق الغنائم في الحياة والمكاسب الإنسانية، بينما يتصف الظالم بالحماقة والفشل في تحقيق مثل هذه الأمور، ومع ذلك يمكن القول بأن الجزء الأصعب

قد تم إنجازه.

العادلون سعداء

يستخدم «سقراط» وثراسيماخوس كلمة «السعادة» على الرغم من تعدد معانيها في اللغة اليونانية، بمعنى الهدف الذي نسعى إليه جميعا، ويمكن تسمية هذا الهدف باسم الحياة الإنسانية الكاملة. ويمكن فهم كلمة «السعادة» في اللغة الإنجليزية بهذا المعنى أيضًا.

وتنطبق النتيجة التي ينتهي إليها الحوار على هذا المعنى وحده وتعني «السعادة» بالنسبة للقارئ مثل هذا المعنى خاصة إذا كان مهتما مثل سقراط وثراسيماخوس بالسؤال الوجودي كيف نحيا وما الأسلوب الأفضل لحياتنا. يبين سقراط بسهولة شديدة بعد استنتاجه لمقولة «إن العادلين حكماء وأخيار ويفيدون في تحقيق الخير في الإنسانية، بينما الظالمون حمقى وأشرار،أن العادلين حياتهم الإنسانية أفضل من حياة الظالمين.

استخدم ما أسميه بالتماثل بين «النفس» و «العين» واستند حين تحدث عن النفس على نفس الفرض الذي يستند عليه علماء النفس اليوم. لم يستخدم في حجته أي فروض مثيرة للجدل أو للخلاف حول ما يسمى بالجوهر الروحاني أو بما يتعلق بحياة إنسانية ثانية بعد هذه الحياة. ينظر «سقراط» «للنفس» كما ينظر إليها علماء النفس بواصفها جزءا من البدن كالأذن أو العين. لقد تضمن الحوار بالفعل عرضا للتشابه بين «العين» و«النفس». ويمكن متابعته بسهولة في الجدول أو الشكل التالي.

وتستطيع أن توضح في الفقرة الثانية من الجدول الذي سماه سقراط «النفس» مدى استفادته من مقولة «أن العدل يحقق الخير في الحياة الإنسانية بينما الظلم ليس إلا الشر بعينه».

	العين	النفس
1	نستطيع الرؤية عن طريق العين	نتدبر الأمور ونسيطر عليها ونوجهها عن طريق النفس ونحيا باعتبارنا بشرًا.
2	الرؤية كمال العين والعمى نقصها.	العدالة كمال النفس والظلم ضعفها في الحياة الإنسانية.
3	ترى جيدًا طالما تبصر ولا ترى بوضوح إذا عميت	تحيا النفس العادلة حياة طيبة وتشقى النفوس الظالمة في حياتها.
4	نرى أفضل بعيون مبصرة وتضعف رؤيتنا بعيون عمياء	نحيا بالنفس العادلة حياة طيبة وتشقى النفس الظالمة حياتنا.
5	نوفق في المشاهدة إذا كانت عيوننا تبصر جيدًا ونفشل إذا كانت ضعيفة.	نسعد إذا كانت لدينا نفوس تحيا حياة طيبة ونشقى إذا كانت نفوسنا ضعيفة.
6	ينجح المبصرون في الرؤية ويفشل العميان	يسعد العادلون ويشقى الظالمون.

توجد مشكلة بالنسبة للعبارة رقم (3). ويبدو أن مشكلة العوامل الخارجية قد تبطل الأحكام المتعلقة بقدرة كل من العين والنفس. قد تتوفر للعين المبصرة القدرة على الرؤية الواضحة، فأنها لا تستطيع تحقيق هذه الرؤية إلا إذا توفرت لها الظروف الخارجية. فلا ترى العين المتوفر لها القدرة على الإبصار أفضل من المحرومة منها أذا ما غاب الضوء.

يعرض أرسطو في كتاب «الأخلاق النيقوماخية» لمشكلة العوامل الخارجية

بالنسبة للنفوس.

يقول: «تتطلب السعادة بالإضافة للكمال الإنساني بعض العوامل الخارجية المناسبة. ويعد من المستحيل أو على الأقل من الصعب القيام بالأشياء التي ترغبها دون توفر الأدوات المناسبة لتحقيق هذا الأفضل:

التي نسعى لتحقيقها إلى أدوات معينة تساعدنا. نحتاجها مثلًا لتحقيق الصداقة والثروة والقوة السياسية». يعتقد «أرسطو» أن مجرد وجود القدرة على الأبصار لا يعد كافيا في حد ذاته لتحقيق الرؤية بوضوح. كذلك لا تكفي قدرتي وحدها مهما كانت درجة كمالها لأن أكون صديقا أو عاشقا أو والدا أو زوجا لأسلك باعتباري صديقا أو عاشقا أو زوجا أو والدا.

ويعد «أرسطو» محقا في ذلك. فمهما كانت مقدرتي الشخصية لأسلك بوصفي عضوا في المجتمع أجد أنني معرض للهجوم من قبل هذا المجتمع. تتمثل الاعتراض إذن في أنه مهما كانت قدرتي على العدالة فإنها لا تعد كافية وحدها لتضمن وجود العوامل الخارجية المناسبة لهذه القدرة. ينار اعتراض «أسطو».

ولا تحتاج العدالة كما تحتاج الرؤية لأن تكون الظروف الخارجية مناسبة. تشكل كل لحظة من لحظات حياتنا الإنسانية فرصة مواتية للسلوك السليم والقويم، سواء كنا نعيش وسط أصدقائنا أم في عزلة، أحرارا أو عبيدا، أغنياء أو فقراء، أصحاء أو مرضى. وكذلك سواء كانت العوامل الخارجية تخيفنا أم نولد الثقة لدينا، مؤلمة أو مبهجة.

وأعتقد أن «سقراط» قد يجيب على اعتراض «أرسطو» المتعلق بالعوامل الخارجية بما يقوله في محاورة «لا خير» عن الشجاعة. يقول سقراط:

«لا أتحدث عن الشجعان في الحروب فقط، وإنما عن اللذين يواجهون مخاطر البحر، والمرض، والفقر والظروف السياسية والمجتمع .كذلك لا أقصد من

لديهم الشجاعة في مواجهة الألم والخوف وإنما من يواجهون رغباتهم ولذاتهم حين يعاونون منها أو يتجنبونها. إذ لدي قناعة شديدة أن هناك من يواجهون مثل هذه الأشياء بشجاعة». يمكن تحقيق «العدالة» مهما كانت العوامل الخارجية. ليست العدالة مثل «البصر» لا يحدث إلا إذا كانت لدينا عيون والقدر الكافي. ونستطيع تحقيق العدالة مهما كانت العوامل الخارجية إذا كانت نفوسنا تستطيع التدبر والتفكير والسيطرة.

يصل في موضع آخر في محاوراته إلى نتيجة جديدة. لا تتوقف العدالة على مدى توفر العوامل الخارجية وإنما تتوقف أيضًا على بغض الدوافع الباطنية. ونستطيع أن نمارسها أيضًا بغض النظر عن هذه الدوافع طالما أن العدالة كامنة فينا بالفعل. ويمكن أن يتصف الولد أو الصبى أو الرجل المسن أو المرأة بالكمال الإنساني الذي يتصف به الإنسان الناضج.

واستطاع سقراط أن يثير دهشة «مينو» صاحب العقل المحافظ والتقليدي من نفس المقدمة التي وضعها، وبين فيها أننا نستطيع تحقيق العدالة أو نتصف بها، خاصة حين نتدبر في أمر يتعلق بحياتنا الخاصة). ويثبت سقراط أن السلوك بصورة عادلة لا يتوقف على (ماذا) بل على (كيف)، أي ليس على الموضوع وإنما على الطريقة التي ندير بها الموضوع.

مينو: لا يبدو لي يا سقراط أن الكمال يكون واحدا في حالة الأولاد وكبار السن والنساء والرجال.

سقراط: ماذا؟

ألم تقل من قبل أن كمال الرجل يعني قدرته على إدارة مدينته بصورة جيدة، وكمال المرأة يعني نجاحها في إدارة شئون بيتها؟

مينو: نعم قلت.

سقراط: حسن، أيمكن إدارة الفرد لمدينته أو لبيته أو لأي شيء آخر، وتحقيق

النجاح في مهمته دون حكمة وعدالة؟

مينو: بالتأكيد، لا يحدث ذلك.

سقراط: ألا تعني الإدارة السلمية أن الفرد يتمتع برجاحة العقل والسلوك العادل؟

مينو: بالضرورة

سقراط: إذن، يحتاج الرجل والمرأة لهذين الشيئين نفسهما إذا أرادا أن يكونا من الأخيار، ويتصفا بالكمال أي يحتاجان لفضيلة العدل ورجاحة العقل.

مينو: هكذا يبدو.

قد يعد الاعتراض الذي أثاره «أرسطو» على النقطة الثالثة في الجدول اعترضا صحيحا بالنسية لعملية الرؤية. وتستطيع العين «الرؤية» طالما لديها قدرة على الإبصار فإنها لا ترى رؤية جيدة بالفعل إلا إذا سمحت العوامل الخارجية لها بالرؤية. فإن هذا الاعتراض لا ينطبق على فضيلة «العدالة»، وذلك طالما أن الروح لديها القدرة على تحقيق العدل والوعي الكافي في الوقت نفسه بكيفية إدارة الأشياء.

بل وتستطيع النفس في بعض الحالات الشاذة التي لا تجد فيها ما تريده حين تحيا في جزيرة في عزلة تامة أن تدير أمرها وتدبره.

وتحيا مثل هذه الروح حياة عادلة أي حياة تحقق فيها الكمال الإنساني، وبالتالي تتصف بمعنى من المعاني بأنها تحيا حياة طيبة وجيدة. ومع ذلك هل تشكل مثل هذه الحياة السعادة؟

يرفض «أرسطو» مقولة سقراط في (النقطة الخامسة في جدول التطابق) القائلة بأن مجرد الحياة الطيبة أو الجيدة التي تحياها النفس، أي حياة تتصف بالكمال بمعنى العدل أن تكون هذه الحياة كافية لتحقيق السعادة لهذه النفس.

«يظهر الكمال الإنساني ذاته دائما ناقصا. إذ قد يعاني صاحب هذا الكمال من سوء الحظ. ولن يستطيع أن يصف أي إنسان هذا الرجل الذي يحيا هذه الحياة بأنه إنسان سعيد إلا إذا كان يدافع عن دعواه بأي ثمن كان».

«تثبت الخبرة الإنسانية أن الحظ السيئ كالخسارة والألم والموت يمكن أن يصيب العادل والظالم على السواء، ويقلل هذا الحظ السيئ والعثر من سعادة أي فرد أو يهدمها.

ويرى «أرسطو» أن منكر صحة هذه الخبرة تعد من الذين لديهم الاستعداد لقول أي شيء إلا الاعتراف بالخطأ أي يدافع عن دعواه مهما كان الثمن».

لم يلق التشابه الذي وضعه «سقراط» في النقطة الخامسة «بأن الحياة الطيبة حياة سعيدة» (والمقصود بالطيبة هنا العادلة) تأييداً كاملاً. وقد دفع ذلك ببعض المفسرين المحدثين إلى محاولة التقليل من قدر هذا التشابه.

ويمكن أن يتم تفسير هذا التشابه لو أن كلمات سقراط تعني أن العدالة قد تحقق لنا في ظل الظروف التي نحياها اليوم قدراً أكبر من السعادة- على الرغم من أن الظروف التي قد تسبب الألم والخسارة والموت ليست محققة للسعادة أو ظروف سعيدة فإنها أقل تعاسة من غيرها- وأن ما قد يحدث للإنسان الطيب العادل يكون في معظم الأحيان أفضل مما يحدث للسيئ بهذه الصورة أفضل من تلك التي وردت على لسانه في النص.

لم يحذ الفلاسفة القدماء حذو المفسرين المحدثين وأخذوا بنتيجة «سقراط» على علتها أو حسب صورتها الظاهرية. رفضها البعض مثل «أرسطو» باعتبارها غير قابلة للتصديق.

ووافق عليها الذين اقتنعوا بالحجج التي ساقها «سقراط» أو بنمط حياته. وافق العديد من المدارس الفلسفية على هذه النتيجة. بل قدم الرواقيون والكلبيون دفاعاً قوياً عن مقولة «سعادة العادل حتى في أسوأ الظروف».

تخيل إذا أردنا توضيح حجة سقراط أن هناك مجموعة من الرياضيين يشاركون في مباراة رياضية كبرى.

وتخيل أيضاً أن فرداً يجهل قواعد اللعبة يراقبهم. يلاحظ الجاهل بهذه القواعد أن اللاعبين يجهدون أنفسهم ويهدرون طاقتهم.

ويبدو مثل هذا الوضع لهذا الشخص على أنه نوع من الإجهاد العقلي والجسماني وسوء الحظ. ونجد لسان حاله يقول « لا يمكن أن يصف أحد الذين يحيون هكذا بأنهم سعداء وإلا كان مكابراً ويدافع عن دعواه بأي ثمن».

يفترض من لا يمارسون الرياضة أن الخبرة الإنسانية تؤكد أن الراحة أفضل من بذل الجهد. ويُعد هذا الفرض خاطئا. إذ يقدر الرياضيون كمال الأداء وتعبهم وتصبب العرق منهم باعتبارها دلالة على صحة آرائهم وليست نوعاً من سوء الحظ. لا يكرهون الجهد والأداء النشط وإنما الكسل وعدم اللعب والجلوس على دكة المشاهدين.

يشبه العادلون هؤلاء الرياضيين فإنهم لا يقدرون النشاط الرياضي وإنما النشاط الإنساني المتصف بالعدالة أي عدالة السلوك الإنساني.

توجد عدة اعتراضات على هذا التشبيه. يرى بعضها أن الرياضيين يقدرون أشياء أخرى بجانب نشاطهم الرياضي كحب الانتصار، والشهرة، والمال. وعلى الرغم من أن الرياضيين قد يحبون ممارسة النشاط الرياضي لذاته فإنهم يمارسونه أيضا باعتباره وسيلة لغايات أخرى.

وقد يفشل هؤلاء الرياضيون أحياناً مهما كانت مهارتهم الرياضية في تحقيق هذه الغايات الأخرى. وتزداد تعاستهم كلما زادت درجة محبتهم لمثل هذه الغايات. فإن كان العادلون مثل الرياضيين فإنهم قد يقدرون غايات أخرى كالثروة والصحة والأسرة وحياتهم إلى جانب محبتهم للعدالة وسلوكهم العادل. وقد يفشلون على الرغم من عدالتهم في تحصيل هذه الغايات الأخرى. ويزداد قدر تعاستهم كلما

زاد قدر محبتهم لمثل هذه الأشياء.

وهكذا يثبت هذا التشابه أو التشبيه إذا ما نظرنا للأمر على هذه الصورة ببطلان النتيجة التي قال بها سقراط. وقد يحطم الحظ العثر سعادة العادل كما يحطم سعادة الرياضي.

أوافق على صحة هذا الاعتراض بالنسبة لمن يقدرون أشياء أخرى بجانب سلوكهم العادل. ولا تستطيع حياة العدل مهما كانت درجة كمالها أن تمنع خسارة هذه الأشياء الأخرى التي يقدرها الناس كالثروة والصحة والأسرة والحياة ذاتها. ويصيبهم دائما هذا الحرمان من هذه الأشياء بالتعاسة. بل يمكن القول إن تعرضهم للنقد قد يصيبهم بالقلق قبل حتى الحرمان من مثل هذه الأشياء. وإذا ما حاول سقراط طمأنة من يفكرون في هذه المكاسب الأخرى بجانب سلوكهم العادل أو عدالتهم فإن محاولته مصيرها الفشل.

قد يفقد هذا الاعتراض قيمته إذا كان «سقراط» لا يقصد من مقولته إلا من لا يفكرون إلا في العدالة فقط، أي لا يقدرون أي شيء آخر غير العدل ذاته والسلوك العادل. ويبدو واضحاً أن سقراط في محاورة «الدفاع» لا يقصد من مقولته إلا هؤلاء الناس. حيث لا يطالب العادل وحده بتكريس جهده وتفكيره وإنما أي «إنسان آخر يُقدر أي شيء له قيمة»[1]. يجب على هذا الإنسان الا يفكر في مخاطر الحياة أو الموت حين يسلك، وعليه أن يفكر فقط فيما كان سلوكه يتصف بالعدل أو بالظلم».

لا يخفى على أحد أن الفقر والمرض والعزلة أو حتى الموت ليس لأي منها أدنى تأثير على من يكرس جهده لتحقيق هدف واحد. لا يهتم المتعصبون إلا بتحقيق هدفهم. كذلك ليس هناك أدنى تأثير لمثل هذه الأشياء على من يكرس جهده لخدمة العدالة. فإذا كان سلوكهم العادل مدعاة اهتمامهم التوحيد فإن ما قاله

(1) المقصود أن يكرس الإنسان جهده لتحقيق هدف واحد مهما كان الثمن.

أرسطو عمَّا يسمى بالمعاناة من سوء الحظ لن تفسد سعادتهم أو تلحق الضرر بهم.

نسبت للعادلين الذين قصدهم سقراط في حواره صفة التعصب التي يتصف بها صاحب الهدف الواحد. ولئن كان هذا الوصف ينجي «سقراط» من نقد أرسطو فإنه يثير قضية أخرى مقلقة لحد كبير. إذ يُعد تركيز المتعصب تفكيره في هدف واحد أمراً مستهجناً، ومن الأمور المؤسفة المؤثرة على رجاحة العقل والتفكير. لذا يُعد إخلاص العادل لعدله وتكريس عقله لتحقيقه فقط يُعتبر من الأمور المستهجنة والمؤسفة.

لقد بدا سقراط مثلاً إنساناً متعصباً في محاورة «كريتوس» حين كرّس جهده تجاه تطبيق العدالة فقط. واستهجن «كريتو» نية سقراط في الامتثال لعقوبة الإعدام.

«لا أعتقد أنك مصيب يا سقراط في عزمك إهدار حياتك حين تكون لديك الفرصة لإنقاذها. وعلى الرغم من قدرتك على الانتهاء من تربية أطفالك وتعليمهم فضلت تركهم وهجرهم. فإما أن ينجب المرء الأطفال ويعمل على تربيتهم وتعليمهم حتى النهاية أو لا يفكر في الإنجاب على الإطلاق».

ربما إذا كان سقراط قد شعر بنوع من الصراع النفسي تجاه هذه النتائج المترتبة على قراره لوجد معظم الناس أن من السهل الإعجاب بالتزامه بمبادئه والتمسك بها. فإنه لا توجد أي دلالة في إجابة سقراط على حديث «كريتو» العاطفي بل وحتى نهاية المحاورة على شعوره بالهم أو بالصراع النفس الباطني. ويُعد هذا الشعور بالرضا الذاتي نتيجة لإخلاصه وتكريس جهده لخدمة هدفه. لقد كان موقفه موقف المتعصب لرأيه الأمر الذي يجب أن يثير قلقنا.

أعتقد أن الانزعاج من موقف سقراط المتعصب ذو شقين: الأول انزعاج من إهماله لواجباته تجاه أصدقائه وأحبائه، والثاني قلق من اتصافه بالوحشية وغلظة القلب وعد تقديره لمعاناة الآخرين من المخلصين له.

تفند طبيعة العدالة الشق الأول من الشقين السابقين. وتؤكد المعرفة بطبيعة

العدالة أن الشخص العادل والمخلص لعدله يؤدي جميع واجباته بأفضل الصور الممكنة. ولا نستطيع أن نطلب من إنسان أكثر من ذلك. كذلك يرغب الجاهل من جهة أخرى أو الذين يعانون نقصاً معرفياً أمثال سقراط أن يراجعوا الأسباب التي قد تدفعهم للقيام بفعل معين. وقد فعل سقراط ذلك في معرض رده على «كريتو» حيث قال «يجب دراسة ما إذا كان من الواجب الاستماع لنصيحة كريتو أم لا». ويمثل الجزء المتبقي من المحاورة صورة من عملية المراجعة وإعادة البحث. يأتي واجب البحث عن أفضل أسلوب لتحقيق الحياة العادلة على قمة أوليات الشخص ناقص المعرفة أو الجاهل. يختلف موقف سقراط بسبب وضع هذا الواجب على قمة أولوياته عن موقف المتعصب المثير لأسفنا ويفترق عنه. فليس من المستهجن حين تكون جاهلاً أن تسعى للبحث عن أفضل الطرق لتحقيق واجباتك، وإنما من المستهجن أن تهمل هذه الواجبات تماماً.

يستنتج «سقراط» أن النفس التي تحيا حياة عادلة تشعر بالسعادة. ويعترض «أرسطو» على ذلك بأن النفس التي تحيا حياة الكمال لا تكون محصنة من الإصابة بسوء الحظ والظروف البشعة التي يمكن أن تدمر سعادتها. واعترفت حين ناقشت هذا الاعتراض بأن حياة العدل لا تضمن سعادة من يقدّرون أشياء أخرى غير حياة العدالة ذاتها كالحياة والصحة والثروة والمكانة الاجتماعية. ولن تحقق حياة العدل السعادة إلا لمن يسعون في أفعالهم لتحقيق العدالة لذاتها. يتم اتهام هؤلاء الناس بأنهم يكرسون حياتهم لشيء واحد وبأنهم يهملون واجباتهم ويرغبون ولا يعيرون التفاتاً لسعادة الناس وحياتهم بل ولا يرغبون في مراجعة الفروض التي يسلكون وفقاً لها أو معتقداتهم المسبقة. وانتهيت من تحليلي لموقف «سقراط» بأن عدالة «سقراط» لن يترتب عليها أي نوع من أنواع التعصب. ولا يمكنهم لوم من يكرسون حياتهم لها أو وصفهم بضيق الأفق وإهمال واجباتهم. وبالتالي ينهار نقد «أرسطو» للنقطة الخامسة.

يثير «أرسطو» في نفس الفقرة التي أشير فيها للمعاناة من الحظ العثر اعتراضا جديداً للنتيجة التي ينتهي إليها سقراط في النقطة السادسة في جدول التطابق. «يُعد الكمال الإنساني في حد ذاته ناقصا. فقد يكون صاحبه إنسانا سلبيا في حياته أو نائماً. ولا يمكن لأي فرد وصف هذا الرجل بأنه سعيد إلا إذا كان مكابراً ولا يعترف بالحقيقة». تفقد النفس وعيها أثناء النوم، والغيبوبة والخبل العقلي والموت. ولا تستطيع النفس إذا فقدت وعيها أو حياتها أن تفعل أي شيء مهما كان معنى العدالة.

قد يكون «أرسطو» محقاً في أن النوم والموت والأمور الأخرى قد تقلل من نشاط الحياة الإنسانية. فإنه لا يمكن أن ننكر أن النفس تستطيع أن تحيا حياة سعيدة وعادلة طالما تشعر بالحيوية قصرت أو طالت هذه الحياة.

يمكن أن يظل اعتراض «أرسطو» قائما إذا أخذنا في اعتبارنا أن معظم الناس يرون أن الحياة السعيدة القصيرة اقل قيمة من الحياة الطويلة. وكلما طالت الحياة كلما كان أفضل. وإذا ما قبلنا نتيجة سقراط الرائعة بأن كل لحظة واعية من لحظات الحياة العادلة لحظة سعيدة، فإنه لا يمكن إنكار أن قيمة هذه الحياة تقل بسبب قصر مدتها. فإن كانت السنتان من السعادة شيئاً طيباً فإن العشرين عاما منها أفضل بكثير. وإن طالت أو زادت لكان أفضل.

ربما يبين سقراط أن العادلين يسعدون طوال حياتهم فإن الحياة المحدودة والقصيرة يؤذيها الموت.

إذا ما تم تطوير نقد أرسطو أو اعتراضه في هذا الاتجاه فإن الاعتراض بهدم نفسه. ونصاب بالإحباط الشديد إذا كان هدفنا إطالة الحياة لأنه هدف لا يمكن تحقيقه. ولا يستطيع أي شخص عاقل في ضوء هذا الإحباط الا يقلق أو يتجنب الانزعاج. ومع ذلك لن يؤثر طول فترة حياتنا على شعورنا بالسعادة. ولا يمكن أن تتحقق سعادتنا من بحثنا عن الحياة المديدة، وإنما من تكريس جهد لإقامة العدل

قد يجعل سعادتنا ذاتها محصنة حتى من الموت.

وإذا كان سقراط يتحدث عن العادل الذي يكرس حياته لتحقيق العدل فإنه يصيب في قوله في محورة «الدفاع»:

«لا يمكن أن يصاب الإنسان الطيب بسوء في حياته أو بعد مماته».

الفصل الحادي عشر

الحـــرية

كانت الحرية ولاتزال هي هدف كل فليسوف ومفكر مهما كانت أفكاره ونادرا ما تجد مفكر أو باحث أو فليسوف لا يبتغي الحرية وهكذا حال سقراط ولا تتعجب حين يمدح «ثراسيماخوس» الظلم لأنه يحقق لمن يمارسون السلطة السياسية المكاسب والنفع على حساب رعاياهم. ويرى أن الحرية ليست إلا هذه القوة والسيطرة والسلطة.

ويحط في المقابل من شأن العدالة باعتبارها شرطاً للعبودية لأصحاب السلطة السياسية. يفند سقراط مزاعم «ثراسيماخوس»، ببيان عبودية هؤلاء الحكام وحرية العادلين.

1 - الأفعال المساعدة (الثانوية)[1]:

يُعد «ثراسيماخوس»[2] محقاً في القول؛ بأن العديد من الحكام في العالم الواقعي لا يسعون لخدمة رعاياهم وإنما لتحقيق مصلحتهم الذاتية من الحكم باكتناز الثروة. يجعل هؤلاء الحكام ممارسة الحكم وسيلة لكسب المال. يؤكد سقراط أن «أمثال هؤلاء الحكام لم يوافقوا الحكم على إرادتهم».

يتم الاعتراض على تلك النتيجة التي انتهى إليها «سقراط» بتجاهله اختلافاً مهماً. حيث يضحي العمال ويتركون أوطانهم ويخاطرون بحياتهم على فرصة للرزق وكسب المال.

---

(1) المقصود الأفعال التي لا تكون غاية في ذاتها وإنما تهدف لتحقيق غايات أخرى.

(2) ثراسيماخوس: هو أحد السوفسطائيين زمن سقراط.

حيث يوجد اختلاف كبير بين إرادة هؤلاء العمال وإرادة العبيد. فحين أعمل للحصول على المال اختار العمل الذي أرغبه. بينما لا تحتاج إلى نفس الفرصة للاختيار إذا كنت عبداً. فالقرار بيد السيد. بل ويظل هذا الفرق قائما حتى إذا ما قرر السيد منحي أجراً مقابل عملي باعتباري عبداً عنده.

فلا يحصل العبد على نفس الفرصة التي يحصل عليها العامل. ويتمتع العامل بقدر من الحرية لا يتمتع العبد بها.

يُعد الاعتراض محقاً بأن الفرق بين العمل مقابل أجر والعبودية واضح ومهم. فإنه يُعد خاطئاً في افتراضه بأن الفرق الوحيد المهم بالنسبة للحرية والفعل الإرادي. إذ يوجد هناك فرق مساوٍ له في الأهمية بين الأفعال باعتبارها وسائل لغايات أخرى وتلك الأفعال التي تكون غاية في ذاتها.

يصور الاختلاف بين «الجحيم» و«المطهر» و«الفردوس»، هذا الفرق تصويراً دقيقاً. يصور «الحجيم» كما وصفه دانتي في الكوميديا الإلهية هو المعاناة من العبودية دون أمل في تحقيق الحرية. ويعاني من يحيون في «المطهر» من العبودية أيضاً، ولكنهم يأملون في الهروب. لذا من يحيون بالمطهر لديهم رغبتان متضادتان.

يرغبون البقاء في المطهر باعتباره وسيلة للانتقال للجنة. ولا يرغبون في الوقت نفسه في البقاء إلى ما لا نهاية فيه لأن مرادهم الفردوس وليس المطهر. فإن كانت الأفعال في المطهر ليست إلا وسائل لغايات أخرى فأفعال الجنة تعتبر غاية في ذاتها. وطالما أن الأفعال في الفردوس ليست وسيلة لغايات أخرى غير ذاتها فإن ساكني الفردوس من الذين يكرسون حياتهم لهدف واحد.

ويفرق «سقراط» بين نوعين من الحكام من حيث الرغبة في الحكم «أي بين من يوافقون على الحكم بإرادتهم ومن لا يوافقون».

فإذا كان الحكام الذين يوافقون طواعية على الحكم من الذين يعتبرون الحكم غاية في ذاته، بينما الذين لا يوافقون طواعية على الحكم فهم من الذين يعتبرون الحكم وسيلة وليس غاية في ذاته، كما أن سقراط يكون قد أشار في «الجمهورية» لفرق في منتهى الأهمية أي فرق كما لو كان بين «الفردوس» و«المطهر».

يُقدم لنا الجزء الأول من «الجمهورية» حين نصل لهذه النقطة من المناقشة الفلسفية صورة درامية للمقارنة بين الإنسان الحر وغير الحر.

يتدخل «جلوكون» أحد المستمعين الحاضرين في المحاورة ويتوجه بالسؤال لسقراط. يقول «جلوكون»: إنه يفهم كيف يكون المال والوضع الاجتماعي من المنافع ولكنه لا يفهم النمط الثالث من هذه المنافع المفيدة للحاكم أي «العقوبة». يؤكد سقراط قبل الرد على هذا السؤال وتفسير معنى «العقوبة» عن شيء يعرفه كلاهما من قبل.

«ألا تعرف أن السلوك محجة في كسب المكانة أو المال يجلب العار؟» يجيب «جلوكون»: «أعرف ذلك في جميع الأحوال».

لم يكن «جلوكون» مجرد واحد من الحاضرين وإنما كان الشخص الذي دعا «ثراسيماخوس» ومنحه أجر تعليمهم معنى العدالة. لقد طلب «ثراسيماخوس» قبل الاجتماع بهم لتعليمهم معنى العدالة أن يدفعوا له أجراً مقابل ذلك. إذ قال «عليكم دفع بعض المال مقابل هذا التعليم». وقد قام «جلوكون» بدفع أجره مقابل تعليمهم نيابة عن «سقراط».

وقال: «تحدث من أجل «الحصول على المال يا ثراسمياخوس». ويحكي سقراط في روايته أن «ثراسيماخوس» قد رغب في الحديث «ليرفع من شأنه بيننا».

لذا أعتقد أن «جلوكون» حين قال «أعرف أن من العار أن يفعل الإنسان شيئاً

طمعاً في المال أو بحثا عن التكريم، إنه كان يقارن بينه وبين «ثراسيماخوس». لم يشارك «ثراسيماخوس» الحاضرين أو سقراط في نفس الهدف الذي يسعون إليه وإنما كان هدفه من هذه المحاورة كسب المال، والنقاش مقابل أجر. بينما اختار الآخرون المشاركة فيها دون مقابل وباعتبارها غاية في ذاتها.

كانت المناقشة اختياراً حراً من جانبهم. وتُعد إدارة سقراط للنقاش وطرح الأسئلة دليلاً على حريته الكاملة بل وأكثرهم حرية. ويقدم لنا «أفلاطون» عند هذه النقطة من الحوار، حيث قام سقراط بالمقارنة بين الذين يرغبون في الحكم ومن لا يرغبون، ويفرق بين حياة المطهر وحياة الفردوس، صورة درامية فتمثل شخصية «ثراسيماخوس» صورة المطهر، وتمثل شخصية سقراط صورة حياة الفردوس.

وتظهر صورة أخرى من هذه الصور الدرامية حين يذكرنا الحوار بأن «ثراسيماخوس» ليس إلا عبداً أجيراً.

ويفكر «ثراسيماخوس» في «مغادرة حلقة المناقشة بعد خطابه المطول عن الظالم ومدحه، «واعتباره إنساناً حراً وقوياً وأكثر سيطرة من العادل» فإنه لم يستطع المغادرة. «ولم يسمح له المستمعون وأجبروه على البقاء وتقديم تفسير لمعنى كلماته». فلما كان «ثراسيماخوس» يعمل لقاء أجر فإنه ليس حراً وموقفه أضعف من الذي يمنحه هذا الأجر.

يسأل «سقراط» «جلوكون» عن مدى قناعته بدعوى «ثراسيماخوس» بأن حياة الظالمين أكثر ثراء من حياة العادلين. وحين أجاب بعدم قناعته عاد «سقراط» يسأله من جديد عن كيفية إدارة حلقة النقاش.

تناقش معه وليس مع «ثراسيماخوس» حول أفضل طريقة لإدارة الحوار. عرض على «جلوكون» طريقتين لإدارته حول آراء «ثراسيماخوس» المتعارضة

الأولى وجود قاض يتم الاحتكام له أو احتكام أفراد الجماعة فيما بينهم حول كل نقطة يتم الانتهاء إليها. وبذلك تعد المناقشة كافية بذاتها، ويمكن أن يكون أفراد الجماعة قضاة ومدعين في الوقت نفسه والثانية الاختيار الحر. فاختار «جلوكون» الطريقة الثانية لإدارة الحوار ليس إلا صورة لكيفية الاختيار الحر في الحياة.

لم يكن سقراط في حاجة لموافقة «ثراسيماخوس» حول الطريقة المثلى لإدارة الحوار. وطلب منه بمجرد الحصول على موافقة دافع أجره «جلوكون» أن «يعود مرة أخرى لإجابة الأسئلة». لذا تعود صورة «ثراسيماخوس» وعمله لقاء أجر نموذجاً للعبودية والضعف وعدم الحرية مقارنة بموقف أسياده الأحرار والأقوياء. تذمر «ثراسيماخوس» حقيقة من موقفه الذليل. واشتكى من عدم السماح له بالتحدث بحرية وفق المنهج الذي يفضل الحديث به. لم «يسمح له مستخدموه بالحديث» كما يهوى تختلف طريقة معاملة «سقراط» للموظف «ثراسيماخوس» عن طريقته في معاملة «براتاجوراس». كان سقراط كما يتضح في كل هذه الفقرات السابقة يعامل «بروتاجوراس» بالاحترام اللائق الذي يتعامل به أي إنسان مع فرد لا يتم إرغامه على قبول أفكار معينة وإنما بالحوار والإقناع والدخول في المناقشة.

لم تكن المناقشة بالنسبة «لثراسيماخوس» إلا وسيلة لغايات أخرى. يشبه موقفه من الذين يحيون في «المطهر» واختار العبودية من أجل غاية أخرى. بينما كانت مناقشته «سقراط» و«جلوكون» غاية في ذاتها يتم اختيارها والاستمتاع بها لذاتها. لم يحيا في «المطهر» وإنما في «الفردوس».

اعتراض نيتشه علي سقراط

يؤكد سقراط في محاورة «الدفاع» أن مناقشاته وحواراته سماوية متصوراً إمكانية الاستمرار فيها بعد هذه الحياة يقول:

«يزداد شعوري بالسعادة حين أقضي الوقت في مناقشة الناس وامتحانهم هناك كما أفعل هنا، كي اكتشف مَنْ هو الحكيم بحق ومَنْ يعتقد منهم أنه حكيم ولكنه ليس كذلك ويكون الحوار معهم ومناقشتهم وامتحانهم أكبر مصادر لسعادتي.

يبدو أن سقراط في محاوراته يحيا حياة سماوية أمامنا. وتطرح محاورة «الدفاع» أمامنا وجهة نظر أخرى. إذا ما قبلنا ما يقوله «سقراط» عن معرفة أي كائن بشري كيف يحيا، وأن أي حياة أخرى غير حياة الفلسفة- كما لو كانت تقدم لنا الدليل الذي نهتدي به وتعد لا قيمة لها ونكون مذنبين في حق أنفسنا. وقد يبدو أن سقراط يحكم علينا بالبقاء في «المطهر».

ولن نستطيع أن نبدأ حياة إنسانية حقيقية إلا إذا فهمنا الدليل. وان الأمر أسوأ من ذلك كثيراً. ولن تتحقق لنا هذه المعرفة على الإطلاق. قد يكون لدينا أمل إذا كنا نحيا في «المطهر» في الحصول على حياة «الفردوس» في النهاية فإن سقراط إذا ما صح قوله حول وصف الإنسان، لا يحرمنا فقط من حياة المطهر الذي توصلنا «للفردوس»، وإنما يلقي بنا في الجحيم الذي لا أمل في الخروج منه. هذا ما قاله نيشه ويمكن تسميته باعتراض «نيتشه» على «سقراط».

يقول نيتشه في كتابه «غسق الآلهة» تحت عنوان «المشكلة السقراطية» أن

سقراط يجعل العقلانية، بتعبير أكثر دقة التزام على الكائنات البشرية[1]. وقال: «لا تتعلق المسألة بالاختيار الحر لأي من آراء سقراط الصحيحة أو الباطلة وإنما بأنها إلزامية أي العقلانية أمر لا مفر منه».

ويعترض نيتشه بأن سقراط يعلمنا استبعاد أنفسنا حتى نقومها. ويرى نيتشه أن هدفه يتعلق بالأخلاق التقويمية بهذه الحياة الأرضية وليس بحياة الجنة[2]. ويعتقد أن الحياة الإنسانية يجب أن تكون حرة وليست مملوءة بالعبودية.

ويرفض نيتشه الحياة السقراطية المذلة والمهنية- إذ يعلمنا سقراط كراهية الحياة والبحث عن الموت للخلاص منها- ويؤكد أن كل أخلاق أخرى تدعو إلى تقويم الذات أو ما يسمى بالأخلاق التقويمية هي جزء من المشكلة التي تواجهها الحياة الإنسانية وليست جزءاً من الحل.

نحتاج للرد اعتراض نيتشه لإلقاء مزيد من التفسير على فلسفة سقراط وفكره كيف يصف «سقراط» الحياة الأبدية في النقاش والمحاورة «بأنها سعادة لا توصف».

إذا نظرنا لفلسفة «سقراط» على أنها ليست إلا نوعاً من الحسابات للمصلحة الشخصية لأفضل طريقة نحياها لن نستطيع إدراك جانبها الروحي أو السماوي. تبدو حياة سقراط وعدا بالتطهر من الجهل فإن ذلك لا يمكن الوصول إليه وليست في الحقيقة إلا وعدا بالبقاء في الجحيم. يصبح الأمر كما لو كان مَنْ ينفرون من الثقافة الرفيعة، ويلحقون بالجامعة رغبة في الدراسة من أجل التخرج والعمل بالحياة فإنهم يكتشفون أنهم لن يتخرجوا في الجامعة وعليهم أن يستمروا في الدراسة إلا ما لانهاية.

(1) غسق الآلهة: Twilight of the sdols.

(2) المقصود بالأخلاق التقويمية الأخلاق التي نسعى لتقويم الذات من أجل الحياة الأخرى والجنة.

قد يكون من الأفضل للرد على اعتراض نيتشه الإشارة إلى السعادة المباشرة التي يستمدها سقراط من نشاطه بدلاً من الحسابات الشخصية عن المصلحة. يفرض الجهل عليه حقيقة أن يبحث عن التفلسف على اعتبار أن حياة التفلسف هي الحياة الجديرة بأن نحياها.

وشاء حظه أن يشعر بالمتعة من الحوار والمناقشة. فأصبح حبه للنشاط غاية في ذاته ومتعة سماوية وليس جحيماً لا مهرب منه.

ولئن كانت محبة سقراط للنشاط الفلسفي، وعدم بحثه عن المصلحة الشخصية تشكل أفضل رد يمكن تقديمه على اعتراض نيتشه لكنه رد ناقص.

وربما يستمر نيتشه متمسكاً باعتراضه على أساس أن محبة هذا النمط من الحياة تُعد نوعاً من المرض النفسي أو الماشوسية أو الإذلال النفسي لسقراط. فلا يمكن أن يتصف هذا الاستمتاع الماشوسي مهما كانت درجته بأنه شيء صحيح أو روحاني أو سماوي. ويظل سقراط بالنسبة لمن يهتمون بحياة إنسانية واعدة مصاباً بمرض نفسي معد. ويشكل جزءاً من المشكلة وليس جزءاً من الحل.

يرد سقراط بأن أفضل نشاط يمكن أن يقوم به الإنسان أن يحيا حياة التفلسف التي يبحث فيها عن طبيعة الكمال الإنساني. ولا يعد نشاطنا الفلسفي أمراً مرضياً أو سلوكاً خاطئاً نستمتع به.

وإنما شيء مفيد وليس ضاراً بالمعنى العميق، لأنه النشاط الذي يُعطي المعنى والقيمة لحياتنا.

يلاحظ «أرسطو» في «الأخلاق النيقوماخية»: «أن خبرة السعادة من اللعب الحر لا زمن لها ولا سرعة لها حين تحدث سريعة كانت أم بطيئة. وبينما يمكن أن يشعر باللذة بسرعة كما تغضب بسرعة فإنه من غير الممكن أن تحقق السعادة بسرعة أو أن تسعد بسرعة». كذلك سقراط كما يظهر في الجمهورية ربما

يتناقش بسرعة أو ببطء فإن استمتاعه من المناقشة لا يمكن وصفه بأنه يتم بسرعة أو ببطء وليس له زمن على الإطلاق. ويُعد غياب البعد الزمني نتيجة لأن الفعل والهدف شيء واحد.

ولا يمكن أن تحدث الحركة إلا بين نقطتين، أي ليس هناك فاصل زمني بين الفعل والنتيجة. وتعكس هذه الصفة السرمدية للمحاورة سرمدية حياة سقراط الحرة. لا تنفصل حوادثها عن بعضها، ولا تتصف بأنها سريعة أو بطيئة. ولا تنفصل أفعالها عن أهدافها. فالفعل والهدف شيء واحد.

سقراط والكمال الديني

هل كان سقراط متديناً وهل كان ينشد الكمال الديني حقاً؟

يمثل «الكمال الديني» مسألة في منتهى الأهمية للمتدينين من القراء. بينما لا يهتم العلمانيون منهم بهذه المسألة على الإطلاق. يبحث هؤلاء العلمانيون من القراء عن كيف نحيا حياة عادلة أي حياة الاستقامة والكمال الإنساني.

بينما تهم حياة الكمال الديني أي التقوى بكيفية تحقيق هذا الكمال في حضرة الإله أو وجوده. ولا يهتم هؤلاء القراء العلمانيون عادة بمعنى هذا الوجود. وليس لديهم أي التزام تجاه ما هو مفارق للطبيعة أو إلهي.

يظهر سقراط البالغ من العمر السبعين عاما في محاورة «أوطيفرون» إنسانا متديناً. يقول مثلاً: «ما تهبه الآلهة لنا واضح. ولا نملك شيئاً طيباً إلا وقد قدمته لنا» كان يشعر طوال حياته بوجود إله يرشده بطريقة غامضة ويتبعه سقراط وكأنها أمر مفروض عليه وتبين لنا محاورة «أوطيفرون» أن خبرة سقراط الدينية كانت معروفة لدى كل الأثينيين.

وتجعل المحاورة خبرة سقراط الدينية سببا لاتهام «ميلتوس» له بالهرطقة الدينية. ومع ذلك تنتهي سلسلة الأسئلة التي طرحها سقراط حول «التقوى» في المحاورة إلى نتيجة مؤداها: أن التقوى لا تتطلب أي معرفة دينية أو التزاماً بآلهة مفارقة للطبيعة.

وتبين أن القدرة الإنسانية على «التقوى» ليست شيئاً مختلفاً عن هدف الفلسفة العلمانية، أي عن معرفة السعادة الإنسانية وتحقيقها. وليس الكمال العلماني بديلاً للكمال الديني وإنما نفس الشيء.

لم ينته الحوار إلى إجابة عن الأسئلة التي طرحها سقراط حول معنى «التقوى».

وتفشل كل الإجابات التي يقدمها «أوطيفرون». في هذا الشأن ومع ذلك تتحدى المحاورة القارئ الوجودي في وضع معنى «للتقوى» وما إذا كانت هناك إجابة ناجحة على أسئلة سقراط، أم لا.

«وأعتقد أن التقوى ليست إلا العدالة». وأجزم بأنه ليست هناك أي إجابة غير تلك يمكن أن يقدمها الشخص التقي. يختلف القارئ الوجودي بالطبع عن القارئ الأكاديمي الذي يريد أن يعرف ماذا يعتقد سقراط عن التقوى؟

1 - العلاقات الخمس بين التقوي والعدالة

يحاول «أوطيفرون» أن يعرف التقوى بأنها تعني مرضاة الآلهة. وحين يكتشف فشله في هذا التعريف يشعر بالضياع والارتباك. يأخذ «سقراط» المبادأة ويطلب منه تعريف «التقوى» من حيث علاقتها بالعدالة.

توجد علاقات خمس محتملة بين «التقوى» و«العدالة»، أي بين الكمال الديني والكمال العلماني. تتمثل أولى هذه العلاقات في علاقة الانفصال أي أنه لا توجد صلة إطلاقا بين التقوى والعدالة. ويعني ذلك مثلا أن العدل بالمعنى العلماني كدفع الضرائب للدولة أو الاعتذار للجار حين أخطئ في حقه لا صلة له بالعدل المعنى الديني، أي بالواجبات الدينية كدفع المال الخاص بالزكاة ومساعدة الفقراء والتوبة حين ارتكب الخطيئة. وتبين معادلة «أويلر» هذه العلاقة وتعبر عنها برسم دائرتين منفصلتين[1].

تقول العلاقة الثانية بأن هناك بعض الأفعال العادلة تشكل نوعاً من التقوى الواضحة وبعض الأفعال التقية من جهة أخرى تعد عادلة.

وتعني تلك العلاقة أن هناك بعض الواجبات العلمانية الخالصة كدفع الضرائب، وبعض الواجبات الدينية الخالصة كدفع ضريبة العشور[2]. كما تعترف

(1) أويلر ليونهارت، (-1707 1783) عالم رياضي سويسري معروف بأعماله في حساب المثلثات الرياضية والتحليلية. اشتهر بوضع قوانين متعددة في الرياضة وديناميكا الموانع. وما يسمى بقانون أويلر. (المترجم).

(2) يفرض قانون التوراة ما يسمى بضريبة العُشُور.

هذه العلاقة أيضا بأن بعض الواجبات يتم الأمر بها من قبل الجهتين، أي السلطة الدينية والعلمانية كالأمر بعدم سرقة المقابر. ويتم التعبير عن هذه العلاقة (بالتداخل).

- بعض الأمور العادلة تقية.
- وبعض الأفعال التقية عادلة.
- وليس كل مقدس عادلاً.
- وليس كل عادل مقدساً (تقي).

تتمثل العلاقة الثالثة في أن كل عدل تقوى. ولكن بعض الأفعال التقية ليست من العدل أي كل عادل تقي وليس كل تقي عادلاً، يُعد العدل أمراً إلهياً. ونجد ذلك واضحاً في الوصايا العشر كما وردت في «الإنجيل».

فطالما أن العشرة أوامر إلهية فإن طاعتنا لها تعد نوعاً من التقوى. (تجبرنا بعض هذه الوصايا على عبادة الله مباشرة وكيف نقدسه. وأن تعبد «يهوه» دون سواه أو أي شيء آخر ودون تفكير. وتستخدم اسمه بصورة صحيحة وتراقب السبت (ويُعد الكاثوليك والرومان واللوثريون أن هذه الأوامر هي الوصايا الثلاث الأولى. بينما يعدها اليهود والأرثوذكس ومعظم المتدينين البروتستانت الوصايا الأربع الأولى).

وتأمرنا الوصايا الست (أو السبع) المتبقية بعبادة الله بالحياة الإنسانية العادلة أي باحترام الوالدين، وعدم القتل، أو ارتكاب الزنا أو السرقة أو الشهادة الزور أو الطمع. فإذا نظرنا إلى هذه الوصايا العشر نجدها تجعل العدالة جزءاً من التقوى.

تقول العلاقة الرابعة:

إن العدالة هي التقوى، وكل ما هو تقي عادل. وتبدو الفكرة من وراء هذا التوحيد (التطابق) أن الله قد أمرنا بفعل كل ما يحقق خير الآخرين. ولم يعط لنا أي أوامر أخرى. ويعد كل واجب علماني وفق هذه النظرة أمراً من أوامر الله.

وليس هناك واجبات دينية محددة. ويتم التعبير عن هذه العلاقة برسم دائرة واحدة.

توضح العلاقة الخامسة أن كل ما هو تقي عادل، وبعض جوانب العدل ليست من التقوى. يعني ذلك أن العدل ليس قاصراً على المعاملة مع البشر أو فيما بين أفراد البشرية، وإنما يعني كل شيء تفعله باعتبارك إنسانا، وتُعد التقوى باعتبارها بكيفية عبادة الله وتقديسه مجرد جزء من العدالة، بينما تُعد معاملة البشر بعضهم لبعض أو سلوك الفرد تجاه الآخرين الجزء الآخر لهذه العدالة.

يسأل سقراط «أوطيفرون» عن العلاقة بين التقوى والعدل على خطوتين. يسأله في الخطوة الأولى «أترى من الضروري لك أن كل ما هو تقي عادل؟» يجيب «أوطيفرون» «بنعم». من الواضح أن «أوطيفرون» يقصد نفس ما أقصده بمعنى العدالة أي أنها يجب أن تكون حاضرة في كل أفعالنا الإنسانية.

يرفض (أوطيفرون) بموافقته السابقة العلاقات الثلاث الأولى. ولابد أن يؤيد العلاقتين الرابعة والخامسة. فإما أن تكون التقوى والعدالة شيئاً واحداً، أو أن بعض الأفعال عادلة وليست تقية. (على الرغم من أن المحاورة لم تهتم بوضوح بالعلاقات الثلاث الأولى لم أجد أن هناك سبباً لاستبعادها لا تبين هذه الخطوة الأولى من السؤال ما إذا كان «أوطيفرون» يؤيد العلاقتين الرابعة والخامسة. ويسأله سقراط في الخطوة الثانية من السؤال أن يختار بين العلاقتين الرابعة والخامسة: «إذن كل شيء عادل يكون تقيا»؟ أم أن كل تقوى عدل بينما ليس كل عدل تقوى أي بعضه تقوى وبعضه الآخر ليس تقياً؟ أم أن كل تقوى عدل بينما ليس كل عدل تقوى أي «بعضه تقوى وبعضه الآخر ليس تقياً). ويقدم سقراط الأمثلة التي تؤيد العلاقة الخامسة. ويوافقه «أوطيفرون» بقوله: «هذا صحيح».

خدمة الآلهة

يفسر «أوطيفرون» «التقوى» بعد اختياره للعلاقة الخامسة بأن جزءاً من العدالة يكون تقياً ومقدساً يا سقراط، وهو الجزء الذي يتعلق بخدمة الإله، ويتعلق الجزء الثاني منها أو الباقي بخدمة البشر.

يجد سقراط تفسير «أوطيفرون» واعداً ويعتبره «قولاً جيداً». يسأله سقراط عن المزيد والدقة والتحديد موضحاً أن بعض الخدمات كخدمة الأطباء للمرضى أو المعالج لعملائه هو الموضوع الذي تخصه الخدمة. كانت الأمثلة التي عرضها سقراط تتعلق بالخدمة التي يقدمها مدربو الحيوانات كالخيول والكلاب والثيران.

يتفق «سقراط» علي أن التقي الشاك يهدف من تقواه تحسين هيئة الآلهة أو مساعدتهم بنفس الطريقة التي يساعد بها المعالج المريض أو المدرب الحيوان. ويتجه معظم الناس للموافقة على ذلك.

وأعتقد وفق معرفتي أن الملحدين أيضا يميلون للاتفاق على هذا الافتراض (إذا ما كان هناك إله). ومع ذلك هناك اعتراض يثيره الشكاك. نسمع أحيانا الناس تقول إن جزءاً من العبادة الإنسانية لله يهدف بصورة معينة للمحافظة على وجوده وشرعيته أو المصادقة عليه تماما كما يحافظ الكلام على وجود اللغة واطفاء الشرعية عليها.

ويبدو أن المثقفين لا يستطيعون بسبب التصورات المختلفة لمفهوم الله اكتشاف الدليل على استبعاد هذا الفرض الميتافيزيقي القائل بأن الآلهة تحتاج للبشر لتأييد وجودها. ويبدو أن هذا الاختلاف ذاته يتطلب الشك في طبيعة

الإله.

إن الإجابة الناجحة على هذا التقي الشاك تتطلب الاختيار بين أمرين. ونستطيع في ضوء عدم وجود دليل واضح أن نتصف بخواء الروح وقلة التقوى- في حالة كمال الإله أو نقصه- إذا افترضنا أن الآلة ناقصة، بينما أن نتصف بأننا كرماء وأكثر تقوى إذا افترضنا كمالها.

ونستطيع القول بنفس الطريقة إذا كنت وفق الدليل المتوفر أمامي مطالباً بأن أحكم على أفعالك بالخبث أو بالطيبة فإن الإنصاف يتطلب مني أن أقوم بتفسيرها بأفضل الطرق. واعترف بأن الشاك الخالص أي الشاك المتحرر من أي اهتمامات بشرية لن يتأثر بالتقوى أو التقديس.

فإننا نحن معشر البشر لدينا اهتمام زائد بضرورة نجاحنا في حياتنا الإنسانية. ويتطلب منا هذا الاهتمام الوجودي الواقعي أن نكون أتقياء وأكثر ورعاً في حضور الآلهة تماما كما نكون أكثر رحمة وعدلاً قدر الإمكان مع رفاقنا من البشر. ولما كنت على ثقة بأن «سقراط» وأوطيفرون لديهما اهتمامات إنسانية عملية كانت واضحة في هذه المحاورة فهناك اتفاق على إجابتهما.

وأتفق البعض معهما تماماً إذا تقيدت بنفس الاهتمامات الإنسانية العملية التي قيدتها على أنه إذا كانت هناك آلهة فإن التقوى لا يمكن أن تهدف لخدمتها لتحسين أحوالها كما لو كانت في حاجة ماسة لهذه الخدمة. هذا ما قاله بعض الفلاسفة.

يحاول «أوطيفرون» أن يجعل إجابته أكثر دقة وتحديداً. فليست الخدمة التي نقدمها للآلهة تحقق النصح للآلهة أو تحسن من أدائها. يقول سقراط: «إنها قد تكون خدمة معاونة للآلهة». ويجيبه «أوطيفرون» «أعتقد ذلك».

ويبدو أن ما يفكر فيه «أوطيفرون» أشبه بالوصايا الإنجيلية بخدمة الله. وبأن

تكون خادماً مطيعا لله أو تكون عبداً لله.

يوجد اعتراض على أن «أوطيفرون» في تفسيره التقوى بالعبودية دليل على أنه كثير النسيان. وحين يسلك إله ما سلوكا ناجحاً فإنه يكون نافعاً.

لذا حين تسهم طاعتي في هذا الفعل الإلهي الناجح أكون مفيداً (معاوناً) لله. وبالتالي تكون خدمتي للآلهة تحقق النفع لها وتحسن من هيئتها. فإن «أوطيفرون» قد وافق للتو على أن خدمتنا لا يمكن أن تنفع الآلهة أو تفيدها.

لذا لابد أن يكون قد نسي اتفاقه. يصور هذا التفسير أوطبقرون على الرغم من اتساقه مع النص غباء «أوطيفرون» أو يعتبره غبياً. فإنه من الممكن أن يوجد تفسير بديل يتسق مع النص وينصف «أوطيفرون» وينفي عنه هذه الصفة.

يفترض اعتراض «أوطيفرون» أنه أينما يسلك إله ما سلوكا ناجحاً فإن ذلك يعني أنه كان في حالة سابقة يمكن أن تقبل التحسن. ولا يقترح مثل هذا الفرض أن «أوطيفرون» غبي فقط، وإنما يبين أن اي طاعة لأي إله تعني أن هذا الإله الآمر ناقص. يبين التفسير بالفعل أن من المستحيل أن يسلك الإله الكامل.

وقد يكون من الأمور المثيرة للدهشة أن تستطيع بسهولة أن تبين عدم اتساق فكرة الكائن الكامل النشط أو تناقضها.

قد يسلك «السيد» أو الآباء دون السعي لتحقيق منفعة أو تحسين هيئتهم. ربما يسلك الناس سلوكاً حراً يستعدون فيه لإشباع حاجتهم، أي لا يسلكون بدافع تلبية الحاجة وإنما لمجرد الشعور بالحرية. فقد يشارك فرد في السباق من أجل الاستمتاع وليس بدافع الحصول على المال أو الجائزة.

وقد يعالج الطبيب المريض مجانا وليس بدافع الحصول على الأجر. ومع ذلك يبدو أن قدرنا باعتبارنا بشراً أن نسلك معظم فترات حياتنا أو كلها وفقاً للضرورة وليس بصورة حرة.. لذا لا يحق لنا باعتبارنا بشراً أن نصور الآلهة على حالنا أو

أنهم يشبعون حاجة لديهم حين يأمروننا كما يأمرنا الآباء والسادة.

توجد أيضا بعض الحالات والتي يطيع فيها العبد أو الطفل أحد أوامر الآمر دون تحقيق فائدة أو نفع لهذا الآمر.

وقد يطلب الآمر في حالات أخرى من العبد والأطفال الطاعة العمياء لأنه يسعى لتحقيق مصلحة معينة لنفسه من هذه الخدمة. فإن طاعة الأمر لا تعني أن يكون الآمر لديه حاجة مسبقة يريد إشباعها.

يقوم الناس أحيانا بتدريب الخيول والكلاب للمتعة فقط ودون مقابل. وقد يفعل الآباء والسادة نفس الشيء. تخيل والداً يشارك في السباق للمتعة ولديه القدرة على قيادة العربة والتحكم فيها بنفسه ويمسك اللجام ثم يطلب من ابنه قيادها والإمساك باللجام.

وافترض أنه يهدف من سؤال ابنه أن يقدم شيئاً مفيداً أي أن يمنحه المتعة أو يقوم بتدريبه. كذلك ربما يسأل الطبيب المعالج عبداً بأن يشخص له حالة مريضه أو يصفها. ولا يفعل ذلك بسبب الحاجة للمساعدة وإنما ليقوم بتقديم شيء نافع للعبد كأن يدربه مثلا.

ليست هناك حاجة لافتراض أن «أوطيفرون» يتناقض مع نفسه حين يتصور أن علاقتنا بالآلهة أشبه بخدمة العبيد. فقد وافق «أوطيفرون» «سقراط» على أن التقي لا يهدف من تقواه نفع الآلهة أو تحسين هيئتها كما يعالج الطبيب المريض أو يدرب المدرب الحيوان.

كذلك لم يعترض «أوطيفرون» أو يجد غرابة في قول سقراط إن ما تقدمه لنا الآلهة واضح لكل فرد وليس الخير الذي نشعر به إلا هبة وفضلاً منها. لذا حين يحدد «أوطيفرون» الخدمة التي يقدمها التقي للآلهة بأنها خدمة العبيد لسادتهم يجب أن يتم تفسيرها بأن «أوطيفرون» يقلب وضع طرفيها والعلاقة بينهما،

وينتهي قوله بأن تقوانا تجعلنا مثل الحيوانات في علاقتنا بالمدربين أو الآمرين الذين يسلكون بحرية وليس من منطق الحاجة. وهكذا يبطل مثل هذا التحليل الاعتراض الخاص «بأوطيفرون» باعتباره غير ضروري وليس منصفاً.

يطرح سقراط سؤالاً جديداً على «أوطيفرون». تتطلب طاعة الأمر مهارة مثلا في الإمساك باللجام أو بتشخيص المريض. وتهدف مهارة إمساك اللجام بالمحافظة على الاتجاه ومهارة التشخيص لمعرفة المرض.

بل وتتطلب الطاعة دون وجود مثل هذه المهارة إلى معرفة أولية على الأقل لمثل هذه الأشياء كمعرفة الأوامر والشفاء والإمساك باللجام. وبالتالي يدور سؤال سقراط حول هذه المسألة «ما الهدف الذي تسعى هذه الخدمة لتحقيقه؟» ما الهدف الذي قد تحققه الآلهة حين تستخدمنا لخدمتها؟.

يجيب «أوطيفرون» إجابتين لا قيمة لهما.

الأولى: تحقق الآلهة العديد من الأشياء الرائعة. وقد يوافق كل تقي على ذلك. فإن سقراط لم يوافق على ذلك. وإجابته بأن هذا ما يحققه أيضاً «القادة والفلاحون». وكل صاحب حرفة. وكان سقراط محقاً في عدم قناعه بإجابة «أوطيفرون» وفي لذا كرر سؤاله مرة أخرى، إذا كان القادة يحققون أشياء رائعة بدعوى تحقيق النصر في المعارك، ويحقق الفلاحون أشياء طيبة بدعوى استخراج الطعام من الأرض، فما دعوى الآلهة التي نسعى لتحقيقها باعتبارنا متعاونين معها على تحقيقها؟ وتمثلت إجابة «أوطيفرون» الثانية بأن الأشياء الرائعة التي تحققها التقوى في القول والفعل تكون تحت دعوة لإرضاء الآلهة.

ويعد سقراط محقاً أيضا في عدم قناعته بهذه الإجابة الثانية. وتتصف هذه الإجابة مثل الإجابة السابقة بأنها لغو فارغ ولا قيمة لها.

فإن كانت الآلهة جنرالات أو قادة فإن كسب مرضاتهم تكون بالمشاركة معهم

في المعركة بدعوى تحقيق النصر.

وإن كانت مثل الفلاحين فإن إرضاءهم يكون بالعمل معهم لإنتاج الغذاء. ويمكن قول كل ذلك بالنسبة لأي حرفة أخرى. وبالتالي لا تقدم تلك الإجابة شيئاً عن معنى التقوى. وتتصف الإجابتان اللتان قال بهما «أوطيفرون» بأنهما لا قيمة لهما وفاشلتان.

توجد بعض الإجابات الأخرى لهذه الأسئلة التي يطرحها سقراط كالقول بأن التقوى تهدف لمحبة الله وتمجيده وطاعته، فإنها تعد أيضاً لا معنى لها مثل الإجابتين السابقتين وتافهة. فإذا كان الله جزالاً ومعطاء.

فإن محبته وتمجيده وتقديسه وطاعته تتم بمعرفة كيفية معاونته على تحقيق هدفه من خلقه. الفلاح تتم معاونته في إنماء محصوله والحصول على الطعام. فإذا كنت لا أعرف أوامر الله فإن مطالبتي بمحبته وتمجيده وتقديسه لن تؤدي إلى شيء.

الفصل الثاني عشر

خلاصة فلسفة سقراط

من خلال هذا الإصدار عرضت لفلسفة سقراط وأفكاره كما عرضت تفسير «أفلاطون» لحياة «سقراط» منذ تعلمه على يد «بروتاجوراس» «أحكم الناس» وكان في سن السادسة والثلاثين حتى عقوبة الحكم عليه بالموت في سن السبعين، ودافعت خلال هذا العرض عن النتائج الجريئة التي قالها سقراط وأوجزها فيما يلي:

1 - لا يعرف إنسان كيف يحيا.

2 - تعد الشجاعة، والأريحية، والعدالة، والتقوى، والحظ السعيد، بل حتى القدرة على تفسير الشعر الإلهي، كلها شيئاً واحداً: أي معرفة بالسعادة الإنسانية والحياة الطيبة.

3 - تتطلب هذه المعرفة في حد ذاتها المحبة المحتاجة من جانب الإنسان، والتحكم في ذاته دون معاناة أي نوع من الصراع النفسي أو الباطن، وتحقق السعادة والحرية.

4 - لا تحق لنا الحياة إذا أدركنا جهلنا ولم نبذل قصارى جهدنا للحصول على هذه المعرفة.

وقد جعلت هذه النتائج فلسفة سقراط فريدة في كل التاريخ الفلسفي. فإن هناك بعض الأفكار والموضوعات العامة في فلسفته تتعلق بالعدالة والإخلاص الإنساني ليست أقل جراة من هذه النتائج بل أشد معارضة للفكر التقليدي السائد في تلك الفترة. تشارك سقراط في هذه الموضوعات وفي الديانات العظيمة

كالصينية والهندية والإبراهيمية. واقترح سقراط في هذه الموضوعات دينا عالمياً يختلف عن الأديان الأخرى في طقوسه، فلا تتعلق هذه الطقوس بالنار والماء والخبز والنبيذ وإنما بالحوار الفلسفي.

وهكذا كانت فلسفة «سقراط» بوصفها ديناً عالمياً مستخدماً «محاورة «كريتو» لتعريف خمسة موضوعات في فلسفته. تتشارك فيها الأديان العالمية وتتعارض في نفس الوقت مع الفكر التقليدي.

أ- الموضوعات الخمسة في فلسفة سقراط:

1 - الموضوع الأول: ليس كمال الحياة الإنسانية وسيلة وإنما غاية.

مكث «سقراط» في السجن نحو الشهر بين فترة محاكمته وتنفيذ حكم الإعدام. كان صديقه «كريتو» يزوره في السجن، وهو نفس الشخص الذي ائتمنه سقراط على رغباته الأخيرة. وكان هذا الصديق في إمكانه إخراج سقراط من السجن وتدبير أمر هروبه إلى المنفى.

وحاول أن يقنع سقراط بمراعاة الخسارة التي قد تصيب أصدقاءه بسبب رحيله ومعداتهم لصحبته، وما قد يصيب سمعتهم من الأذى بسبب تصور الناس أنهم جبناء لعدم القدرة على إنقاذه والتزامهم بمراعاة أطفاله الصغار.

كان «كريتو» ينظر لمناقشته مع «سقراط» باعتبارها الوسيلة الوحيدة التي يحقق بها هدفه الذي يرغبه، أي إنقاذ حياة سقراط، كان يُلح في إقناعه بسبب الظروف الضرورية التي تحكمه. بينما كان سقراط في هذه المحاورة، كما كان في «الجمهورية» نموذجاً للحرية ورمزاً لها.

يدفعه بعد سيطرته على مسار المناقشة واتجاهها، ودون أن يفرض عليه شيئاً إلى «دراسة المسألة من عدة زوايا وبأفضل الطرق». فكانت أسئلة سقراط وإجاباته ليست إلا نشاطاً يعبر عن أعز رغباته القلبية. لم يفعل سقراط شيئاً غير

ما يجب عليه فعله. فشكل هذا الاختيار الحر لنشاطه ومحبته له الموضوع الأول، أي يجب أن يفعل الإنسان الفعل بحرية كاملة من أجل تحقيق الفعل ذاته. وهكذا يجب أن يحيا الإنسان أي يفعل الأفعال من أجل الأفعال ذاتها.

يعتقد الناس أن الحياة الإنسانية تحتاج لغاية أخرى غيرها يمكن أن يتحقق من ورائها كخدمة الإنسانية مثلاً أو الله أو بشيء من التواضع تأمين مستقبلها. وربما يُعد ذلك صحيحاً وتعطي أفعالنا لحياتنا معنى حين تسعى لتحقيق غايات أخرى. اعتقد أن سقراط كما فهمت من آرائه في السعادة والحرية يفترض العكس تماماً يجب أن تكون الحياة الإنسانية وكل فعل من أفعالها غاية في ذاتها، وليست مجرد وسيلة لغايات أخرى غيرها.

2 - **الموضوع الثاني: النشاط العادل الغاية المثلى للحياة الإنسانية.**

يخلص سقراط في محاورة «كريتو» إلى أن الحياة الطيبة وحياة العدل شيء واحد. يترتب على ذلك «أن معرفة ما إذا كانت محاولة الهرب فعلاً عدلاً أم لا تُعد الشيء الوحيد الذي يجب أن نهتم به.

فإذا ما ثبت ظلمها فليست هناك حاجة للاهتمام بالأمور الأخرى التي يعاني منها الآخرون أكثر من السلوك الظالم أو الظلم، حتى لو كان البقاء في هذا المكان يعني الموت». ولا توجد عبارة تُعبر عن الموضوع الثاني أوضح من هذه العبارة في المحاورة كلها.

يرى معظم الناس أن العدالة ليست إلا وسيلة ناجحة تمكننا من تحقيق أهداف حياتنا اليومية كالشعور بالراحة وإشباع رغباتها الجسدية والتي تمثل القيمة الحقيقية للحياة، أي ليست إلا وسيلة نافعة أو من أفضل الوسائل لتحقيق هذه الأحداث. تأتي المسألة على خلاف ذلك عند سقراط.

ويرى أن محاولة السعي للراحة في حياتنا اليومية لا قيمة لها إلا بوصفها فرصة لتحقيق العدالة والصلاح وتقويم السلوك.

3 - الموضوع الثالث: الأفعال العادلة مقدسة.

يضيف سقراط نغمة دينية أو إلهية إلى مناقشته مع «كريتو» ويشخص قوانين مدنية أثينا ويشركهم في المناقشة للحديث وطرح الأسئلة. يخاطب سقراط القوانين قائلاً: أيتها القوانين الحاكمة بعد الحياة واضعة المواثيق والعهود لمواطني أثينا، منحت الحياة لسقراط وذريته ومدينته بالعلم والتربية الحسنة، وجعلت منه ومن ذريته خدماً لك.

تظهر «القوانين» بوصفها كائنات إلهية تتحاور مع «سقراط» و«كريتو» في المحاورة. يقول سقراط إنه يستمع لأصواتهم كما يستمع المنتشون دينياً للموسيقى ويتراقصون عليها.

ويوضح عملية تشخيص القوانين الموضوع الثالث وأن حوار «سقراط» و«كريتو» كانت وظيفته الربط بين هذه «القوانين» مع (الوجود الإلهي). وحولت هذه الوظيفة المناقشة إلى طقس مقدس. وبينت كلمات سقراط الأخيرة في المحاورة كيف تربطها بالحضور الإلهي: «يرشدنا الله للطريق ويهدينا».

4 - الموضوع الرابع: سعادة الإنسان العادل (آمنة).

أدى تكريس «سقراط» جهده وحياته لتحقيق العدالة إلى أن تصبح حياته محصنة ضد البؤس والشقاء. لا تكون سعادة الناس الذين يسلكون حياة عادلة وصالحة من أجل تحقيق غاية أخرى آمنة أو مؤكدة.

وتعد حياة «كريتو» مثلاً لذلك، تبدأ المحاورة مع طلوع الفجر حين استيقظ سقراط في زنزانته. كان «كريتو» موجوداً بجانبه طوال الليل ولم يستطع النوم بسبب حزنه الشديد على توقع وفاة سقراط. وتعجب «كريتو» من حاله حين يرى سقراط يغط في النوم العميق.

يُعد الاحتفاء «بالعدل» من الأمور المتعارف عليها فإنه دائماً ما يقال بأنه يتعارض مع سعادة الإنسان لدرجة جعلت القول «بأن عصر الشرفاء قد انتهى» من

الأقوال المأثورة.

فإن سقراط يؤكد بوضوح أن العادل يجب أن يشعر بالسعادة. ولا يمكن أن يتأذى الإنسان الطيب أو الخير في حياته أو مماته ويقول «كرشنا» للقائد «أرجونا»: إن الثبات على المبدأ والإخلاص لتحقيق الواجب يُكسبك «كنز العدالة» أو صفة الاتزان، يقول: «يحافظ على مكانك وقم بواجبك، يا رابح الكنز. أثبت على مبدئك، ولا تتغير سواء نجحت أو فشلت، فبقاؤك في مكانك هو الاتزان والعدل».

يقول «كونفشيوس»: تتمثل قوة الإنسان الخير في قوله «تحميني السماء ولا يستطيع أي إمبراطور إصابتي بالأذى أو يضرني.

بينما يُعد سعينا لأهداف خارجية غير أهداف أفعالنا (لا نفعل الأفعال لذاتها) مصدراً لشقائنا وطريقاً للبؤس. «ولا يؤدي البحث عن المال والربح إلا إلى تعاسة الليالي والسهد».

5 - الموضوع الخامس: لا ينزعج العادلون من الموت.

تُظهر محاورة «كريتو» عدم انزعاج سقراط من اقتراب موته. وتبين «محاورة» «فيدون» قناعته بأن الموت عادل. قد يُعد الخوف من الموت من الأمور المتعارف عليها والتقليدية فإن سقراط» كما يظهر في محاورتي «كريتو» و«فيدون» لم يكن منزعجاً من الموت بسبب طبيعة شخصيته الفلسفية. كذلك تنزع الأديان العالمية الخوف أو الانزعاج من الموت[1].

يقول «كونفشيوس» عن طريقة السماء في العدل: «إذا ما تعلمت في الفجر السير في هذا الطريق ووطأته قدماك فإنك تستطيع في الغسق مواجهة الموت». يؤكد كرشا للقائد «أرجونا» بأنه «إذا ما نظر للعدل في حياته باعتباره مراجعاً مقدساً، فإنه يحصل على البركة الإلهية والفضل الإلهي طوال حياته وفي مماته».

(1) المزامير: المزمور الثالث عشر: 4، «أنر عيني لئلا أنام نوم الموت».

نهاية سقراط

تقدم لنا محاورة «فيدون» وصفاً ليوم وفاة سقراط. يصف «سقراط» نفسه أو حاله لأصدقائه الحزانى بأنه مثل بجعة تغني أثناء تأدية خدمتها الدينية. كان يشعر بمتعة روحية والقدرة على التنبؤ. يقول سقراط:

«ربما يعتقدون أن مهارتي على التنبؤ أضعف من مهارة البجع. حين يدركون قرب لحظة الموت يغنون- على الرغم من أنهم يغنون طوال حياتهم- بأعذب الأغاني وأجملها. ويستمتعون بأنهم على وشك لقاء الإله الذي يخدمونه. تتوفر لديهم القدرة على التنبؤ لأنهم ينتمون لـ«أبوللو».

يستطيعون رؤية الأشياء الجميلة في «هاديس» عالم الموت. ويشعرون بسعادة غامرة وفرحة في أثناء غنائهم في هذا اليوم أكثر من أي يوم آخر. اعتقد أنني لا اختلف عنهم، أحيا حياتهم في خدمة الإله وأخلص له. وأحظى مثلهم بنفس المهارة على التنبؤ التي أمدهم بها سيدنا. ولا أشعر بوهن عزيمتي أو بالضعف حين أغادر هذه الحياة.

كان أسطورة غناء البجعة عند اقتراب موتها معروفة بالفعل في أثينا عام 458ق.م. إذ شبه «أسخيلوس» موت «كاساندرا» للمملكة «كليمنسترا» بالبجعة التي تغني آخر أغنية لها رثاءً للموت.

يستخدم أفلاطون الأسطورة كما هو واضح لزيادة قدر التأثير الأدبي في محاورة «فيدون» لم يعرف «سقراط» في محاورة الدفاع ما إذا كانت النفس تحيا بعد موت الجسد أم لا، وإن كان قد أكد أن الموت شيء طيب في كلتا الحالتين. ويقدم «سقراط» لنا بعد شهر واحد من هذه المحاورة أي في يوم وفاته مجموعة

من الحجج المعقدة يثبت بها خلود روح كل كائن حي. بل يتنبأ أيضاً بالإضافة لذلك ودون أي دليل بجغرافية الأرض ويقدم تفسيراً لها وللمكان الذي تهاجر النفوس إليها بعد الموت.

ويأمر في كلماته الأخيرة «كريتو» بتقديم أضحية دينية للإله على شفائه. ويمكن القول: إن أسطورة الأغنية الأخيرة للبجع تقدم لكل مَنْ يصف «سقراط» بالتناقض ويتشكك في قدرته على هذه المعرفة بأنها تقدم إجابة صوفية بأن الإله «أبو للو» قد أمد «سقراط» بهذه القدرات في يوم وفاته.

يؤكد معظم المفسرين القدماء والمحدثين القول بأن البجع يغني أفضل أغنية له عند موته. ويخطئون جميعاً في ذلك. إذ يخلطون بين نوعين من البجع الذي كان موجوداً في اليونان في ذلك الوقت.

فقد كان هناك نوعان من البجع. بجعة خرساء في حياتها وفي موتها وبجعة صياحة تغني أحلى أغنياتها لحظة موتها[1]. توجد لدى البجعة الصياحة قصبة هوائية طويلة ممتدة إلى داخل عظمة القفص الصدري. وتستخدم هذه البجعة في حياتها هذه القصبة الهوائية الملتوية لإخراج نغمتين تشبهان صوت النفير. تكون «النغمة الثانية منهما أعلى في طبقتها الصوتية من النغمة الأولى، وتتكرر عدة مرات متلاحقة».

اختلف الباحثون حول النغمة الموسيقية. قارنها البعض بصوت الأجراس الفضية، والبعض الآخر بصوت «آلة الكلارنيت» حين ينفخ فيها شخص غير متدرب على الموسيقى، ومع ذلك لوحظ أن البجعة الصياحة حين يقترب موتها يخرج من رئتيها المنهارتين صوتاً يشبه صوت العزف على آلة «الفلوت» بصورة بطيئة جداً.

كان «بيتر بالاس» أحد علماء الطيور في روسيا أول من أكد غناء البجعة

(1) البجعة الخرساء (Cygnus Olor)، البجعة الصياحة (Cygnus Cygnus).

الصياحة قرب موتها في بداية القرن التاسع عشر. أثبت وجود هذا اللحن الحزين للبجعة. وقد لوحظ أيضاً في العصر الحديث وجود نفس الصوت في أنواع أخرى من البجع البري ذو القصبة الهوائية الملتوية. وقد صور عالم الطيور الأمريكي د. «إليوت دانيال» للمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي سقوط إحدى البجعات بعد أن أصابها. ودهش حين سمع نغمة موسيقية حزينة، تنم عن الأنين والشكوى لا تشبه صوت النغمات الموسيقية التي يُصدرها البجع أثناء حياته. واستمر هذا الصوت حتى بلغ الطائر الساقط سطح الماء.

ربما لم يكن «أفلاطون» واثقاً من صحة أسطورة أغنية البجعة من الناحية العلمية أو لم يهتم بذلك. كذلك ربما كان متألماً في وضع التفاصيل الدقيقة حتى ينفي عن نفسه عدم مصداقية الوصف أو قصته.

فإنه من الخطأ تماماً أن نتصور أن قدرة أفلاطون الأدبية قد فرضت عليه اختراع القصة بدلاً من الدقة في وصفه وعرضه للتفاصيل.

الشوكران ونهاية سقراط.

وصلت هذه المهارة الأدبية لأفلاطون إلى ذروتها في طريقة وصف «فيدون» لتجرع «سقراط» السم وموته. يتناول سقراط السم كأنه يمارس طقساً دينياً. أصيب المحيطون به بنوبة من البكاء حين شاهدوه يتناول السم.

وبدأوا يبكون الواحد تلو الآخر بصوت عال. يحكي «فيدون» كيف نهرهم سقراط عن فعل ذلك ويقول لهم:

«لقد كان ذلك أحد الأسباب التي دفعتني إلى إبعاد النساء حتى لا يحدثن جلبة وضوضاء. إذ قد سمعت أن المرء يجب أن يموت في صمت وهدوء. هيا تشجعوا وحافظوا على الهدوء».

شعرنا بالخجل حين سمعنا كلماته ومسحنا دموعنا. قال «سقراط» حين حاول

السير: «إن قدميه تصلبتا ورقد على ظهره».

إذ كانت تلك نصيحة الرجل الذي قدم السم له. وضع الرجل يديه على كتفه. وانتظر بعض الوقت. ثم بدأ يتفحص قدميه ورجليه. ضربه على قدميه وسأله ما إذا كان يشعر بذلك. أجابه «سقراط» بالنفي ثم ضربه ثانية على رجليه وسأله: أشعرت بذلك فأجاب سقراط بالنفي أيضاً.

بدأ الرجل يشرح لنا أن السم حين يبدأ في الانتشار في الجسد ينتقل الخدر من أسفل الجسد إلى أعلاه «وبمجرد أن يصل إلى القلب يموت الفرد».

يا لها من شجرة ملعونة (الشوكران) وهي شجرة سامة وهي نوع من الأعشاب السامة أسُتخدم لقتل سقراط وأعدائه، بعدها بدأ سقراط يفقد إحساسه بالمنطقة السفلى من عموده الفقري. قام سقراط بتعرية وجهه بعد أن كان قد غطاه. وقال كلماته الأخيرة: «كريتو» لا تنس أن تدفع الدين لأننا ندين بوجبة «لأسكليبوس». أجابه «كريتو». «سيتم دفعه» هل هناك شيء آخر تود قوله يا سقراط؟

لم يجب عن السؤال. وتحرك حركة بسيطة بعد فترة قصيرة. وحين كشف الرجل عن وجهه كانت عيناه ثابتتين. فقام «كريتو» حين شاهد ذلك بإغلاق عينيه وفمه.

تزداد قيمة التأثير الأدبي والعاطفي بسبب التفاصيل الدقيقة لحالة الشلل والموت البطيء المتدرج، الأمر الذي جعل سقراط هادئاً وعقله صافياً حتى النهاية. يتجه «معظم القراء القدامى لقبول هذا الوصف على أنه مجرد عرض للتفصيلات الدقيقة بدقة وعناية قدر الإمكان».

فإن الدراسات الطبية في القرن السابع عشر قد أثارت شكوكاً حول التفاصيل التي وردت بالنص، وأنه لا يمكن تأكيدها بالحقائق الطبية المعروفة والمتعلقة

بسم «الشكران».

لم تتبدد هذه الشكوك إلا في عام 2001 على يد العالم «أنيدبلوخ» حين عرف أن السم نوع من أنواع سم نبات «الشوكران». اكتشف العالم أن هناك العديد من الأنواع الأخرى من السموم من نفس النبات تشبه النوع الذي تناوله سقراط كالشوكران المائي والشوكران المعروف باسم نبات الحمقى- وتتصف صفاته من حيث المظهر ودرجة السمية فإنها تسبب الموت السريع اللحظي- بينما نوع سم (الأشكران» الذي تناوله سقراط يختلف عن هذه الأنواع جميعاً، إذ يؤدي إلى وجود أحماض قلوية تسبب الموت البطيء والشلل التدريجي المتصاعد في أطراف الجسد بالصورة التي وصفها أفلاطون.

على الرغم من عدم توفر الأدلة لدينا على التثبت من صحة مثل هذه الأمور. إلا دقة الوصف الطبي للموت بسم «الشوكران» تؤكد أنه كان دقيقاً في تسجيله لكلمات سقراط الأخيرة، السؤال الآن ما معنى هذه الكلمات؟

ما الدين الذي يشغل بال سقراط وتليه أهمية عقله يناشد على سداده، ويخص في كلماته الأخيرة على ضرورة دفعه؟

كان من الطقوس اليونانية القديمة ضرورة تقديم المريض بعد شفائه من المرض أضحية «لأسكليبوس» الإله. لذا تعني كلمات سقراط وكلمة «ندين» بالتحديد إلى أنه قد عانى مع الحاضرين من أصدقائه من لحظة الموت وأنهم قد شفوا جميعاً. فماذا كان المرض الذي فكر فيه سقراط أو عانى منه وشفي؟.

المرض السرمدي.

يقدم نيتشه رداً أو إجابة عن هذه التساؤلات تعود إلى خمسمائة عام على الأقل قبل الميلاد حين تحدث عن «مشكلة سقراط» في كتابه «غسق الآلهة». اعتقد سقراط أن الموت يشفينا من مرض الحياة البدنية:

«فليست الحياة إلا مرضاً تعاني منه فترة طويلة». «يُعد الموت وفق هذه القراءة تحرراً من المعاناة من سجن البدن».

لم يصف «سقراط» التجسد أو الوجود الجسدي بأنه مرض. ونظر للانتحار- إن لم تأمر به الآلهة- على أنه شيء محرم. وإنما يقول:

إن الفيلسوف يشتاق للموت. حقيقة كانت محاورة «فيدون» كلها ليست إلا ردوداً على كل الشكوك التي أثارها كل من «سيبس»، «سيجمياس» حول قيمة الموت ومدى خيريته.

فإن «نيتشه» لم يكن أميناً في تحليله للنص حين نسب لسقراط قوله «أدين بأضحية «لأسكليبوس». بينما يقول سقراط في النص حين وجه حديثه إلى «كريتو» «ندين».

فقد بدل «نيتشه» في تحليله للنص لأن الموت كان قاب قوسين أو أدنى لسقراط فقط. ويدين سقراط وحده بالدين لأسكليبوس.

نستطيع أن نحصل على تحليل أمين للنص إذا لاحظنا أن سقراط في محاورة «فيدون» قد وحد بين أسوأ أمراض البشرية التي يمكن أن يعاني منها إنسان مع الأشياء المقلقة والمزعجة التي يعاني منها هو نفسه.

بينما يبين «فيدون» في روايته بوضوح أن «كريتو» والآخرين بدأوا يعانون من نفس هذا المرض طوال المناقشة وإنهم قد شفوا منه في نهايتها.

يعتبر سقراط أن عدم الثقة في العقل وكراهيته التفكير تعد من أسوأ الأمراض التي يمكن أن تصيب النفس. يقول:

«دعنا نتحصن من الإصابة من هذه الحالة».

يسأله فيدون: أي حالة تقصد؟

يقول له: «ألا نفقد الثقة في العقل ونكره التفكير»، فليس هناك ما هو أسوأ

من المعاناة من هذه الحالة».

ليست كراهية الفكر وعدم الثقة في العقل إلا أعراضاً لأسوأ أنواع الموت النفسي حيث يختفي الفكر من نفس الإنسان.

يقارن سقراط هذا الفناء بموت الصديق المحبوب مشيراً إلى الطقس الذي يتم فيه قص الشعر تعبيراً عن الحزن، والذي قد يفعله «فيدون» بعد موت صديقه سقراط حتى يبين «لفيدون» مدى سوء هذا الفناء النفسي.

«غداً، ربما تقص شعرك الجميل يا فيدون».

قلت: «بالطبع يا سقراط».

«ليس إذا فعلت ما أقوله».

قلت: «ماذا تقصد؟».

«أقص شعري اليوم وتقصه أنت غداً إذا مات الفكر ولم نستطيع إحياءه مرة أخرى. أو من جديد، وأتعهد مثل «أرجيفز» الا اربي شعري وأتركه ينمو إلا بعد انتصاري والرد على اعتراضات «سيمينر» و«سيبس»».

لقد يبين سقراط باستخدام طريقة المقارنة أن الحزن الشديد لا يتأتى من فقدان الصديق وموته وإنما من فقدان الفكر وفنائه. وفق هذه المقولة ليس هناك سبب لتقديم الإنسان الأضحية «لأسكليبوس» أقوى من التعافي من مرض كراهية الفكر والشفاء منه:

يقول «سقراط»: إن كراهية الفكر تماثل كراهية البشرية وعدم الثقة في أفرادها. ويعتقد أن هذه الكراهية للبشر تنمو وتتطور حين يقبل الفرد أصدقاءه دون نقد أو انتقاء ويتعرض للخيانة من جانبهم. وهكذا يحدث النفور من الفكر وكراهيته:

حين يثق بعض من تتقصهم مهارة التفكير في بعض أفكاره ظناً منه في

صحتها وصدقتها. ويكتشف بعد فترة وجيزة أنها خاطئة.

ويتكرر هذا الموقف مرات متعددة- خاصة لدى مَنْ يقضون وقتاً طويلاً في المجادلة فقط من أجل معارضة الآخرين- أتدري ماذا حدث؟ ينتهي الأمر بهم للاعتقاد أنهم أحكم من أي إنسان آخر، وأنهم الوحيدون الذين اكتشفوا أنه ليس هناك شيء مضمون وآمن في أي موضوع تتم مناقشته أو يتم التفكير فيه. يُعد هذا الموقف أو هذا الوضع مثيراً للشفقة، وباعثاً على الازدراء طالما أنهم- على افتراض إمكانية اكتشاف بعض الأمور الصحيحة وسلامة بعض الأفكار- يحرمون من إمكانية الفهم الصحيح للواقع وعدم إدراكه إدراكاً سليماً.

يؤكد سقراط أنه منزعج وقلق من معاناته هو نفسه من هذا المرض.

«دعنا نتحصن من الإصابة. وألا نعترف في داخلنا أو في نفوسنا بأنه لا سلامة أو فائدة في الحوار والمناقشة. وإنما علينا أن نفترض أننا مصابون بهذا المرض الآن ولسنا في حالة طيبة. إذ أخشى أنني لا أتفلسف الآن أبحث عن المعرفة بالنسبة لهذا الموضوع بالذات وإنما أسعى للمكسب (أسعى لكسب معركة للكلمات) مثل غير المثقفين.

يُعد «سقراط» محقاً في انزعاجه فقد عبر من لحظات سابقة عن رغبة «أرجيز» المقاتل في «الكسب» أو «الانتصار» على مَنْ يعترضون على التفكير.

يستخدم «أفلاطون» بنية محاورة «فيدون» لجذب الانتباه بصورة درامية لمرض النفور من التفكير أو التفلسف. تضم الورقتان الأوليتان من «المحاورة» نقاشاً بين «فيدون» و«إكسراتيي».

بينما تضم الصفحات الستون الباقية سرد «فيدون» لأحداث يوم وفاة سقراط بلغة درامية رائعة. يثير كل من «سيمياس» و«سيبس» وفق رواية فيدون اعتراضات كثيرة. ويوضح «فيدون» الأثر النفسي الذي تركته هذه الاعتراضات

على الحاضرين في يوم وفاة «سقراط» يقول: «لقد شعرنا جميعاً بالغم والمرض بعد سماع حديثهما (كما كنا لبعض بعضاً فيما بعد).

فقد كنا على قناعة بالحديث السابق عن خلود الروح. وأصبحنا الآن لا ننزعج فقط من الشك في النتيجة التي توصلنا إليها وإنما أيضاً في النتائج التي قد نتوصل إليها فيما بعد (هل لسنا مؤهلين للحكم على النتائج؟ أم أن الموضوع ذاته مستعصياً على الفهم ومتغير؟).

يتدخل «كراتيس» في الحوار في هذه اللحظة أي في منتصف المحاورة تقريباً مشددا الهجوم بصورة درامية على مرض النفور من التفكير.

«بحق الآلهة، يا فيدون، أشعر بنفس ما شعرتم به! لقد طرأت على بالي فكرة بعد ما سمعت ما تقول به، أيمكن أن نثق في أفكارنا ثانية؟ كانت أفكاراً مقنعة وباتت الآن محل شك».

يُعد ظهور مثل هذه المخاوف أو الظنون بداية لأعراض الإصابة بمرض النفور من الفكر كما وصفها سقراط.

يريد «إكراتيس» في هذه اللحظة «أكثر من أي شيء آخر» مسألة إثبات خلود الروح والأدلة عليها. يرغب في نجاح سقراط في إثبات الخلود بدلاً من رغبته الفلسفية في المعرفة. يبدو مشتاقاً وتميزاً لمعرفة ما حدث في القصة بعد ذلك. يقول «بحق «زيوس» كيف دلل سقراط على صحة أفكاره».

يؤكد «فيدون» في رده على «إكراتيس» أن «سقراط» بدأ يعالج الحاضرين من فرض النفور من التفكير اللعين. يقول «أعجبت «بسقراط» دائماً فإنني لم أشعر بعظمته إلا في هذه اللحظة. ربما كان متوقعاً أن تكون لديه إجابة جاهزة عن السؤال، فإن ما أثار إعجابي أكثر؛ طريقة علاجنا ونجاحه في ذلك».

تجنبت مناقشة تفاصيل العمليات الفكرية النهائية التي عالج «سقراط» بها

نفسه ورفاقه من هذا المرض.

وأود أن أوضح أنه ليس هناك شك في أن «سقراط» قد أعاد بصورة درامية على الأقل لبعض أصدقائه ثقتهم في التفكير، ومحبة العمليات الفكرية بصورة عامة باعتبارها نشاطاً إنسانياً. كما أعاد أيضاً ثقتهم في النتيجة الخاصة التي كانوا قد توصلوا إليها بأن كل نفس من نفوسنا الفردية خالدة.

وتمكن أصدقاؤه من اكتساب خبرة السلوك النقدي السليم للحجج. وأعتبر أن توضيح سقراط لأسباب مرض النفور من التفكير دلالة على تمتعه بصحة جيدة ووعيه.

يوافق «سيبس» مثلاً على الأفكار التي انتهى إليها «سقراط» ويثق بها. يقول: «ليس لدي اعتراض من جانبي يا سقراط أو شكوك تجاه أفكارك». لم يفكر في أن عدم إثارته أي اعتراض لا يمنع الآخرين من إثارة الاعتراضات». إذا كان لدى «سيجمياس» أو أي فرد آخر اعتراض أو شيء يقوله، فذلك وقت مناسب للتصريح به أو قوله». كان تطوير سلوكه النقدي أفضل طريقة لتجذب العودة لعملية النفور من التفكير في المستقبل.

ويعد رد فعل «سيجمياس» أيضاً صحيحاً تماماً. يقول: «كذلك ليس لدي اعتراض أيضاً من جانبي على هذه الأفكار. فإن سعة الموضوع وإدراكي لعنف الإرادة الإنسانية لا يزالان يولدان لدي الشوك حول ما قد قيل».

ويعتبر موقف «سقراط» النقدي أيضاً موقفاً صحيحاً. ويوضح مدى ثقته في التفكير يُقر سقراط بصحة النقطتين اللتين أثارهما «سيجمياس» بالنسبة لضخامة الموضوع وضعف الإرادة الإنسانية. ويضيف عليهما نقطة ثالثة ناقدة للنتيجة التي تمت الموافقة عليها بشكل إيجابي:

«لست محقاً فقط في إثارة هاتين النقطتين «ياسيجمياس» وإنما تحتاج

المقدمات التي ينطلق منها التفكير أيضاً إلى إعادة فحص ولمزيد من التوضيح على الرغم من تأكيدك والآخرين على صحتها وأنها جديرة بالقبول.

وأعتقد أنك إذا ما فحصت هذه المقدمات بصورة دقيقة تستطيع أن تحدد اتجاه العمليات الفكرية. وتتبع مسار الفكر وتياره الذي يمكن لأي إنسان أن يسير فيه ويتتبعه. ولن ينتهي بحثك إلا حين يصبح الفكر واضحاً وإيجابياً.

فإذا فرضنا قبول «سقراط» بضعف الإرادة الإنسانية أمام ضخامة الموضوع، وأن الأفكار والمقدمات التي ينطلق منها الحوار ليست معصومة من الخطأ، فإن تفسير هذه العبارة الأخيرة يعني أن البحث الإنساني لن ينتهي أبداً في هذا الموضوع أو أي موضوع آخر بهذا الحجم أو الضخامة.

وعند هذا الحد تنتهي رحلتنا في عالم ودنيا الفيلسوف الثائر سقراط الذي دفع حياته ثمنا لأفكاره وآرائه.

المؤلف

فهرس المحتويات